





GIFTS OF 2000

THE EMBASSY OF THE
PEOPLE REPUBLIC OF
CHINA - CAIRO



الجزء الاول

تأليف : ليو بينغ ون
شيويغ لى

دار النشر باللغات الاجنبية بكين

الطبعة الاولى ٠٠٠٠٠٠٠ عام ١٩٩٣

ترجمة : محمد عمر عبد الكريم

٢٤ شارع باى وان تشوانغ
بكين — الصين
الرمز البريدى ٣٧ ١٠٠٠٠

ISBN 7—119—01474—9

طبع فى جمهورية الصين الشعبية

لا بد لى اولا من ان احيى المؤلفين اللذين خطر على ذهنهما القيام بمقابلة هذا العدد الكبير من ابناء المجتمع الصينى فى مختلف مرافق الحياة ، ثم جمعا ما حصلا عليه من احاديث قيمة فى هذا الكتاب الجامع . . احيى فيهما فكرتهما الرائعة وجهودهما العظيمة التى اثمرت خير الثمار .

ان الكتاب بحق يشكل قيمة ثقافية كبرى لوفرة ما جمع بين دفتيه من معلومات هامة متعددة المصادر ، ادلى بها اناس من اوساط متنوعة متباينة ، اختلفت اعمالهم ووظائفهم فاختلفت معها انماط معايشهم واساليب تفكيرهم ، وتلونت مشاربهم وميولهم .

انه صورة حية للمجتمع الصينى بكل معطياته ومنازع حياته . فعلى الصعيدين السياسى والاقتصادى تكشف لنا مقالات الكتاب عما عاناه ابناء الشعب الصينى خلال فترة الثورة الثقافية التى استمر طغيانها ما يقرب من عشر سنوات . ثم يستنتج القارىء كم وكم اسهمت تلك الفترة فى تأخير الصين عن متابعة تطورها لتلحق بركب الدول المتقدمة .

سيرى القارئ الى اى مدى عانى ابناء الريف من الفقر والبؤس والحرمان من جراء السياسة الخاطئة التى مورست فى تلك الفترة . . وكيف ازدهرت احوالهم اليوم واحوال اخوانهم سكان المدن ايضا بفضل سياسة الاصلاح والانفتاح التى تسلكها السلطة الحالية .

سيلمس بكل وضوح ما خلفه تشجيع ممارسة التجارة الفردية الحرة من اثر ايجابى انعكس على تحسن مستوى المعيشة لدى قطاعات كبيرة واسعة من المجتمع الصينى . وازدهار المعيشة لدى الصينيين اليوم تبعه ازدهار على الصعيد الثقافى ايضا . فقد ازداد الاقبال على التحصيل العلمى .

واندفع كثير من الناس الذين ساءت احوال دراستهم خلال الثورة الثقافية ينشدون تعويض ما فاتهم فى تلك السنوات العجاف ، مدركين ان قيمة الانسان ترتفع بارتفاع درجته العلمية . كما ازداد الاقبال على مطالعة الكتب المتنوعة بعد ان ازدهر الادب وازدهرت الفنون بمختلف انواعها .

فى هذا الكتاب " الموسوعة " سيجتلى المرء الصورة الواقعية لحياة مختلف العينات من ابناء اكبر مجتمع بشرى فى العالم . فمقالاته تنقلك من العامل الى الفلاح ، من الاستاذ الى الطبيب ، من المهندس الى الفنان ، من الملاح الى الربان ، من البائع الى الحرفى ، من الموظف الحكومى الى التاجر الفردى ، من المضيفة الى الممرضة ، من عارضة الازياء الى المربية ، من السجين الى السجان ، من الرئيس الى المرؤوس . . من علية القوم الى ادناهم ، فى كل مجال يخطر لك على بال . بعضهم يحدثك عن معاناته فى الماضى ، وجميعهم يحدثونك عن تفاؤلهم بالحاضر وعن طموحاتهم وآمالهم .

لا بد لمن يروم التعرف على الصين من قراءة الكثير عنها فى كتب ومصادر متنوعة ومتعددة .

وهذا الكتاب وحده يقدم لقارئه خلاصة عشرات الكتب . فيخرج منه بفكرة موجزة عن وضع الصين اليوم ، منقولة بكل امانة وصدق عن ألسنة ابنائها فى شتى المجالات .

محمد عبد الكريم
خبير اللغة العربية
بدار النشر باللغات الاجنبية ببكين

الفهرس

الجزء الاول   نظرة الى الماضى

الجزء الثانى   فى الحى

الجزء الثالث   فى الادارة

الجزء الرابع   فى المكتب

الجزء الخامس   فى الصناعة

الجزء الحادى عشر في البحث والتنقيب



الجزء الاول
نظرة الى الماضى

وانغ تشى تشانغ : كادر متقاعد

" التقاعد يخلق كثيرا من المشكلات . "

كان يدعى " وانغ الكبير " ، يناديه بذلك الطلاب واعضاء هيئة التدريس فى معهد الموسيقى المركزى فى بكين ، وذلك بسبب طول قامته وحسن سلوكه اللذين يعهدهما الناس فى رجال القوات المسلحة .

ان وانغ واحد من " كوادر الـ ٣٨ " القليلين ، وهذا لقب خلع على الكوادر الصينيين الذين اسهموا فى القضية الشيوعية الصينية خلال حرب المقاومة ضد اليابان . لقد سرح وانغ من الجيش عام ١٩٦٥ ، واتجه الى العمل فى المعهد فى وظيفة مدنية بصفة ادارى .

وفى عام ١٩٧٧ ، حين اعيد امتحان القبول فى الجامعات والمعاهد على مستوى البلاد بعد فترة انقطاع دامت اكثر من عشر سنوات ، كان رئيس لجنة القبول لمعهده ، فقبل موهوبين موسيقيين مثل تشن يى وتشو شياو سونغ وتان دون وقوه ون جينغ . وانه لفخور بهذه الجهود ، ويعتبرها من الاسهامات العظيمة فى خدمته المدنية .

ان سن التقاعد فى الصين هى الستون للرجال والخامسة والخمسون

النساء . فمنذ عام ١٩٨٢ تقاعد اكثر من مليونى متمرس مثل وانغ ، مفسحين المجال امام الذين يصغرونهم سنا ويفوقونهم ثقافة وتخصصا .

يعيش وانغ الآن مع اسرته فى شقة من ثلاث غرف تقع فى المجمع السكنى التابع للمعهد . انتقل من عنده ثلاثة من اولاده . وغرفة نومه تقوم مقام مكتب وغرفة استقبال ايضا . والاداتان العصريتان الوحيدتان فى بيته هما التلفزيون الملون والثلاجة .

كان الجيش الشيوعى فى مقاطعة شاندونغ قوة قتالية مشهورة تماما خلال حرب المقاومة ضد اليابان . وقد اصبحت جنديا فى هذا الجيش وانا فى السابعة عشرة . وقاتلت اليابانيين ثمانى سنوات ، واشتركت بعدها فى الحرب ضد تشيانغ كاى شيك . وعبرت نهر يالو الى كوريا لأقاتل القوات الامريكية فى الخمسينات . واعتبر نفسى محاربا متمرسا .

كنت محظوظا ، او كما يقول المثل الصينى " صاحب عمر طويل " . فقد نجوت من الموت مرات متعددة . فكثيرا ما مر الرصاص بمحاذاة ظهرى وقبعتى . وكان من الصعب الاعتقاد بأننى لم اصب بأذى . وقد اصبت مرة واحدة بقذيفة يابانية .

فى عام ١٩٦٥ تركت الجيش ، وطلب منى العمل بين صفوف المثقفين . فأصبحت مدير القسم السياسى فى معهد الموسيقى المركزى فى بكين ، وعملت هناك الى ان تقاعدت عام ١٩٨٢ . لقد بدأت العمل مرشدا سياسيا وانا فى التاسعة عشرة ، وانهمكت فى السياسة والايديولوجيا منذ ذلك الحين . لذلك كنت واسع الخبرة الى حد ما من الناحية السياسية .

فى سنة تقاعدى اكدت لجنة الحزب المركزية ان على الكادر القيادى ان يكون شابا ومؤهلا تأهيلا مهنيا فى وقت واحد . فرأيت انى غير مؤهل من الناحيتين . وسألت نفسى عما يدعونى الى التمسك بهذا المنصب . كنت فى الستين يومها ، وقد بلغت سن التقاعد . فتقاعدت بمحض اختيارى .

فى الايام الاولى من تقاعدى شعرت بعدم الارتياح ازاء وقتى الطويل الفارغ من اى عمل . رافقت زوجتى الى المستشفى حين مرضت ، فتبينت ان المرء لا يستطيع العيش دون شريك عندما يكبر . انفصلت عن زوجتى بحكم الظروف سنوات طويلة . والآن ، وقد تقاعدت ، آمل ان اعوضها عن تلك الفترة .

وكنت ، اذا ما اردت شيئا افعله ، اذهب لأساعد الرجل المسؤول عن البريد الوارد والصادر فى المعهد . واعتقد اننى استطيع الآن ان اقوم بهذا العمل خيرا منه . هناك كثير من الرسائل الاجنبية تنتظر ان اوزعها ، ذلك ليس لأننى استطيع ان اتكلم اية لغة اجنبية ، بل لأن كثيرا من الاسماء مهجاة بالابجدية الصوتية الصينية التى صادف انى اعرفها . فى مكتب الاستلام والتوزيع يمكنك ان تقابل عددا كبيرا من الناس ، وتستطيع ان تتحدث وانت تعمل . فالوقت هناك يمضى بسرعة . وبرغم اننى كنت كادرا فى الماضى ولى امتيازاتى ، الا اننى اشعر بكثير من الارتياح وانا بين الناس العاديين .

فيما بعد تم التعاقد مع اناس للعمل فى مكتب الاستلام والتوزيع ، وطلب منى الانضمام اليه . فعملت هناك باختيارى

مدة سنتين ونصف السنة ، ثم عرضوا على بعد ذلك راتبا فرفضت العمل . وهناك سبب آخر هو ان حفيدتى الاولى كانت على وشك ان تولد ، وهذا سيضطرنى الى البقاء فى البيت للعناية بها . وفوق ذلك لم اكن ابغى النقود على وجه الضبط . وبعد عملى حاضنا للطفلة مدة سنتين ، واوشك موعد ارسال الطفلة الى دار الحضانة ولدت حفيدتى الثانية . ودعتنى زوجتى مازحة بلقب حاضن مؤهل . ولم تكن فى ذلك مبالغة ، فقد كنت اقوم بكل ما تقوم به الحاضنة ما عدا الارضاع . عندى اربعة من الاولاد والبنات ، ثلاثة منهم ربتهم زوجتى . والآن عندى متسع من الوقت ، واظن انه قد جاء دورى لمساعدة اولادى كى يتاح لهم المزيد من الوقت للتركيز على اهتمامهم المهنى .

انهض فى الساعة السادسة كل صباح ، وامشى حول المنطقة المجاورة مدة ساعة فى رياضة صباحية . وبعدها اقرأ الصحف التى يشترك بها المعهد من اجلنا نحن الكوادر القدامى ، وعددها يقرب من عشر صحف . ودائما ما اساعد زوجتى فى اعمال الطبخ ، ونطبخ عادة بأسلوب شاندونغ . وفى المساء اظل قبالة التلفزيون الى ان يقول المذيع : " تصبحون على خير . "

بقيت اعمل للثورة خمسين سنة . وكان العمل الايديولوجى موضع اهتمام فى الماضى ، وقد تم ارسالى للدراسة مدة سنة فى المعهد السياسى التابع لجيش التحرير الشعبى . شعرت ان عملى مرتبط ارتباطا وثيقا بالشعب ، وهذا كان فى غاية الاهمية . اما الآن فأشعر اننى عديم المنفعة ، واننى اصبحت عبئا . من بين

المتقاعدين تم تشغيل جميع المختصين . هناك قول تقليدى مفاده " المختصون يحظون بالمنزلة الاجتماعية والمكاسب المادية . " لقد ظللت خلال السنوات الماضية منهمكا فى مساعدة ابناء الشعب على حل مشكلاتهم اليومية ، لذلك لم اجد الوقت لتعلم حرفة .

اما زوجتى فظلت تقوم بعمل ادارى طيلة حياتها ، وكان لها من الخبرة ما يشبه خبرتى . ولم تحصل على زيادة فى الاجر منذ الخمسينات .

طلبت من افراد اسرتى ألا يقوموا بعمل سياسى . فقد عانيت الكثير بسبب انهماكى فى ذلك ، واريد التأكد من ان الجيل القادم من اسرتى لن يعانى ما عانيت . فوعدنى اولادى بعدم الاشتغال بالسياسة . ولكن من سوء الحظ البالغ ان ابنتى الكبيرة تعرضت لاضطرابات نفسية نتيجة الثورة الثقافية (١٩٦٦ — ١٩٧٦) . واولادى الآخرون واحد منهم مدرس فى المدرسة المتوسطة ، والثانى مهندس والثالث محلل اعلامى .

راتبى الاساسى الحالى ١٨٠ يوانا ، ومع العلاوات يصل الى ٢٤٠ يوانا كل شهر . طبعا لم يعد بوسعى ان اتمتع بكافة الامتيازات التى كانت لى وانا كادر كبير . وهذا الراتب ٢٤٠ يوانا يساوى ما يكسبه صهرى العامل . اننى اتقاضى راتب الخمسينات ، لكننى ادفع نفقات الثمانينات .

لقد خلق التقاعد كثيرا من المشكلات الاخرى . عندما تكون فى السلطة يكثر حولك المتملقون ، وبمجرد ان تتركها

تبدو كأن الجميع قد نسوك :

فكرت فى مساعدة ابنتى على الانتقال الى عمل اقرب الى البيت كى يتسنى لها مزيد من الوقت للقيام بعملها المنزلى . لكننى احجمت خوفا من ان يشك بى اننى استغل منصبى ، ورأيت ان بوسعها تبديل عملها بعد ان اتقاعد ، لكننى كنت مخطئا . وعلمت فيما بعد اننى قد اغضبت اناسا فى الماضى ، لذلك رفضوا الآن مساعدتى :

عندى شقة اكبر مما لدى غيرى ، وذلك لأننى كنت رئيس قسم حين تقاعدت . وخلال الثورة الثقافية صادر المتطرفون غرفة من شقتى ، ولم تعد الينا حتى الآن . حاولت استعادتها عشرات المرات لكن دون جدوى . لذلك تضطر المربية التى نستأجرها لحفيدتى الى النوم على الاريكة . وفهمت ان هناك ازمة سكن عصيبة فى المعهد الآن . ان الانسان عاجز خارج السلطة .

شاركنى هذه المشاعر كثير من الكوادر المتمرسين فى المعهد . ما زلت اعمل امين فرع اللجنة الحزبية عن الكوادر المتمرسين . فنعقد الاجتماعات من حين لآخر . وفى اوقات كهذه يتذمرون من اشياء كثيرة . وعد المعهد بأن يخصص لنا نحن الكوادر القدامى سيارة ، لكن لا اثر لها حتى الآن . ووضعت لنا لجنة الحزب المركزية سياسة جيدة ، اما تطبيقها فشئ آخر مختلف كل الاختلاف .

ان المسنين يحبون ان يتذكروا الايام السارة من ماضيهم ، وانا لا اختلف عنهم فى ذلك . فأكثر الاشياء المرضية التى سبق

لى ان فعلتها هو اننى اضطلعت بمسؤولية شؤون القبول فى المعهد ، فأدخلت كثيرا من ذوى الموهبة الموسيقية الذين اصبحوا اليوم ذوى تأثير كبير فى الموسيقا فى الصين . . بعد سنوات من النشاط السياسى انجزت اخيرا شيئا ذا قيمة .

اننى فى صحة تامة ، لا اشكو الا من بطء فى نبضات القلب . اريد الآن ان اقوم بكتابة شيء من تجاربى الطويلة ، انما لغير النشر . اولادى يصفوننى مازحين بأننى احمق لأنى لم استغل سلطتى عندما كنت فيها . لكنى لا اوافقهم الرأى . ولو قارنت نفسى الى رفاقى فى السلاح الذين ضحوا بأرواحهم فى الحرب ، لوجدت انى ذو حظ عظيم ، عظيم حقا !

شيه شيا لينغ : عنصر سابق فى الحرس الاحمر

"كنت فى البداية 'حارسا احمر' ، ثم سجنت
بتهمة 'عدو طبقى' خلال الثورة الثقافية ."

فى عام ١٩٦٦ ، حين كانت الصين غارقة فى الثورة الثقافية التى ألحقت بالامة الخراب والتدمير طيلة عشر سنوات ، كان الطلبة الشباب يعبأون كقوة صدامية لشن الهجوم على كل ما هو تقليدى . وهؤلاء الشباب السذج سياسيا الذين لفوا على اذرعهم شارات حمراء ودعوا انفسهم " الحرس الاحمر" قد امتدحهم بعض اليساريين المتطرفين بأنهم " اشد العناصر ثورية " . ومن خلال تلويحهم بكتب حمراء صغيرة تضم " مقتطفات من اقوال الرئيس ماو" وجهوا اصبع الاتهام الى رئيس الدولة ليو شاو تشى والامين العام للحزب دنغ شياو بينغ ، ثم شملوا باتهاماتهم كل موظف على المستوى القاعدى . واحتشدوا فى الشوارع محاولين ازالة كل اثر لـ " التعنت البرجوازى" ، وذلك بقصهم شعر الفتيات الاجعد وضفائرهن ، واقتحموا بيوت المشتبه بأنهم " اعداء طبقيون " ، وفتشوا البيوت بحثا عن اى دليل على " الجرائم المعادية للثورة " .

لكن مع مرور الوقت ادرك الكثير منهم مؤخرا انهم كانوا مستغلين او مخدوعين . وان عددا من المغالين فى تحمسهم قد اشتطوا كثيرا ، فأصبحوا هم انفسهم فيما بعد " اعداء طبقيين " وعانوا من الاضطهاد .

كان شيه شيا لينغ ، وهو الآن محاضر فى قسم الفلسفة بجامعة

فودان الشهيرة فى شانغهاى ، " حارسا احمر " فى الفترة الاولى من الثورة الثقافية . انه متخصص فى الهندسة اصلا ، لكن تجربته فى صفوف " الحرس الاحمر " غيرت اتجاهه الاكاديمى ، فحصل اخيرا على شهادة الدكتوراه فى الفلسفة .

كتب الدكتور شيه عددا من الاعمال الفلسفية التى ستنشر قريبا . ويعيش الآن مع زوجته التى تعمل معلمة ابتدائية وابنه البالغ من العمر عشر سنوات فى مبنى سكنى صغير من الطوب الاحمر فى الضاحية الشمالية الشرقية من شانغهاى .

هذا المثقف المستدير الوجه البالغ من العمر ثلاثا واربعين سنة رجل مفكر . ان ذكرياته عن تجاربه ايام شبابه تلقى ضوءا على عقلية الشباب خلال ذلك العقد من الفوضى والاضطراب .

اى نمط من الناس اكون ؟ من الصعب على توضيح ذلك . وانا لست صينيا نموذجيا . معظم الصينيين يميلون الى قبول ما يأتى فى طريقهم دون تذمر ، سواء احبوا ذلك ام كرهوه . ويعتقد ان من الفضائل ان يتصف الرجل او المرأة بهذه الصفة ، لأنهما سيحظيان بمحبة الآخرين لقاء ذلك .

لكننى لا اعتقد بهذا . ان فى بلادنا كثيرا من الناس الذين يفكرون بهذه الطريقة . اجل ، وفى بعض الحالات يقود هذا التفكير الناس الى نزعة الايثار او الخيرية . لكنه يشجع ايضا على الخنوع والاذعان والغموض ، فلا يخدم ذلك فى دفع المجتمع الحديث قدما .

وفوق ذلك لم يكن هذا النمط نمطى ، حتى منذ كنت طفلا صغيرا . لقد رفضت بكل بساطة ان ادفع من حولى ، ولم اتردد ابدا عن التكلم جهارا اذا ما شعرت بأننى ألقى معاملة فجة .

الفلاسفة يجب ان يتصفوا بهذه الصفة ، لا سيما الجيدون منهم .

احيانا قد تغدو الحياة قاسية حقا لمجرد انك لا توافق غالبية المجتمع . ولقد رأيت وخبرت الكثير ممن لا يعرفون ذلك . لكنني لم اغير مواقفي لمجرد التلازم مع طرق التفكير الحديثة . لم اعان ابدا من مشكلة التطابق . ولا اتخلى عن موقفي اذا رأيت اني مصيب . الصواب سيهزم الخطأ عاجلا ام آجلا ، على الرغم من ان العملية قد تتم فى بطء مضن .

لقد زرت اماكن كثيرة . فبعد ولادتي فى تشونغتشينغ بجنوب شرقي الصين انتقلت مباشرة مع اسرتي الى شانغهاى . وبعد عدة سنوات انتقلت الى بكين حيث قضيت معظم طفولتي وكل صباى وشرخا من شبابي . وفى عام ١٩٦٨ اصبحت " عدوا طبقيا " ، واودعت السجن فى الريف . امضيت ما يقارب السنتين هناك اعمل فى مزارع السجن . وفى اواخر عام ١٩٧٣ نفيت الى بلدة ريفية صغيرة بالقرب من نانتونغ ، مسقط رأس ابوى : ومنذ عام ١٩٧٧ عدت الى شانغهاى ثانية .

خلال ذلك مرت بي احوال كثيرة . فمن حيث الترتيب الزمني كنت اولا طالبا جامعيا فى كلية الهندسة ، ثم حارسا احمر ، ثم " عدوا طبقيا " فى السجن ، فعاملا يدويا ، فمدرسا فى مدرسة متوسطة ، فطالبا متخرجا . واصبحت "كافرا " فى اوائل عام ١٩٨٠ حيث حاولت تحديث الماركسية : اما الآن فأنا دكتور فى الفلسفة ومدرس جامعي .

على اية حال ان هذه الارتفاعات والانحدارات التي تعرضت

لها فى حياتى قد عادت على بفائدة يفتقر اليها الكثير من المثقفين الشباب . فبعضهم لا يذكر من تاريخ الصين الحديث الا ذكريات طفيفة ، ومعظم ما يعرفه هؤلاء مأخوذ من الكتب . اما انا فرأيته واحسسته وعايشته ، فتوصلت الى فهم اعمق للصين . انك لا تستطيع فهم الصين ما لم تفهم ريفها الواسع . ولن تجد الطريقة التى تفهم بها كيف تطورت الصين اذا كنت تفتقر الى فهم الاسباب الاساسية للثورة الثقافية .

لم يمض الا بضع عشرة سنة على انتهاء الثورة الثقافية عام ١٩٧٦ ، غير انها اصبحت ذكريات باهتة فى اذهان معظم الصينيين . وهذا امر معقول حيث ان قلة من الناس فقط ترغب فى تذكر ذلك الحلم . اما بالنسبة لى فان الذى حدث ما يزال حيا فى ذهنى ، لن انساه ابدا ، ليس لأنه يشكل نقطة تحول فى حياتى فحسب ، بل لأنه كان بالنسبة لى اكثر من مسألة اهتمام شخصى . ولدينا نحن الصينيين قول مأثور : " خبرة الماضى مرآة للمستقبل ان لم تنس . " لقد كانت الثورة الثقافية كارثة حلت بالصين . فيجب ان ندرس بدقة لنستخلص منها دروسا تحول دون عودتها من جديد .

فى منتصف عام ١٩٦٦ ، حيث الثورة الثقافية على وشك ان تبدأ ، كنت طالبا فى سنة التخرج بجامعة تشينغهوا . دخلت الجامعة عام ١٩٦٢ ، وكان امتيازا حقيقيا ان احصل على تعليم عال فى ذلك الوقت . وكانت المنافسة على ذلك عنيفة عام ١٩٦٢ ، ولكن برغم هذا وجدت من السهل ان احصل على قبول فى قسم

المحركات الكهربائية بجامعة تشينغهوا ، غير متجاهل ان تحصيل ذلك تطلب درجات عالية جدا . وفرح جميع افراد اسرتى بنجاحى ، حيث كنت اول طالب جامعى فى اسرة شيه .

حين اخذ الضغط السياسى يتصاعد كنت اجهل ذلك جهلا تاما . كنت اذذاك فى قرية بضواحى بكين مع عدد من زملائى الجامعيين . وقد ارسلنا الى تلك القرية فى ايلول ١٩٦٥ كى " نساعد الفلاحين فى شن ' حركة التطهيرات الاربعة ' " * كما طلب منا . وقد راعنى ما كان عليه الفلاحون من فقر مدقع ، وادركت كم من الصعب عليهم ان يكسبوا معيشتهم ، وعزمت على ان اساعدهم فى تحقيق حياة افضل .

لحظة عودتنا الى الحرم الجامعى احسست بجريان امور غير عادية . حشود من الطلبة راحت تندفع هنا وهناك . ومكبرات الصوت اخذت تبث رسائل ساخطة . وظهر التغير على الحرم الجامعى الذى كان ينعم فى هدوء طبيعى . فساده جو من التجهم والعصبية والتوتر الحاد ، كأن شيئا يوشك ان ينفجر . وسرعان ما اكتشفت ان عددا من الطلبة قد " تمردوا " محاولين انتزاع السلطة من لجنة الحزب فى الجامعة . رفضت اللجنة الاستجابة ، فبدأ الطلبة عند الظهر يتجمعون بأعداد متزايدة حول المبنى الادارى . ومع الغروب كانت الجامعة تحت قبضة " الطلبة المتمردين " .

فى تلك الاثناء بدأت اعمال الشغب خارج الحرم الجامعى . وواجهت حكومة بلدية بكين ثورانا عارما . وبعد هذا بوقت

* التطهير فى ميدان السياسة والايديولوجيا والتنظيم والاقتصاد .

غير طويل ارسلت الى جامعتنا " فرقة عمل " . فى ذلك الوقت كان زعيم " الطلبة المتمردين " صديقا لى يدعى قواى دا فو . ولكن خلافا له لم اعارض " فرقة العمل " هذه ، بل ذهبت لأقول لافرادها فقط ان وسائلهم فى السيطرة على الطلبة خاطئة . كنت مخلصا فى تنبيهى اياهم ، لكنهم اعترضوا على بخشونة . وقالوا فوق ذلك بأنى " شخص فى غاية السوء وغريب عن الشعب" ، ثم خطئت واهنت اسوأ اهانة . لكن اضطررت ان اصبح عضوا فى الحركة على شكل " حارس احمر" .

سرعان ما وجدت نفسى فى وسط مجموعة المستشارين " للطلبة المتمردين " . ولم يكن هذا بسبب موهبة فطرية متمثلة فى ما لدى من فصاحة ، بل بسبب قدرتى على بلوغ جوهر كل مسألة فورا . وتتبعت مختلف جوانب كل وضع ، وجمعت الاجزاء المتناقضة من الاخبار ، وحاولت ان اكتشف الاتجاه الذى تنتحيه الحركة . ومن خلال طرح الاسئلة فسرت المعانى الضمنية لما جاء به المسؤولون من شعارات وعلامات مضللة .

ومع تقدم الثورة الثقافية حققت ازاءها رؤية افضل . وتخلصت من الاوهام تدريجيا واصبحت اكثر تعقلا ، وكلما ازددت معرفة لها ازدادت شكوكى فيها . ومن نواح كثيرة وجدتها مناقضة تماما لما يجب فى رأيى ان يكون .

ان ما رأيته وشعرت به فى الريف قد جعلنى فى البداية مستعدا لقبول دعوة الرئيس ماو " لنطرد سالكى الطريق الرأسمالى فى سلطة حزبنا . " لكننى سمعت من الاصدقاء فيما بعد ان اولئك

الناس الذين يعملون لدى لين بياو وجيانغ تشينغ يتمتعون بامتيازات كثيرة ، وبعض هذه الامتيازات منتهك حرمة القانون انتهاكا فاضحا . انهم لا يعملون وفقا لما يعظون به . وكنت مثاليا فلم استطع احترام ثورة يقودها منافقون .

وفوق هذا كنت من سكان المدن وطالبا جامعيا ، فما كنت ليخدعني الوعد الاجوف بسهولة . لقد آمنت بالديمقراطية واللامركزية ، واحترمت المعرفة والقدرات ، وهذه كلها لوثت وتأذت بالثورة الثقافية .

وهكذا وصلت الى استنتاج بأن هذه الحركة خاطئة يجب ايقافها . وبدأت اعبر عن رأيي صراحة ، مما جعلني اصنف على الفور " عدوا طبقيا " . ثم جرني صديق مقرب لى الى مكتب الامن فى بكين حيث حوكمت واودعت السجن . وبعد سنتين تقريبا شاءت الظروف المضحكة ان يحتل هذا الصديق نفسه السرير الموالى لسريرى داخل السجن !

يقال ان السجين طائر لا يستطيع الطيران ، والحقيقة اسوأ من ذلك بكثير . فتحت المراقبة المستديمة لا يمكنك ان تتصرف او تتكلم بحرية . كان الطعام بائسا ، وكان العمل الزراعى اليومى مرهقا . والمؤلم ايضا انه لم تكن هناك كتب للقراءة سوى مؤلفات الرئيس ماو وماركس ولينين ، فسعيت للحصول على الطبعة الانجليزية لمؤلفات الرئيس ماو لصقل لغتى الانجليزية .

فى عام ١٩٧٨ ، بعد قرابة سنة ونصف السنة من انتهاء عهد " عصابة الاربعة " ، استأنفت الجامعات تسجيل طلبة

التخرج . فى ذلك الوقت كنت مدرسا فى مدرسة متوسطة ، فقررت ان اتقدم بطلب لدراسة الماجستير فى الفلسفة ، وبعدها لدراسة الدكتوراه ان امكن . لكن خطتى هذه قوبلت بمعارضة شاملة من اقربائى واصدقائى . قالوا ان الفلسفة سياسة ، والسياسة خطرة ، والخطر هو ما يجب على المرء ان يتجنبه . فلم اقبل نصيحتهم . وتقدمت بطلبى ، ثم نجحت فى امتحانات القبول ، وادرج اسمى فى قسم الفلسفة بجامعة فودان . وفى عام ١٩٨١ حصلت على شهادة الماجستير ، وفى عام ١٩٨٥ نلت شهادة الدكتوراه ، وكانت رسالتى حول الفيلسوف كانت .

لماذا تحولت من العلوم الطبيعية الى الفلسفة ؟ اولا ، لأنني احبها واستمتع بدراستها . والفلسفة تتطلب تركيز الانتباه فى الطبيعة ، وتتطلب المزيد من التفكير ، والتفكير هو ما استمتع به . اتذكر وانا فى الخامسة عشرة اننى كثيرا ما كنت اقول لأصدقائى : " اسكتوا ، اننى افكر . "

ثانيا ، لأن الصين تحتاج الى الفلسفة .

الصين تقوم بتحول كبير مفاجئ . لقد التأمت معظم جراحها التى اصابتها خلال سنوات الاضطراب العشر ، وها هى ذى الآن تنهمك فى تطور اقتصادى . ان مستقبلها فى خطر . كلما كان اقتصاد البلاد اكثر تحديثا ، كانت اكثر قدرة على الثبات فى المجتمع الدولى . وخلال هذا التحول لا بد من تغيير تفكير الناس . وفى هذا المجال بالذات تلعب الفلسفة دور المساعد .

بنيلى شهادة الدكتوراه دعتنى الجامعة الى البقاء فيها محاضرا .

وانا الآن ألقى محاضرات فى علم الاجتماع . وانى لأستمتع بذلك ؛ ويؤتى جهدك ثماره حين تجد الطلبة يصغون الى محاضراتك باهتمام . وهذا يعتبر عملا ذا وجهين ، اذ ينشط ذهنى بشدة وانا اعمل لصالح الطلبة كما آمل . لقد ظل علم الاجتماع محظورا ما يقرب من عقدين من الزمن الى ان استؤنف تدريسه ثانية فى اوائل الثمانينات . وحتى الآن ما يزال غير شائع كما هو فى البلدان الغربية . ليس لدينا هنا برنامج مستقل فى علم الاجتماع ، بل هو مجرد مقرر الزامى للطلبة فى قسم الفلسفة .

الى جانب التدريس فى قسم الفلسفة اعقد احيانا حلقات بحث لكل من يريد الحضور . وتتراوح الموضوعات ما بين مؤلفات بلاتو وتحاليل حول الاصلاحات الحديثة . وفى اعتقادى ان كل طالب ، مهما كان اختصاصه ، يجب ان يعرف شيئا عن الفنون العقلية والعلوم الاجتماعية . الصين تحتاج الى المهندسين اكثر من الفلاسفة ، ولكن لا يصح ان يعرف المرء كل شيء عن الآلات ، ولا يعرف شيئا عن بلاتو او كانت او الادب او الثورة الثقافية . اننى دائما ما اطرح اسئلة ، واطلب من طلبتى ان يجدوا اجوبتها بأنفسهم .

وخلافا لبعض المثقفين الشباب اعتقد ان عملية الاختيار ليست امرا سهلا . انها ليست مسألة اسود او ابيض . الشعب والثقافة يقرران اتجاه البلاد . والثقافة الصينية مختلفة عما لدى البلدان الغربية ، لذلك لا ولن تستطيع الصين تقليد هذه البلدان خلال قيامها بتطوير اقتصادها . وارى من واجبى ان اطلب من

هؤلاء الطلبة الشباب قراءة التاريخ ، وان يحاولوا التوصل الى فهم للنقاط الرئيسية المتجادل فيها ، ثم ينتهوا الى استنتاجاتهم الخاصة .

لا مراء فى ان الصين قد اسهمت بنصيب وافر فى الفهم الفلسفى العالمى . وكان لدى الصين كثير من الفلاسفة فى العصور القديمة . وقد خلدت اعمالهم ، وتدرس اليوم فى مختلف انحاء العالم . لكن بعض الناس ، داخل الصين وخارجها ، يقول بأن الصين ليس عندها فلاسفة فى ماضيها القريب او حاضرها . فأنا اعترض على هذا القول . عندنا مثلا شيونغ شى لى الذى قدم بحثا رائعا يقرن الى البحث الذى قدمه هايديجر وغادمر الالمانيان الغربيان ودريدا الفرنسى . ومع المزيد من التبادلات الدولية الآن سيحظى المزيد من الفلاسفة الصينيين بالشهرة العالمية .

وانا ايضا اجرى الآن بحثا . فقد انتهيت من عدة كتب ستنشرها فى الاسواق قريبا عدة دور للنشر . احدها نسخة موسعة لرسالة الدكتوراه حول كانت ، وآخر دراسة للطاوية . وهدفى الرئيسى ان انشئ نظاما فلسفيا خاصا بى . واقوم الآن بعملية مسح وتقييم لمنجزات كل من الفلاسفة الصينيين والغربيين . وآمل ان يكون المردود نظاما جديدا مصمما للصين الاشتراكية الحديثة .

هذا العمل الاكاديمى يستغرق جل وقتى ، لكنه ليس الجانب الوحيد فى حياتى اليومية . فأنا احب الاستماع الى الموسيقى الكلاسيكية ، وأواظب على القراءة ، واساعد زوجتى فى الاعمال المنزلية ، واحاول ايجاد وقت اقضيه مع ابنى .

انني الآن في غاية الرضى . ان اكبر متعة بالنسبة لى هى ان اقوم بعمل يستحق الجهد ، وان يكون عندى من الوقت ما يكفى لادائه . لطالما اشتقت الى هذه الفرصة وانا داخل السجن في الريف . اما الآن وقد جاءت هذه الفرصة ، فما الذى ابتغيه بعد ذلك ؟ ان اسفى البالغ هو ان امى ماتت قبل ان ترى هذا الطور من حياتي . عند احتضارها كنت فى السجن ، ولم يسمح لى برؤيتها . كم كان بودى ان ترانى منهمكا فى القراءة والتفكير والكتابة .

شيه تشن وو : محارب قديم

" اننى لا استطيع ان اتحمل فكرة الاكتفاء بالجلوس والاكل والنوم طيلة الوقت . "

كان شيه تشن وو البالغ من العمر ستا وثلاثين سنة ، بطل حرب فى جبهة لاوشان . انه من منطقة قوانغشى الذاتية الحكم لقومية تشوانغ . انضم الى الجيش عام ١٩٧٤ ، وقاتل ضد الفيتناميين من عام ١٩٧٩ الى عام ١٩٨٤ ، وقد اصيب اصابات خطيرة ، وفقد بصره نتيجة انفجار قذيفة . ومن مايو ١٩٨٤ الى حزيران ١٩٨٧ ظل ملازما المستشفى يتلقى العلاج . وقد التأمت جروحه اخيرا ، الا انها تركت ندوبا مشوهة ، وما يزال فاقدا البصر .

كان فى البداية متشائما بل يائسا بخصوص مستقبله . لكن انطلاقا من كونه جنديا صمم على عدم الاستسلام ، بل رأى ان عليه ان يواصل حياته ليكون فردا نافعا .

فى عام ١٩٨٧ قدمت مدرسة بكين للمكفوفين برنامجا جديدا يهدف الى مساعدة جنود جبل لاوشان السابقين الذين فقدوا بصرهم . وتم تسجيل اربعة وعشرين جنديا اعمى ليكونوا طلابا فى صف للتدليك ، وقدم شيه طلبا للانضمام اليه وقبل اخيرا . وقد امضى فيه سنة يتعلم على نحو جيد بسبب تماسك شخصيته .

تزوج شيه عام ١٩٨٣ ، وزوجته هى شقيقة قائد فصيلته السابق ، وتقيم اليوم فى مسقط رأسه بمقاطعة قوانغشى .

اعيش فى ظلام ، لكن قلبى مفعم بالامل . املى ان اظل انسانا نافعا ، وهذا هو الشىء الوحيد الذى يجعل حياتى محمولة . والا لما استطعت ان اتخيل كيف امضى بقية حياتى . اننى ممتن لمدرسة بكين الخاصة بالمكفوفين على استهدافها صف التدليك .

حين كنت ملازما السرير فى المستشفى شعرت بالعجز واليأس . كنت اسمع الناس يلعبون الكرة ويغنون ويرقصون ، فلا يزيدنى ذلك الا اكتئابا . الجروح فى جسم كانت محمولة ، لكن فقدان بصرى جعلنى كالمجنون . لقد بذل الاطباء كل ما فى وسعهم لاستعادة بصرى ، لكنهم لم ينجحوا . كثيرا ما خرجت عن طورى ولعنت حظى ، وتمنيت لو اننى قتلت فى الحرب بدلا من ان اصبح اعرج واعمى . وكنت فى احيان اخرى التزم الصمت وارفض التكلم مع اى شخص طيلة اليوم .

تولت زوجتى العناية بى داخل المستشفى ، فكانت تحكى لى كثيرا من قصص العاجزين الذين كافحوا للقيام بأعمال ناجحة ، وعاشوا حياة لها قيمتها . ومن اجل ان تبعث السرور فى نفسى راحت تشجعنى على ان لا اكون سلبيا . فتمكنت بمرور الوقت من التغلب على وضعى .

دائما ما افكر فى جنود فصيلتى وقائدها الذين قتلوا فى المعركة . وكثيرا ما احلم ايضا بالمعارك التى خضتها ، فذكريات ذلك القتال لا تنفك تلازمنى .

انضممت الى الجيش عام ١٩٧٤ وعمرى تسع عشرة سنة . وعندما اندلعت حرب الحدود الصينية – الفيتنامية فى اوائل عام ١٩٧٩ كنت قائد جماعة . وصدر الامر الى وحدتى العسكرية بالتوجه مباشرة الى جبهة الحدود قرب قوانغشى .

صددنا الغزاة الفيتناميين ، وطاردناهم الى داخل اراضيهم . وبعد ان اجتزنا عشرة كيلومترات داخل حدودهم واجهنا مقاومة عنيفة . ولم تكن هناك طريق ، فاضطررنا الى شق طريقنا فى الجبال ونحن نقاتل عبر الادغال . واستفاد الفيتناميون من تضاريس المنطقة فى زرع ألغام يمكن ان تنفجر فى اى مكان . لكن نيراننا القوية قهرتهم ، وسيطرنا على مرتفع تلو الآخر . غير اننا تعرضنا كذلك لاصابات شديدة . وحين وصلنا سفح المرتفع ٠٠٨ لم يكن قد بقى من فصيلتنا الا خمسة افراد : قائد الفصيلة وثلاثة جنود وانا . وجاء الامر عبر هاتف قائد الفصيلة اللاسلكى بالاستيلاء على المرتفع ٠٠٨ بأسرع ما يمكن .

بدأنا التسلق نحو المرتفع ، وكل منا محتفظ ببعد محدد عن الآخر . اطلق الفيتناميون علينا النار من موقعهم المطل على موقعنا . وخلال تبادل اطلاق النار قتل الجنود الثلاثة . وبعد ان طلب قائد الفصيلة دعما مدفعيا انصب على موقع العدو وابل من نيران المدفعية . وتحت غطاء من هذه النيران اقتربت مع قائد الفصيلة من القمة حيث كان رشاش يطلق النار على نحو دائم . فاختبأنا داخل الشجيرات غير قادرين على التقدم خطوة اخرى .

توقف الاطلاق لحظة ، وسمع قائد الفصيلة قرقعة ، فأدرك

ان الجندى المعادى يقوم بتغيير المشط . وعرف من خبرته ان امهر جندى يحتاج الى سبع او ثمانى ثوان لتبديل المشط . فاغتنم الفرصة وقفز الى خندق العدو ، فوجد جنديا واحدا ما يزال حيا والى جانبه جثث خمس من الجنود قتلتهم نيران مدفعيتنا . وقبل ان يقوم الجندى المعادى بأى مقاومة قتله قائد الفصيلة . وانا ايضا قفزت الى الخندق ، وهكذا احتللنا المرتفع المطل . وبعد وقت قصير بدأ ما يقارب الثمانية من الجنود الفيتناميين يهاجموننا من الجهة الجنوبية ، محاولين استعادة المرتفع . ففتحت عليهم النار لامنعهم من الاقتراب ، فيما طلب قائد الفصيلة تعزيزا عبر اللاسلكى . حل الغروب ، واصبح المزيد من جنود العدو يستخدمون فى هجوم معاكس عنيف . وكنا فى غاية الثقة لمعرفتنا ان الامداد على الطريق . وواصلنا الاطلاق على الاهداف المتحركة من رشاش وبنادق اوتوماتيكية . ورأيت اننا قتلنا على الاقل خمسة جنود معادين . لكن قائد الفصيلة اصيب برصاصتين فى صدره ، فمات بعد وصول الامداد بدقائق . وقبل موته طلب منى ان آخذ مكانه وان ازور شقيقته التى تصغره اذا عدت الى البيت ، فلم اجبه بغير كلمه " نعم " .

بقينا مستولين على هذا المرتفع الاستراتيجى الى ان صدر الينا امر بالانسحاب . وعينت رسميا قائد فصيلة بعد ان عدنا الى بلادنا . وظلت فصيلتى متركزة على حدود قوانغشى .

نفذت ما كان قد طلبه منى قائد فصيلتى ، فأخذت ازور شقيقته كلما اسعفنى الوقت . وتولد بيننا الحب تدريجيا ، ثم

تزوجنا فى عيد الربيع (رأس السنة القمرية الصينية) عام ١٩٨٣ . فى ذلك الوقت لم تحدث اشتباكات كبيرة على حدود قوانغشى ما عدا تبادل قصف مدفعي غير منتظم وتحركات عرضية للعدو .

لكن كان هناك قتال عنيف فى جبل فاكا وجبل لاوشان ، وهما نقطتان استراتيجيتان على حدود مقاطعة يوننان .

فى مايو ١٩٨٣ امرت وحدتى العسكرية المتمرسة فى الحرب بحماية جبل لاوشان الذى كان عرضة لهجوم دائم من الفيتناميين . وذهبت فصيلتى الى الخط الامامى حيث رحنا نترصد كل حركة للفيتناميين .

تعين بقاؤنا هناك سنة ، اقمت خلالها انا وافراد فصيلتى فى انفاق رطبة تدعى "جحور القطط" ، نتابع عن كثب مراقبة اعدائنا . فاذا قصفوا موقعنا ، لجأنا الى التغطية من داخل هذه الجحور . واذا حاولوا شن هجوم مباشر ، غادرنا الانفاق وقمنا بصدهم . اشتباكات صغيرة كهذه كثيرا ما كانت تحدث . وبقينا على هذه الحال مدة سنة . وفى ٢٢ مايو ١٩٨٤ ، قبل اسبوع من موعد مغادرتنا ، تسلقت جماعتان من الجنود الفيتناميين الجبل فى هجوم مفاجئ على موقعنا . فصددناهم ثلاث مرات . وفيما كنت اقوم بتفقد حرسنا انفجرت قذيفة طائشة على بعد اربعة امتار امامى . وطرحنى الانفجار ارضا ، ثم فقدت وعيى .

فى اليوم التالى وجدت نفسى على سرير فى المستشفى . وشعرت بألم حاد فى سائر جسمى ، وألفيت وجهى ملفعا بالضمادات . لقد شققت شظايا القذيفة صدرى وذراعى وساقى ، وبعضها تغلغل

عميقا داخل لحمى . وركز الاطباء جهودهم على الحيلولة دون حدوث التهاب لانقاذ حياتى . ثم اجريت لى عدة عمليات ترقيع فى الجلد . وبقيت فى المستشفى ثلاث سنوات الى ان التأمت جروحى تماما . لكن الاطباء لم يستطيعوا القيام بعمل حيوى لعينى لأن البؤبؤين قد اتلفا .

ومكافأة لى على خدماتى رفعت قيادة وحدتى العسكرية راتبى الى مستوى قائد سرية ، اى ١٣٠ يوانا كل شهر . ولكونى عسكريا متمرسا فى الحرب وعاجزا من الدرجة الاولى ، يمكننى ان اتقاضى هذا الراتب طيلة حياتى دون قيامى بأى عمل . لكننى لم احتمل فكرة البقاء دون عمل مكتفيا بالجلوس وتناول الطعام والنوم طيلة الوقت. وهذا سبب وجودى هنا فى صف التدليك . اريد ان اصبح طبيبا فى التدليك لاستخدم يدى فى تخفيف آلام الآخرين .

نعيش اليوم حياة مدرسية منتظمة . انهض فى السادسة والنصف صباحا ، وامارس الرياضة البدنية نصف ساعة كل يوم . اتمشى عادة فى نفس المكان ، واتمرن على " الدمبل " (الكرتين الحديديتين) ، واقوم بتمرين الضغط لتقوية عضلات الذراعين والكتفين ، لأن عمل التدليك يتطلب اذرعا واصابع قوية . نتناول الفطور الساعة ١٠ : ٧ ونأخذ صباحا اربع حصص دراسية تبدأ من ٥٠ : ٧ ، وتنتهى فى ٥٠ : ١١ . وبعد تناولنا الغداء فى الثانية عشرة نخلد الى القيلولة . وبعد الثانية والنصف تبدأ حصتان اخريان وتستمران حتى الساعة ٤٥ : ٥ ، ثم نتناول العشاء . وفى الساعة السابعة لدينا حصة للدراسة الذاتية . ونأوى الى الفراش

فى التاسعة والنصف . ويستطيع كل منا ان يعتنى بنفسه برغم كوننا مكفوفين .

لدينا فى دراستنا اربعة مقررات : النظرية الاساسية الكامنة فى الطب الصينى التقليدى ، ومبادئ التدليك بما فى ذلك دراسة القنوات المتوازية ونقاط الوخز بالابر ، ومهارات الاصابع فى التدليك ، وطريقة بريل . وفى السنة القادمة ستعلم علاج المساج السريرى .

اننى اخوض اليوم معركة اخرى ، لكنها هذه المرة داخل حجرة الدرس . اشعر بالعبء الدراسى الثقيل ، وكثيرا ما يقلقنى احتمال الاخفاق . لعجزنا عن كتابة الملاحظات نضطر الى الاعتماد على المسجلات لتسجيل ما يقوله المدرسون داخل الصف . ثم فى حصة الدراسة الذاتية مساء نستمع الى التسجيلات مرات متعددة الى ان نحفظ ما قاله المدرسون . ولكوننا عسكريين سابقين فان لدينا جميعا الاصرار على تحمل المشقات والشجاعة على التغلب على كل صعوبة ، وجميعنا فى منتهى النشاط . احيانا نستمع الى التسجيلات وندرس طريقة بريل حتى وقت متأخر جدا من الليل .

لكن يبدو اننا لن نستطيع الاعتماد على التسجيل طيلة الوقت . لدينا كتب مدرسية مكتوبة بطريقة بريل . وانه لمن الصعب جدا بالنسبة لى ان اتعلم طريقة بريل . ينبغى للمتعلم ان يكون من الحساسية بحيث يشعر بجميع النقاط الصغيرة البارزة ويحدد معانيها . من السهل نسبيا ان يبدأ المرء تعلم طريقة بريل

فى سن مبكرة . لكننا كبار ، واصابعنا قد اصبحت كبيرة ، تعوزها الحساسية والاستجابة لتلك النقاط الصغيرة . لذلك اخشى ان اخوض معركة خاسرة فى تعلمى طريقة بريل . ولكننى على اية حال ابذل قصارى جهدى .

بالاضافة الى استمتاعى بالدراسة والرياضة البدنية هناك متعة اخرى كبيرة ، هى تلقى رسائل من زوجتى التى تدرس الآن فى مدرسة فنية ثانوية بمسقط رأسى . عادة ما اطلب من الزملاء فى المدرسة ان يقرأوا لى رسائلها . وفى البداية طلبت منهم ايضا ان يكتبوا لى رسائلى اليها ، لكنها اعترضت على هذا الترتيب قائلة بأن الآخرين لا يستطيعون نقل مشاعرنا . انها تريد ان تقرأ ما اكتبه بنفسى ، حتى ولو كان جملة او كلمة واحدة . لذلك استخدم قطعة كبيرة من الورق كلما اكتب اليها بضعة اسطر .

اعرف تماما شكل زوجتى لأننا تزوجنا قبل ان افقد بصرى ، لذا استطيع ان استخدم خيالى فى تصوير شكلها وهيئتها . معى هنا زملاء تزوجوا بعد ان كف بصرهم ، فهؤلاء لا يعرفون اشكال زوجاتهم .

امامى سنة دراسية اخرى ، وبعد التخرج سأعود الى موطنى ، وافتح عيادة تدليك هناك .

شياو بينغ يوان : موظف حكومى سابق

" فى الوزارة انت الانسان الوحيد الذى يلجأ اليه الآخرون لتقديم العون والمعروف ، اما هنا فى الشركة فأنت الذى تلجأ الى الآخرين طالبا منهم العون والمعروف . "

فى السنتين الماضيتين اتخذت الحكومة الصينية اجراءات لاعادة تنظيم مكاتبها الفائضة بالموظفين بغية تحسين قدراتها فى العمل . واكثر تلك النشاطات اهمية تم فى ابريل ١٩٨٨ حين خفضت الوزارات واللجان التابعة لمجلس الدولة من ٤٥ الى ٤١ . وهذا يعنى ان عشرة آلاف من موظفى الحكومة ، اى خمس العدد الاجمالى للموظفين ، سيتحولون الى اعمال اخرى .

شياو بينغ يوان البالغ من العمر واحدا وخمسين عاما هو موظف من هذا القبيل . يعمل الآن فى الشركة الوطنية الصينية لاستيراد وتصدير الآلات والمعدات ، وكان قبلها مسؤولا فى وزارة الصناعة الميكانيكية من عام ١٩٥٦ الى ١٩٨٦ ، الى ان اندمجت اولا فى وزارة صناعة المعدات الحربية عام ١٩٨٧ ومن ثم فى وزارة الصناعة الالكترونية عام ١٩٨٨ . والوزارة الجديدة الآن تدعى وزارة الصناعة الميكانيكية والالكترونية . وقد تطوع شياو ، خلافا لعدد من زملائه الذين عارضوا ترك مكاتبهم الادارية ، فى الانضمام الى الشركة بدلا من البقاء مسؤولا .

لكنه لا يرى ان هذا التنظيم سيكون فعالا ، معتقدا ان مزيدا من المكاتب ستنشأ بعد عملية الدمج . الا انه يحب آلاته ، وخطته

المستقبلية هو ان " يجد المزيد من الاسواق الواسعة خارج الصين لتسويق آلاتنا . "

لم اترك الصناعة الميكانيكية منذ تخرجى فى مدرسة شانغهاى لمعدات الطاقة عام ١٩٥٦ . لقد واصلت العمل مع الوزارة خلال دراستى الميكانيك فى جامعة تشينغهوا بعد سنتين . وتخرجت فى الجامعة عام ١٩٦٣ . واعتقد اننى واحد من قلة استمروا فى وزارة الصناعة الميكانيكية كل هذه الفترة الطويلة .

كان فى الوزارة القديمة دعامتان : معدات المولدات ومعدات استخراج المعادن . وقد عملت فى القسم الادارى المسؤول عن انتاج معدات المولدات . وكانت مهمتى التأكد من معدلات الانتاج بالنسبة للمولدات ذات الطاقات المختلفة . ولاداء ذلك اتعامل مع عدد من الناس فى وزارات اخرى كوزارات النقل والمواصلات ، والسكك الحديدية ، والتزويد بالمواد ، والتزويد بالطاقة ، والتزويد بالمياه . ومنذ ان حددت مدى الاستثمارات والامدادات التى حصلت عليها هذه الوزارات اصبحت ذا مقدرة فائقة فى تعاملى مع اصحاب المصانع .

لكننى رغبت فى ترك الوزارة فى اوائل عام ١٩٨٣ . وعرفت تماما منافع العمل فى الوزارة . فبعملك مسؤولا حكوميا لديك كثير من الاتصالات التى قد تكون على نحو جيد . لكن الاضرار واضحة ايضا . برغم انك قد تصبح اكثر قربا من المسؤولين الا انك لا تكون فى وضع ثابت حقا . ولا يسعك ان تكون بشخصك الحقيقى ، لاسيما حين تصبح مسؤول قسم . يأتيك الناس لشتى

الامور : رفع الاجور ، الحصص السكنية ، الترقيات .

لكنني لم استطع ترك الوزارة عام ١٩٨٣ . فعدد من زملائى المقربين كانوا قد عينوا رؤساء فى المكتب الذى اعمل فيه . وحيث اننى قديم فى المكتب ، فقد احتاجوا الى مساعدتى . لذلك بقيت لدعم عملهم ، فهم اصدقائى قبل وبعد ترقيتهم .

غير ان الامور اختلفت حين تحولوا الى اماكن اخرى . فالمسؤولون الجدد يبدو انهم لم يقيمون وزنا كبيرا لمعرفتى فى الصناعة .

وفى نهاية عام ١٩٨٦ علمت ان وزارتنا ستندمج فى وزارة صناعة المعدات الحربية . فصدمت لأن الخبر جاء مفاجئا لنا . وبدا لى ان وزارتنا فى تخبط . ولم افهم جيدا لماذا لم تكن صناعة آلاتنا بالقيمة التى يجب ان تكون عليها . هذه المرة صممت على ترك المكتب الحكومى .

كنت حينذاك رئيس قسم . وترك المكتب الحكومى يعنى اننى يحتمل ان اخسر ، لكننى رغبت عن البقاء مسؤولا ، وما زالت تلك رغبتى . ما الفائدة التى اجنيها حين اصبح مسؤولا ؟ لا شئ . ما الامتيازات التى سأخسرها اذا تحولت الى شخص عادى ؟ لا شئ . لذا تقدمت بطلب للانضمام الى هذه الشركة فى اوائل عام ١٩٨٧ .

فى ذلك الوقت كان فى الوزارة نحو ٧٠٠ شخص يريدون الانتقال الى الشركة ، برغم انه لم يكن فيها سوى ٥٠ شاغرا . وعلمت بأنهم سيجرون لنا امتحانا فى اللغة الانجليزية او فى

لغات اجنبية رئيسية اخرى ، ويختبرون معرفتنا فى التجارة الخارجية وقدرتنا فى التعبير بالصينية . فلم اخش شيئا ، فقد درست الانجليزية ، وعملت بدائرة فى الوزارة مسؤولة عن فحص المصانع التى ستدار فى الصين ، ومنها اكتسبت معرفة واسعة فى التجارة الخارجية . وبالنسبة للتعبير فقد كتبت عددا هائلا من التقارير خلال العقود الثلاثة الماضية ، مما حسن مقدرتى الكتابية . واعتقد ان امثالى ممن حصلوا على تعليم راسخ ومعرفة مهنية جيدة لايهمهم ترك المكتب الحكومى ، ولا يخشون التقدم الى امتحان . لكن الامر يختلف بالنسبة لمن لم يحرز نصيبا وافيا من التعليم . ولعل هذا هو السبب فى ان الذين تقدموا الى الامتحان لم يتجاوز عددهم ١٢٠ شخصا . فى المرة الاولى لم ينجح الا ثمانية عشر متقدما . وكنت واحدا منهم ، فدخلت الشركة فى مايو ١٩٨٧ . وبعد ذلك بوقت قصير خفضت مستويات الامتحان ، فقبل المزيد من الناس .

انني الآن مسؤول مبيعات لمعدات المولدات . وقسمي الذى يتكون من اربعين موظفا هو اكثر الاقسام ربحا فى الشركة . فى السنة الماضية كنا مسؤولين عن كسب اكثر من ٧٠ مليون دولار امريكى من اصل ١٠٠ مليون كسبتها الشركة بكاملها علما ان موظفيها يزيدون عن الألف .

طبعا العمل هنا يختلف عما هو فى الوزارة . فأنت هناك من يلجأ اليك الآخرون طلبا للعون والمعروف ، بينما هنا انت الذى تضطر الى طلب العون والمعروف من الآخرين . هناك لك اتصالات

كثيرة وتتعامل مع مختلف انواع المسائل ، بينما اتصالاتك هنا اقل ، وليس لك الا ان تركز على امور خاصة .

انني شخصيا استمتع بالعمل هنا ، فهنا تستطيع ان تفعل ما تريد دون ان يزعجك الناس ، او يسألوك عن هذا وذاك . عندما كنت فى الوزارة لم اكن اجد لحظة اخلو فيها لنفسى . لقد سئمت العمل هناك بالفعل بعد تلك السنين الطويلة . كان عملا مزعجا ، اما هنا فلست موظفا . العمل هنا بالنسبة لى راحة ، والمرء يكسب اكثر فى شركة مسؤولة عن ربحها وخسارتها . احصل على الاقل ٦٠ — ٧٠ يوانا زيادة كل شهر عما كنت اتقاضاه فى الوزارة ، حيث لا اضافات هناك بخلاف ما هو الحال هنا . وهنا احمل لقب مهندس كبير ، لذلك تقدمت ثانية الى امتحان فى اللغة الانجليزية ، واصبحت فى الصف الثانى داخل الشركة . لكن ليس بوسعك ان تحصل على لقب وانت موظف حكومى ، واللقب بالنسبة لى شئ هام .

هل يعتبر تقليص عدد الموظفين فعالا ؟ اذا اردت الحقيقة ، فانى اشك شكا كبيرا فى ان دور الحكومة يمكن ان يقل بتخفيض بعض الوزارات واللجان : يمكنك ان تذهب الى الوزارة وترى ان كان هناك قلة قليلة من الناس يأتون من المصانع المحلية ليسألوا عن هذا وذاك . لا بد ان يرد الى هناك نحو الف زائر كل يوم ، تماما كما هو الحال قبل الدمج : لقد سبق ان قمنا بكثير من هذا التقليص ، وفى كل مرة استحدثت مكاتب جديدة وعين مزيد من الموظفين . وهذا حقا ليس بتصرف سليم .

لم اضطر الى استشارة احد من افراد اسرتى حين قررت تغيير عملى ، فأنا صاحب القرار فى الاسرة . زوجتى تعمل فى معهد الابحاث الميكانيكية التابع للوزارة ، وابنتاى طالبتان جامعيتان .

ابنتى الكبيرة عملت بنصيحتى ، فاختصت بالمولدات الكهربائية بجامعة تشينغهوا . قلت لها بأنها ستلعب دورا هاما بوصفها مهندسة كهربائية ، دورا لا تستطيع ان تلعبه اذا هى اشتغلت فى علوم الكمبيوتر (مع ان المجال الأخير فى غاية الحداثة الآن) .

وابنتى الصغيرة متخصصة فى تجارة التصنيع الخارجية بجامعة هونان ، وقد التحقت بها عام ١٩٨٧ . لم يكن فى هذه الجامعة سوى مكان واحد للطلبة المرشحين من بكين ، وقد وقع عليها الاختيار .

ما يقلقنى الآن هو المنافسة بين شركاتنا المحلية التى تبيع نفس المنتجات . فى بكين وحدها ثلاث شركات كبرى تبيع معدات المولدات للمؤسسات الاجنبية . وحيث لا سلطة لدينا لتنسيق نشاطاتنا التسويقية ، فهذه الشركات تتجه الى الدخول فى "حرب اسعار" للقيام بمبيعاتها . وبهذا تتيح لرجال الاعمال الاجانب كثيرا من الفرص للحصول على صفقات جيدة . وهذا الوضع مؤلم حقا .

لكننى مهتم بهذا العمل ، واجد مجالا كبيرا فى السوق الخارجية لتسويق منتجاتنا . حتى الآن لم اعقد اية صفقات كبيرة ، وبرغم ذلك اثق بأننى سأجرى بعض الصفقات الكبيرة يوما ما .

الجزء الثانى
فى الحى

لى يا ينغ : رئيسة لجنة حى سكنى

" اننا مثل اسرة . وبوصفى مسؤولة هذه الأسرة فانى اعمل
بلا انقطاع ، واعانى من صداع متواصل . "

هناك مثل صينى قديم يقول : " حتى الموظف المستقيم يجد من الصعب تسوية النزاع العائلى . " وهذا المثل يشير الى عجز الحكومة تجاه المشكلات العائلية التى لا يحكمها القانون ، كالشجارات العائلية او الخلاف بين الجيران . وتلك حقيقة واقعة . سكان المدن فى الصين يؤثرون ان يقصدوا لجانهم السكنية بدلا من الدوائر الحكومية لحل مشكلاتهم العائلية .

ان لجنة الحى مجموعة سكانية تحكم نفسها بنفسها . هدفها ان تؤمن لافرادها خدمات اجتماعية وازالة الخلافات العائلية احدى مهامها . وهى تلعب دوما دورا متزايد الاهمية فى معالجة شؤون الناس اليومية خارج اوقات دوامهم الرسمى .

وهذا اكثر واقعية فى شانغهاى ذات الكثافة السكانية حيث يبلغ

عدد سكانها ١٢ مليون نسمة .

قال موظف من دائرة الاحوال المدنية فى شانغهاى : " لقد انجزت لجنة الحى ما عجزت الحكومة المحلية عن انجازه . "

فى شانغهاى ، حسب قوله ، اكثر من ٣١٠٠ لجنة حى سكنى . وكل لجنة تضم ٨ - ١٠ اعضاء مسؤولين عن ٥٠٠ - ٦٠٠ اسرة .

وهذه قصة جدة فى الستين من عمرها تقريبا عملت فى لجنة حى سكنى ستا وثلاثين سنة ، وهى الآن رئيسة لجنة حى ليوشى السكنى فى منطقة نانشى بشانغهاى .

عندى الكثير مما اقوله عن عمل اللجنة . غالبا ما نصف عملنا بأنه عادى ومتنوع ، مثل تنظيف المراحيض العامة والشوارع وصناديق القمامة ، وازالة الخلافات ، والاشراف على الهواتف العامة فى الاحياء السكنية .

اننا مثل اسرة كبيرة جدا ، تضم ٦ آلاف فرد . وبصفتى رئيسة لهذه الاسرة الكبيرة اظل فى عمل متواصل ، واضطر الى معالجة مختلف انواع المشاكل . كثيرا ما يستوقفنى صاحب مشكلة فى الشارع . فالناس لا يتركوننى حتى عند تناول طعامى . وكثيرا ما يطرق بابى ليلا . وحيث اننى لا اعرف متى يأتينى الناس ، فانى اظل مستعدة حتى وانا فى الحمام .

اننى لا اريد ان اقول بأن الناس انانيون او غير مهذبين . لا ، اننى احاول فقط وصف الوضع الذى نحن فيه . اعرف ان الناس يأتوننى لأنهم بحاجة الى ، ومعظمهم يثقون بى .

نحن من ناحيتنا نبذل كل ما فى وسعنا لخدمة السكان . منذ سنتين شكا سكاننا من افتقار الحى الى روضة اطفال . فلم

يلجأوا الا الينا باعتبار هذه المسألة فى غاية التعقيد ومرتبطة بعدد من الدوائر الحكومية . فاضطررنا الى ايجاد مبنى ملائم ، نظيف ومؤثث ، واستأجرنا عدة مربيات للعناية بالاطفال . لم تكن مهمة سهلة لكننا اديناها .

وانشأنا كذلك شبكة خدمة داخل الحى . والذين يعملون فى هذه الشبكة جميعهم من سكان الحى المتقاعدين . فالسكان الذين يريدون اصلاح دراجاتهم او ساعاتهم يمكن ان يذهبوا الى فرقة الاصلاح فى الحى السكنى ، وهذه الفرقة تقدم خدمات اخرى مثل شحذ المقصات وسكاكين وصنع المفاتيح وتصليح الاحذية . ولمنع اللصوص من سرقة الدراجات بنينا سقيفة لحفظها ، وهناك عضو من اللجنة يقوم بحراسة السقيفة ليلا . ولمساعدة الشباب ما بين العشرينات والثلاثينات على ايجاد شريك الحياة انشأنا مكتب تعارف للزواج ، فتمت لدينا حتى الآن واحدة وعشرون زيجة .

ونظمنا ايضا مجموعة من ربات البيوت لحياكة القفازات القطنية لمعمل الحياكة . وبهذه الطريقة يمكنهن تحصيل بعض النقود .

ومنذ ثلاث سنوات ونحن ننظم رحلات للعاملين فى اللجنة الذين ادوا اعمالا بارزة ، لزيارة سوتشو واماكن اخرى جميلة بالقرب من شانغهاى . فنستأجر لهم باصا ، ونؤمن لهم اسباب الراحة والتسلية . اما النقود فتردفا من النزل الذى انشأته اللجنة . ان هذا النزل بما يحققه من ربح يصل الى ٥٠ الف يوان سنويا

هو فى الحقيقة بنك اللجنة . وكافة النقود تستخدم فى اداء الخدمات الاجتماعية . فى السنة الماضية اشترينا مواد بناء ، واستأجرنا بعض العمال لرصف شارع خلفى فى الحى بالاسمنت . وخلال عيد الربيع (رأس السنة القمرية الصينية) قدمنا مناشف وقطع صابون واقلاما للسكان الذين كانوا نشيطين فى اداء اعمال اللجنة تقديرا منا لجهودهم . وكل سنة نقيم حفلة عيد ميلاد لستة واربعين فردا ممن تجاوزوا الثمانين من العمر . ونشترى لهم كعكة عيد الميلاد بشكل حبة الدراق ، ونلتقط لهم صورا تذكارية ملونة .

ان العمل ثمانى ساعات فى اليوم كأى عامل عادى يعد حلما بالنسبة لنا ، فنحن نعمل اكثر من ذلك بكثير . كل صباح ننهمك فى توزيع زجاجات الحليب على السكان وتنظيف المراحيض العامة . ومساء فى الساعة الثامنة نقرع جرسا خلال تجولنا فى الحى ، منبهين السكان الى اغلاق نوافذهم خشية اللصوص وادخال غسيلهم الى البيوت . وخلال النهار وحين ينزل المطر نقوم بجمع الثياب المعلقة فى الخارج نيابة عن اصحابها الذين ما زالوا فى عملهم وقتها .

لكن ما نفعله يعتبره السكان مجرد واجبات . وبرغم رضاهم بما نؤمنه لهم من وسائل الراحة لا يكونون ممتنين بالضرورة . انهم كالاطفال العابثين ، قلما يأخذون جهود والديهم بعين الاعتبار .

ان اعضاء اللجنة فى الواقع معتبرون كالخدم العام . والسكان على ما يبدو مسرورون حين يطلبون منى ان اؤدى لهم خدمة

ما قائلين بأني ربة هذه الاسرة الكبيرة . لكن اذا طلبت منهم ان يمدوا يد المساعدة فى انشاء سقيفة للدراجات مثلا ، فغالبا ما يرفضون دون تقديم اى عذر .

هل انا اتذمر ؟ حسنا ، السكان يثقون بنا على الاقل فى حل مشكلاتهم .

اكبر مشكلة تواجهنى هى اننى لا استطيع ابدا الهروب من عملى . لا استطيع اخذ راحة جيدة حتى فى ايام العطل . خلال عيد الربيع فى السنة الماضية جاءت امرأة من الحى الى بيتى ، وركعت امامى ، وبكت طالبة المساعدة . قالت انها تشاجرت مع زوجها شجارا حادا ، وان زوجها لن يسمح لها بالعودة الى البيت .

هناك قول خرافى مفاده ان وجود شخص فى بيتك يبكى خلال عيد الربيع يجلب للاسرة سوء الطالع . وبرغم عدم اعتقادى بحدوث امر سيئ لاسرتى فى السنة الجديدة ، الا اننى اعتبرت هذا الحادث غير سار . فما الذى استطيع فعله غير ان اذهب مع المرأة ، واحاول اقناع زوجها بالتصالح مع زوجته ؟

غالبا ما نقوم بزيارات لسكاننا . خلال سنوات العمل زرت كل اسرة فى الحى ، واصبحت لى معرفة جيدة ببعضهم . الناس يقولون عنى بأنى مثل الكمبيوتر الحى لشؤون اللجنة . لكننى اشعر مؤخرا بأن ذاكرتى لم تعد جيدة كالسابق ، فأنا على كل حال مسنة .

بعض الناس يعتقد بأننا سلطات غير رسمية نشرف على آلاف من السكان . والحقيقة اننا لا نستطيع ان نصدر اوامر للسكان .

وحتى لو فعلنا ، فلن يستجيبوا . على العكس السكان هم السلطة . انهم يطلبون منا ان نخدمهم ، ولكن اذا احتجنا الى مساعدتهم ، كان علينا ان نرجوهم رجاء ، هذا هو الفرق . اننا غير مخولين بصلاحيات ادارية لأننا جماعة اجتماعية ليست لها صفة حكومية .

يظن الآخرون اننا نتمتع بكثير من التسهيلات والامتيازات لكثرة اصدقائنا فى الحى . فيقولون مثلا اننا نستطيع ان نشترى الخضار من النوعية الجيدة دون ان نضطر الى الانتظار فى صف طويل من الصباح الباكر . وهذا خلاف الواقع . ان الامتياز الوحيد هو اننا نعتنى بشؤون الآخرين اليومية .

اذا تجاوزت صف الانتظار قالوا فى تهكم : " انظروا ، اى مثال جيد تضربه لنا رئيسة اللجنة ! " واذا دعوتهم الى اجتماع فيما بعد ، رفضوا المجئ ، بل يصل الامر حدا اسوأ من ذلك ، فهم يضمرون لى الكراهية لشعورهم بأننى خدعتهم .

اننا ، اعضاء اللجنة ، نضطر الى البقاء فى الحى نعمل طيلة الوقت بخلاف العمال والكوادر العاديين الذين يغادرون الحى الى عملهم كل يوم . ونشاطاتنا تتم دوما تحت مراقبة سكان الحى ، لذلك دائما ما نظل متنبهين لسلوكنا . فحتى اولادنا يفترض ان يكونوا خالين من اية عيوب .

عندى خمسة اولاد ، لا احد منهم سبق ان تشاجر مع اولاد الآخرين . اذا ما اعتدى عليهم احد ، عادوا الى البيت دون ان يتطرقوا لذكر ذلك . واعرف انهم فعلوا ذلك بسبب العمل الذى اقوم به . وخلافا لوالدهم لا يتذمرون ابدا .

تقاعد زوجي منذ خمس سنوات . وفى السنتين الاخيرتين تذمر كثيرا بشأن عملي . يقول بأن الوقت قد خان الآن كى نستمتع نحن الاثنين بـ " حياة هادئة مستقرة " .

احيانا اشعر بنفس الشعور . وغالبا ما يعتريني الارهاق والصداع . ان العمل فى ازالة الخلافات العائلية قد اصبح قاسيا بالنسبة لى . انني لم اتوقف عن العمل برغم تقاعدى من خمس سنوات ، فالناس بحاجة الى .

وغنى عن القول بأن الناس يأملون ان نستطيع حل مشاكلهم . فمن المشاكل ما نستطيع حله ، ومنها ما لا نستطيع . لا نستطيع مثلا تقديم اى مساعدة للذين يريدون الانتقال الى شقة حديثة البناء . فهم يذهبون عادة الى دائرة الاسكان الرسمية بدلا من المجيء الينا .

لست نادمة على كونى عضوة فى اللجنة برغم ان عملها متعب وقاس . وما دام السكان يعتبرونني واحدة من اعضاء اسرتهم الكبيرة ، فاني ارى فى ذلك تعويضا تاما عن جهودى .

ان ما كنت اريد ان افعله حقا منذ سنوات هو ان اكون احصائية . فقد تلقيت تعليما فى هذا المجال فى الخمسينات ، واظن انني صاحبة مقدرة فيه ايضا .

بدأت عملى فى اللجنة عام ١٩٥٢ ، وقد ظل الزاميا حتى ١٩٥٨ . وما كنا نفعله حينذاك هو ما نفعله فى الوقت الحاضر تقريبا ، انما زاد حجم العمل اليوم عن ذى قبل .

كنا نتقاضى ٣٢ يوانا شهريا قبل عام ١٩٧٦ ، ثم حصلنا

على زيادتين : الاولى من ٣٢ الى ٤٥ يوانا ، والثانية الى ٥٤ يوانا . وهناك اضافة من الحكومة قدرها ٣٠ يوانا كل شهر ، فما نكسبه اقل بكثير حتى من دخل عامل متعاقد .

لكن النقود ليست مشكلة . ما يزعجنى كثيرا هذه الايام هو ليالى الارق التى امضيها حين تكون لدى مشكلات تستدعى الحل ، وليس عندى فكرة من اين ابدأ بالحل . والحالة هكذا منذ سنوات : وانا بالطبع مسنة ، افكر فى ترك هذا العمل ، لكننى لم اقرر بعد متى اتوقف .

ليو بن رن : وسيط فى مقايضة البيوت

" فى ذهنى معلومات لمئات الزبائن . "

فى معظم البلدان يقوم الناس الذين يريدون بيع بيوتهم بالاعلان عن ذلك فى الصحف . اما فى الصين فمعظم البيوت توزع على الناس توزيعا ، ولا تباع بيعا ، وهكذا اصبحت الادارات المسؤولة عن مقايضة البيوت ، غير الساعية وراء الربح ضرورية . وان مركز مقايضة البيوت فى المنطقة الغربية من بكين هو واحد من هذه الادارات .

فى هذا المركز ثمانية موظفين يساعدون نحو الف اسرة على مقايضة البيوت كل سنة . وسكان بكين الذين يأتون الى المركز لديهم اسباب متنوعة ومتعددة تجعلهم يطلبون تغيير بيوتهم .

يعمل ليو بن رن ، البالغ من العمر ٥٦ سنة ، فى هذا المركز منذ عشر سنوات ويحمل لقب " الرجل الافضل " فى مقايضة البيوت فى بكين . لقد بدل بيوتا لـ ٢٣٠ اسرة فى السنة الماضية .

انه رجل انيس ، ماهر فى توضيح مختلف الاوضاع ، وهذه الصفة لا بد منها لوسيط فى مقايضة البيوت .

يأتى الناس الى هنا لأسباب متعددة . فهم يريدون تبديل بيوتهم لبعدها الشديد عن وحدات عملهم ، او لأن علاقاتهم بجيرانهم ليست جيدة ، او لأنهم يريدون الابتعاد عن والديهم

او اولادهم فرارا من النزاعات العائلية . وبعضهم يريد ان يقترب من اولاده او والديه او يقيم معهم . وبعض الآباء الشباب يبحث عن حى تتوفر فيه مدارس جيدة للاولاد . وآخرون متهالكون على ترك بيوتهم القديمة لأن عددا من افراد الاسرة ماتوا فيها .

فى سبتمبر الماضى جاءنى شاب وابوه يطلبان مساعدتى . ارادا تبديل البيت بأسرع ما يمكن لأنهما تشاجرا مع احد الجيران . كان هذا الشاب ووالداه يقيمون فى مربع سكنى ، وسطه فناء والبيوت تحيط بالفناء . وفى هذا للفناء حنفية ماء عامة واحدة . ذهب الشاب يغسل بعض الخضار ، فتسبب فى تناثر الماء على جارة كانت تغسل الثياب هناك . فنشب بينهما شجار .

شتمت المرأة الشاب بكلمة "وغد" ، وسمعها زوجها فخرج من بيته ليشد من ازرها . ووصل الامر بين الرجلين الى الضرب . فتعرض الشاب لضربات مؤذية ، ومن ذلك الحين لم يجرؤ على العودة الى البيت بسبب التهديدات الدائمة من ذلك الجار . ولم يستطع رجال الشرطة ان يفعلوا شيئا بهذا المخصوص .

اخذ الشاب ووالده يترددان الى مكتبى كل يوم ، ويطلبان بتوسل حلا سريعا لمشكلتهما . وبعد عشرين يوما وجدت لهما بيتا . وكان هذا البيت اصغر من بيتهما الاصلى ، لكنهما كانا متحمسين للتبديل دون ابداء اية ملاحظة .

اذا مات شخص ترغب الاسرة عادة فى تبديل البيت بسرعة لأنه سيظل يذكرهم بالميت ، مما يثير الحزن فى نفوسهم طيلة الوقت .

ذات صباح باكر فى ديسمبر الماضى سقط رجل من شقته فى الطابق السادس فمات . اراد هذا الرجل فتح النافذة لتجديد هواء الغرفة ، لكنه سقط عن السرير الذى كان يقف عليه . فطلبت زوجته الانتقال بسرعة الى بيت آخر .

طبعا لا احد يرغب السكن فى بيت مات فيه شخص . فأحيانا نتوخى الحذر فى قول الحقيقة . ومرة اخفقت بنت فى امتحان دخول الجامعة ، فشربت سما ، ثم وجدت فيما بعد ميتة بثياب نومها ، فانتقل والداها من البيت . وبعد وقت من ذلك جاءنا ساكن البيت الجديد ، وشكا من اننا لم نخبره بحادثة الانتحار التى علم بها من جاره الجديد . وتبين فى النهاية انه راض تماما بمواصفات البيت ، انما جاء الينا لمجرد التنفيس عن اكتئابه .

معظم زبائنى ينشدون التخلص من صعوبات معينة من خلال تبديل بيوتهم . وهم صادقون ، وطلباتهم معقولة . لكن هناك آخرون يأتون الى هنا لمجرد ايجاد مكان افضل يقيمون فيه . يأتون كل يوم تقريبا ، وينتظرون الفرصة المواتية ، وبعضهم قد نجح . اذكر ان شخصا بدل البيت من خلالى ثلاث او اربع مرات . وكل بيت افضل من سابقه . اعتقد ان هناك خطأ ما فى نوايا هؤلاء الناس . على اية حال جميعهم زبائنى ، ولا استطيع الامتناع عن مساعدتهم .

اما الزبائن الذين يصعب التعامل معهم ، فهم اولئك الذين يعملون فى الوسط التجارى ، كالباعة والعاملين فى المخازن والمديرين ورجال الاعمال الخاصة . فمهنتهم هى البيع وكسب الربح .

انهم لا يفعلون شيئا يجلب عليهم خسارة . وهذه حقيقة قائمة ايضا فى مقايضة البيوت . انهم يحبون المساومة .

وطريقتى ان اتعامل مع الزبون السهل قبل الصعب . واقصد بالزبون " السهل " ذلك الذى يكون بيته فى وضع جيد نسبيا من حيث اتساعه ونوعيته ، ويريد الانتقال الى بيت اقل منه جودة . اما الزبون " الصعب " فذلك الذى تكون مواصفات بيته بائسة ، ويريد الانتقال الى بيت افضل . الزبون السهل يستغرق معى ١٠ ــ ١٥ يوما ، والصعب يستغرق شهرين او ثلاثة . لكن هؤلاء الذين يغالون فى مطالبهم يغيرون آراءهم قليلا بمرور الوقت .

ليس جميع الزبائن يقولون الحقيقة بشأن بيوتهم . فمعظمهم يميل الى المبالغة بخصوص الاتساع . لكن لا احد يستطيع ان يخدعنى بالنسبة لموقع البيت واتجاهه . اننى اقوم بهذا العمل منذ عشر سنوات ، اعرف المناطق التى يفضل الناس ان يقيموا بها والمناطق غير الملائمة . وبالنسبة لاتجاه البيوت ، فانى اشير الى البيوت المكونة من طابق واحد . لدى سكان بكين القدامى قول مفاده : " اذا كنت تملك نقودا ، فلا تسكن فى بيت مواجه للغرب او الشمال . " ان البيوت ذات الواجهة الجنوبية هى الافضل ، وتلك التى بواجهة شرقية تأتى فى الدرجة الثانية . اما البيوت التى تواجه الغرب مباشرة فهى الاسوأ لأنها باردة فى الشتاء وحارة فى الصيف .

الناس الذين يريدون تبادل البيوت فى هذا المركز مطالبون بالتسجيل اولا . واستطيع ان احكم على الوضع العام للبيوت مما

كتبوه ومما يقولونه . ونحن الوسطاء مطالبون بزيارة بيت كل زبون ، لكن هذا متعذر تماما . ومع ذلك استطيع جمع المزيد من المعلومات التفصيلية بجعل الزبائن يتبادلون زيارة بيوتهم . والزبائن حريصون جدا فى تفحص بيوت بعضهم بعضا . فان هم لم يرتضوا ، يخبروني بوجهات نظرهم . وعندها اشكل فكرة افضل .

ان احدى الصفات التى يجب ان يتمتع بها الوسيط هى انه يجب ان يكون جريئا فى توضيح عيوب البيت ، ويذكر الزبون بأن يكون واقعيا . اما اذا اكتفى بقول " نعم وجيد " فلن يساعد احدا .

ولكن من جهة اخرى عليه ان يكون عطوفا وعونا لذوى الصعوبات الحقيقية . فى اكتوبر الماضى طلب منى ان اساعد فى نقل اسر من شيدان (فى وسط بكين التجارى) الى مجمعات سكنية بعيدة حديثة البناء . كان على هذه الاسر ان تنتقل لتفسح المجال لبناء مركز تجارى . وفى المجمع الجديد تكون شروط المساكن افضل .

لكن عدة اسر رفضت ان تغادر لأسباب متنوعة . ولاحداها ، على ما اظن ، سبب معقول . العجوز فى هذه الاسرة مشلول . وابنته المتزوجة التى تقيم معه حامل . فان هم انتقلوا الى المكان الجديد ، فان صهره — وهو القادر الوحيد فى الاسرة ، سيمضى اربع ساعات فى ذهابه وعودته من العمل كل يوم . وزوجة الرجل العجوز قالت ، بعد زيارتها المسكن الجديد ، بأنها ستموت فى بيتها الاول اذا اصروا على الانتقال .

فكانت الطريقة الوحيدة لمساعدة هذه الاسرة هي مقايضة بيتهم بشقة جديدة اقرب الى وحدة عمل الصهر وبمواصفات مماثلة ، وقد نجحت فى ذلك . واستخدمت نفس الاسلوب فى مساعدة اسر اخرى غير راغبة فى الاقامة فى المجمعات السكنية الجديدة على الانتقال الى الاماكن التى احبتها . لكننى لم انجح فى نقل ٤٠٠ اسرة الى اماكن جديدة فى وقت يقل عن شهر . وهناك الآن ثلاثة مبان تجارية كبيرة تبنى فى المنطقة التى اخليت .

وينبغى للوسيط ان يتمتع بذاكرة قوية اذا اراد العمل على نحو فعال . وبوسعه ان يحصل على المعلومات اما من خلال تسجيل الزبائن واما من خلال المعارف الشخصية . ومعظم معلوماتى جاءت من معارفى . كلما مشيت فى الشارع او ركبت فى الباص التقيت اناسا اعرفهم ، فيطلبون منى ان اساعدهم او اساعد اصدقاءهم او اقرباءهم .

ان فى ذهنى معلومات لمئات الزبائن . ولدينا كمبيوتر هنا . وادارة الاسكان فى هذه المنطقة انفقت ٤٠ الف يوان فى شرائه . لكن الكمبيوتر يخبرنا فقط بموقع البيت وعدد الغرف فيه . ولا يبين لنا اتجاهه ونوعيته . لذلك نضطر الى ترك الكمبيوتر جانبا ، فذهنى اكثر فعالية .

اننا نعمل بطريقة الحصص المحددة ، فكل منا مطالب بتبديل بيوت لعشر اسر كل شهر . ومعظمنا يتجاوز هذا العدد . فأنا قمت بثلاثين تبديل فى الشهر الاول من هذه السنة ، وعشرين

فى الشهر الثانى ، وثمانية وعشرين فى الشهر الثالث . وعموما تقل الزبائن فى الشتاء لأن الناس لا يحبون الانتقال فى الجو البارد . ومع ذلك فان من لديهم دوافع ملحة للتبديل لا يهتمون بالجو كثيرا .

لا تظن ان تبديل البيوت هو امر محصور بين شخصين . فأنا فى الواقع غالبا ما اجد نفسى اتعامل مع اربعة زبائن او خمسة فى وقت واحد . واكبر تعامل قمت به شمل اربعة عشر زبونا . وذلك لأن أ يريد الانتقال الى بيت ب ، لكن ب يفضل بيت ج ، وج قد يجد بيت شخص آخر اكثر ملائمة من بيت أ و ب . ان اسلوب التبديل المتسلسل يساعد الناس — على ما اعتقد — فى ايجاد شركاء فى التبديل اكثر ارضاء . وهناك بالطبع مكاسب ومخاسر بين الزبائن .

اذا كان لدى الاسرة التى تريد ان تبدل بيتها صعوبات كثيرة ، فانها قد لا تستطيع حلها جميعا بالانتقال الى بيت آخر .

هل يندم بعضهم بعد انتقاله الى بيت جديد ؟ نعم ، لكن الناس نادرا ما يأتون الى مركزنا بهذا الصدد . قبل ان يتم التبديل الفعلى يتبادل المعنيون الزيارة ، واحيانا اكثر من مرة ، ويجرى نقاش بين افراد الاسرة . ويجب ان يوقعوا اسماءهم اذا وافقوا على تبادل البيوت . والورقة التى يوقعون عليها لها صفة الزام قانونى . فاذا ما غير شخص رأيه بعد التوقيع ، طولب بالتعويض عن الخسارة .

الى جانب عملنا الروتينى ننظم سوقا موسمية لتبديل البيوت فى منطقتنا كل سنة . وتعقد هذه السوق فى مايو عادة . ونشترك

ايضا فى تجمع مماثل على مستوى البلدية . والأخير يجرى غالبا فى سبتمبر من كل سنة . فى هذه المناسبة يتجمع المئات من الناس فى موقع محدد لتبادل المعلومات . ولا تتم فى الحال كثير من الاتفاقات لأن اتخاذ قرار بهذه الاهمية يستغرق منهم اياما . ومع ذلك ارى هذه التجمعات ضرورية لنا نحن الوسطاء لأنها تزودنا بمقدار كبير من المعلومات .

ان تبديل البيوت خدمة غير مربحة ، ويجب ان تكون كذلك . اذا فكرنا فى النقود ، تغيرت طبيعة خدمتنا . فى الماضى لم نكن نتقاضى شيئا من زبائننا . وفى عام ١٩٨٠ اشترى المركز شاحنتين استخدمتا فى نقل الاثاث والممتلكات الشخصية للزبائن . وكنا نطلب من زبائننا ان يدفعوا كلفة الوقود لهاتين الشاحنتين . ثم تحول ذلك الى مسألة خاسرة ، فاضطررنا الى بيعهما .

وفى اواخر السنة الماضية بدأنا نأخذ اجرة من الزبائن . فهم يدفعون ٣٠ فنا للتسجيل . واذا نجحوا فى تبديل بيوتهم من خلال مساعدتنا ، دفعوا ٥ر١ يوان عن كل غرفة من البيت الذى سينتقلون اليه . وليست طريقة الدفع عادلة مئة فى المئة . فأنت تدفع فى ثلاث غرف صغيرة اكثر مما تدفعه فى غرفتين كبيرتين ؛ والناس على اية حال لا يهمهم دفع مبالغ كهذه ما داموا راضين بالبيوت الجديدة .

ان الناس يشعرون بالامتنان لنا عندما ينتقلون الى البيوت التى ترضيهم . وبعضهم يرسل لى هدايا قيمة ، لكننى ارفضها جميعا . ولا يعنى هذا اننى لا اعترف بحسن نواياهم . لقد ابدى لى احد

المسنين عظيم الامتنان بحيث دعانى الى زيارة بيته الجديد ، وقدم لى البطيخ . فى هذه الحالة قبلت دعوته . غالبا ما اتلقى تذاكر للسينما . وقبيل رأس السنة الجديدة يرسل الناس لى رزنامات جميلة .

اننى ادخن ، لكننى مضطر الى الاقلاع عن التدخين . ذلك لأن الناس اذا عرفوا انك تدخن ، فانهم يعرضون عليك عادة سيجارة او علبة كاملة حين يحيونك . واذا رفضت ، ظنوا انك لا تريد مساعدتهم . ولكن اذا قبلت ، ودخنت السيجارة ، فمن يضمن ان صاحبها ليس مريضا . وان كان كذلك ، انتقلت اليك عدوى مرضه . لذلك اعتقد ان من الحكمة ان اترك التدخين .

وليس جميع زبائننا معقولين وشاكرين لجهودنا . عندما اصل الى المركز احيانا ، يتجمع حولى عشرات الزبائن ، كل منهم يحاول ان يكلمنى اولا . ثم يدخلون فى شجارات . فأضطر الى رفع صوتى لوقف الشجار . وغالبا ما اجد صوتى قد بح فى نهاية العمل اليومى .

وليست جميع البيوت فى بكين قابلة للتبديل ، وهذه اكبر مشكلة نواجهها . كثير من البيوت او المبانى ليست تحت اشراف ادارة الاسكان فى البلدية ، ذلك لأن وحدات عمل متنوعة هى التى بنتها . والمسؤولون فى وحدات العمل لا يرغبون فى السماح لمن هم خارج وحداتهم بالاقامة مع موظفيهم الذين يتمتعون غالبا ببعض الاعانات من هذه الوحدات . وهذه خاصة حقيقة المساكن التى تملكها الحكومة المركزية والوحدات العسكرية . فأسرتى مثلا — انا وزوجتى وابنتاى البالغتان سن الرشد — نقيم

فى شقة من غرفتين ونصف غرفة ، تملكها وحدة عملى السابق ، وزارة المصادر المائية والطاقة الكهربائية . اننى فى حاجة ملحة الى الانتقال الى بيت قريب من وحدة عملى الحالية ، لأننى استغرق ثلاث ساعات كل يوم على الطريق الى مكتبى ذهابا وايابا . لكن وحدة عملى السابقة لاتسمح لى بتبديل الشقة ما لم اتخل عنها . لذلك اضطر الى البقاء حيث اقيم . وبيتنا على كل حال ليس بعيدا جدا عن وحدة عمل زوجتى ، وليس هذا سيئا . الناس يتكلمون الآن عن الاصلاح السكنى ، فيقال ان البيوت فى المستقبل ستباع وتشترى بدلا من ان توزع توزيعا . عندها ستصبح الاسر التى تريد تبديل بيوتها قليلة . لكن ذلك اليوم يبدو بعيدا . على الاقل ليست هناك اشارة الى تناقص الناس الذين يأتون الى المركز لتبديل بيوتهم . ولا اظن ان مركزنا سيغلق ابوابه فى السنوات القليلة القادمة .

الجزء الثالث

فى الادارة

تشو تشى فا : مدير مصنع

" اننى عنيد ، والصمت سلاحى فى الرد على النقد . "

ان مدير المصنع فى الصين يشبه غالبا بامرأة عليها ان ترضى اكثر من حماة . كل شيء – من توظيف العمال الى تعيين الكوادر الاداريين ، فالتموين ، فحصص الانتاج المحددة ، فبيع المنتجات – خاضع لدوائر اعلى . ومدير المصنع تعترضه عقبات كثيرة ، ولا يجد متسعا كافيا لاستخدام مبادراته الذاتية .

هذا الوضع المعروف بالاقتصاد المخطط يتغير مع الاصلاح الاقتصادى . فى السنوات الاخيرة طبقت آلية السوق فى الصين . وطبق نظام التعاقد فى الكثير الكثير من المصانع والمؤسسات . وهذا النظام يسمح بالاتساع فى سلطة اتخاذ القرار بالنسبة للذين تعاقدوا على ادارة المصنع ، وبذلك يغامرون بمصالحهم الشخصية .

تشو تشى فا ، وعمره ٢٥ سنة ، واحد من المديرين القائمين بهذه المغامرة . لقد تعاقد على ادارة معمل للخمور تملكه المحافظة ، يضم

٦٤٠ عاملا فى محافظة فيدونغ بمقاطعة آنهوى بشرقى الصين . وكان ذلك فى كانون الثانى (يناير) ١٩٨٧ .

التقينا فى مكتبه المفروش فرشا خفيفا : مقعدين واربعة كراس وجهاز هاتف قديم . انه نحيف وخجول ، لكن عينيه كانتا تومضان بالثقة من خلف نظارته .

كنت نائب مدير لمعمل خمر خفى ، عاصمة المقاطعة ، قبل ان اتولى هذا العمل . وتطوعت فى ابريل ١٩٨٦ للمجئ الى معمل الخمر هذا الذى تديره المحافظة والذى يبعد ٣٠ كم الى الشرق من خفى . فى ذلك الوقت كان المعمل مدينا بستمئة الف يوان وعلى وشك الافلاس . وقد مضى على العمال عدة اشهر لم يتقاضوا فيها رواتبهم . فبعضهم ذهب الى التبت ومناطق اخرى نائية للقيام بأى عمل يتوفر هناك . وبعضهم قدم طلب انتقال ، بينما طلب آخرون من مطعم المعمل ان يقدم لهم الوجبات مجانا .

وقعت مع ادارة المحافظة عقدا لسنتين فى يناير ١٩٨٧ ، متعهدا بأن اجعل المعمل ينتج ما قيمته اربعة ملايين يوان ، ويحقق عام ١٩٨٧ ربحا قدره مليون يوان بما فى ذلك الضريبة ، وهذا ضعف الحصص التى حققها عام ١٩٨٦ على وجه الخصوص . وفى عام ١٩٨٨ ، ووفقا للعقد ، يجب ان ازيد الأرقام بنسبة ٢٥ بالمئة .

رأى زملائى اننى مجنون لاقدامى على فرصة كهذه ، فالعواقب فى حالة الاخفاق مرعبة : فسوف تخفض درجتى ، واغرم ٥٠٠

يوان ، هذا بالاضافة الى دفعى ١ بالمئة من الخسارة . وذلك يعنى اننى لن استطيع تحصيل شيء طوال ستة اشهر على الاقل ، فراتبى الشهرى ثمانون يوانا ونيف .

لكننى اعتقدت بأني تصرفت على نحو سليم . ومنحنى مسؤولو المحافظة صلاحية الترقية وتخفيض الدرجة وتعيين الاداريين ، وصلاحية زيادة او تخفيض اجور الموظفين ، وتقرير الاضافات واعتمادات الترفيه وصلاحية معاقبة الذين يخلون بالانضباط والانظمة . ومن دون هذه الصلاحيات ما كنت لأقبل بهذه المهمة .

كان المعمل فى ذلك الوقت فى فوضى مخيفة . واشد ما فيه ارعابا هو انعدام النظام والانضباط . فالمدير السابق مثلا كان يضطر الى الذهاب الى بيوت العمال ليرجوهم المجيء الى العمل . واذا رفضوا لا يجد امامه الا استئجار المزارعين الذين جاءوا لشراء حثالة التقطير علفا للماشية .

ولم يكن بوسعى ان انسحب ، بل كان على ان امضى قدما . فبدأت باصدار لوائح من سبع عشرة مادة ، وطلبت من العاملين جميعا التقيد بها . وقلت للعمال : " جيش بلا نظام سيقضى عليه فى المعركة الفاصلة . ومصنع بلا نظام لا يمكنه ان يصمد فى المنافسة التجارية الحادة . "

بعد ذلك بفترة قصيرة فصل عامل لقيامه بالسرقة . ووضع آخر تحت المراقبة مدة سنة لعدم اطاعته لرئيس ورشته ولغيابه عن العمل دون اذن . كما عوقبت زوجة سكرتير الحزب السابق لقراءتها القصص فى نوبة عملها . وانا لم اتمتع بامتيازات خاصة ،

فاذا تأخرت عن العمل ، حرمت ايضا .

وكان على ان اختار كوادر اداريين مؤهلين بغية تنظيم الادارة . فاستبعدت اثنين من نواب المدير لأنهما غير مؤهلين لمنصبيهما . احدهما كان مسؤولا عن الانتاج ، لكنه لا يعرف شيئا عن ادارة العمل التجارى . والآخر كان مسؤولا عن الشؤون المالية ، لكنه ليس موضع ثقة . وصرفت ايضا رئيس ورشة من وظيفته ، كنت قد رقيته ، وذلك لأنه دخن خلال عمله فى الورشة ورفض ان يدفع الغرامة عن هذه المخالفة . ان عمليات الصرف هذه عكست اسلوبا مختلفا فى التعامل . فى الماضى لم يكن مسؤولو المصنع يستبعدون عن مراكزهم حتى وان كانوا غير اكفاء .

وألغيت مناصب المعاونين لأنقص من الشكليات الروتينية .

ان ٧٠ بالمائة من مستخدمى معملنا البالغ عددهم ٤٦٠ شخصا هم من العمال المتعاقدين . ومعظمهم كانوا مزارعين . وفى معظم المصانع التى تديرها الدولة لا يمكن للعامل الذى كان مزارعا اصلا ان يصبح مسؤول المصنع ، ووظائفهم ورواتبهم لا تكون عادة بجودة وظائف ورواتب العمال الدائمين . وهذا غير صحيح . اننى احكم على الشخص من خلال مقدرته وادائه للعمل ، لا غير . ولا يهمنى ماذا كان فى السابق .

لقد رقيت عاملا كان مزارعا اصلا الى رئيس مشغل الخميرة لأنه كان قادرا على استخلاص كحول من المواد الخام اكثر بكثير مما يستخلصه الآخرون . وقد جعلته الآن مسؤولا عن عمل

ورشة التقطير بكاملها ؛ وانه ليقوم بعمله الجديد على خير وجه .

يتقاضى العمال اجورا الآن بحسب ما يؤدون من عمل . الأجر الافضل للعمل الافضل ، والاقل للاقل ، بغض النظر عن كون العامل متعاقدا او دائما . كما نكافئ الذين يقدمون للمؤسسة اسهامات بارزة . ومروج المبيعات يمكن ان يكافأ بثلاجة اذا هو ادى عملا جيدا .

لم يكن المصنع طبعا سريرا من الورود بالنسبة لى . فأنا لم اواجه صعوبات فحسب ، بل هددت بالموت . فالعامل الذى وضع تحت المراقبة مدة سنة اقسم انه سينتقم ، وهدد بقتلى ان هو فصل . ونبهت الى الاحتراس منه . وبالطبع اقلقنى هذا كثيرا . فكنت انهض فى منتصف الليل لأتأكد من ان بابى قد احكم رتاجه . اننى شاب ، ولا اريد ان اموت ، لكننى مصمم على المضى فى الاصلاح . فمئات العمال يعتمدون على ما نقوم به من عمل فى كسب معيشتهم .

ومن الغريب انه بعد انقضاء سنة المراقبة على العامل المذكور ، جاء الى ، ولكن ليس بيده سلاح وانما مذكرة نقد ذاتى . لقد وعدنى بتحسين سلوكه ، واستأنف العمل ، ودأب على ادائه اداء جيدا منذ ذلك الحين . وأحد ابنائه موظف لدينا الآن .

بسبب حماستى فى فصل الناس ، عمالا وموظفين ، لقبت " المتحمس للفصل " . بعض الناس يكرهنى حقا ، لأن اصلاحى تعارض مع مصالحه . ونشر شائعة بأنى اختلس الاموال العامة . وراجت الشائعة على نطاق واسع حتى ان حكومة المحافظة ارسلت

فرقة للتحقيق . فلم يخفنى ذلك لمعرفتى بأنى لم ارتكب اى خطأ .

ما الذى اتوقعه من العقد ؟ لا شيء : كل ما فعلته هو البحث عن طريقة لتشغيل هذه المؤسسة على نحو جيد . فالمؤسسات الصينية بأمس الحاجة الى الاصلاح .

تخرجت فى مدرسة ثانوية فنية متخصصة فى صنع الخمر . ومنذ بدأت العمل عام ١٩٨٠ وانا اطلع اطلاعا واسعا على الادارة التجارية . كنت تواقا الى اختبار نظرياتى فى مؤسسة تعانى العجز والخسارة . فهذا المعمل اتاح لى هذه الفرصة . واننى لسعيد حين تثبت خططى الاصلاحية نجاحها . عندما كنت نائب مدير فى مصنع خمر خفى كان على خططى ان تمر فى عدة دوائر قبل ان تنفذ . اما الآن فالامور هنا مختلفة .

ولأننى تطوعت للعمل فى هذا المعمل التابع للمحافظة تركتنى خطيبتى ، فلم ألمها . من يقبل بترك مدينة كبيرة الى اخرى ضئيلة ؟ ومن يسلم حياته الى ركام من الشكوك والامور المجهولة ؟ كانت حرة فى اتخاذ قرارها ، مثلما كنت انا ايضا .

وصراحة اقول ان المتعب تماما ان تكون مديرا ، ليس تعبا جسميا فحسب ، بل تعبا ذهنيا ايضا . عندما استيقظ افكر فيما سأفعله فى ذلك اليوم . وعلى ان اتخذ قرارات سريعة لحل مختلف المشكلات التى تنتظرنى فور دخولى الى مكتبى . وقبل ان آوى الى النوم استعيد ايضا ما فعلته فى ذلك اليوم ، واعيد تقييم القرارات التى اتخذتها .

ما زلت فى الخامسة والعشرين من عمرى ، لكن العبء الذى اضطلع به جعلنى ابدو اكبر من ذلك بعشر سنوات ، ومع هذا فانى احب ازدحام الاعمال والتحدى . حين اغادر مكتبى الى غرفة نومى دائما ما احس برغبة فى العودة الى العمل فى اليوم التالى .

ان جهودى هذه قد اثمرت . ففى نهاية عام ١٩٨٧ سد المعمل عجزه البالغ ٦٠٠ الف يوان ، وتم انجاز وتجاوز جميع الحصص المتفق عليها فى العقد . وارتفعت اجور العمال بنسبة ٢٠ بالمئة .

ما المبلغ الذى حصلت انا عليه ؟ اننى لا اعمل من اجل النقود . ان الذى يتعاقد على ادارة مؤسسة يأخذ عادة اكثر من ١٠٠٠ يوان اضافية كل سنة اذا هو انجز الحصص الواردة فى العقد . لكننى قبلت ٥٠٠ يوان فقط . ولا اريد ان آخذ اكثر من ذلك . فقد قررت ان اقبل اقل من ذلك ، واضعا فى اعتبارى اننى قد اخفق فى المستقبل . اننى لست شديد الاهتمام بالنقود . اذا كانت النقود التى اجنيها تقوم باعالتى ، فهذا يكفى .

تعرضت طبعا لخيبات امل . فقد شعرت بالاحباط حقا فى السنة الماضية حين تعذر تنفيذ خطتى الرامية الى بناء مشغل جديد . وذلك بسبب ان بعض المزارعين فى القرى المجاورة اعاق البناء . ان ذلك يكلفنا كثيرا . فتحولت الى ادارة المحافظة طلبا للمساعدة . ذهبت اليها عدة مرات ، لكن لم احصل على نتيجة . يمكننى ان اسوى النزاع داخل المعمل فى دقائق ، لكننى شعرت بعجز فى التعامل مع المزارعين .

وعدني مسؤولو المحافظة بالمساعدة ، لكنهم تباطأوا فى ذلك . انهم لا يقدمون سوى الوعود . يدعون بأنهم يدعمون الاصلاح ، لكنهم لا يريدون فى الواقع اغضاب احد .

ان ما اصبو اليه هو ان اجعل مصنعي قدوة فى مقاطعة آنهوى . لقد اصبح خمر "باو خه ته تشيوى" ، وهو احد منتجاتنا الرئيسية ، من المشروبات الروحية الشهيرة فى المقاطعة ، ومن الصعب ان تجده فى اى مخزن فى آنهوى لشدة رواجه . وسوف اقوم بمضاعفة هذا المشروب .

وأحد الهموم الكبيرة التى اعانى منها الآن هو نقص ذوى الكفاءة لدينا . فليس عندنا حتى مهندس جعة . ان فقدان ذوى الكفاءة يعنى هبوط مستوى المؤسسة . ومن اجل حل هذه المشكلة اوفدت عمالا للدراسة فى معامل اخرى متقدمة . ودعوت اساتذة جامعيين لالقاء محاضرات على عمالنا . وفى السنة الماضية استأجرت عن طريق الاعلان ٤٣ خريجا ثانويا . وهم ذوو معرفة ونشاط حيوى . فجاءنى مسؤولو مصلحة العمل يقولون بأنى قد سببت لهم مشكلة . وقالوا اننى اذا استمررت فى تشغيل عمال على نحو مستقل ، فلن يظل لهم ما يفعلونه .

لم اكترث بهم ، فأنا عنيد . انى افعل ما اراه صحيحا . الصمت سلاحى فى الرد على النقد .

ان العمل فى ادارة مؤسسة يمكن ان يوصف بأنه بسيط او معقد . فاذا انطلقت من مصلحة المؤسسة فقط ، كان العمل بسيطا . اما اذا انطلقت من الاعتبارات الفردية المتشابكة ، فالعمل

معقد . وبالنسبة للمشكلات التى تعترضك ، فانها لا تكون احيانا معقدة كما تبدو لك . فاذا كنت شديد الحذر الى حد الافراط ، وجدتها اكثر فأكثر تعقيدا .

دنغ ماو هوا : رئيسة نقابة

" اننى متعودة العمل النقابى ، لكن ليس من السهل ان اعمل رئيسة نقابة فى مؤسسة صينية — اجنبية مشتركة . "

ان العمل النقابى فى مؤسسة صينية — اجنبية مشتركة يعد هما كبيرا بالنسبة لرؤساء النقابات الذين اعتادوا العمل فى مؤسسة تديرها الدولة . فهذا العمل بالنسبة لدنغ ماو هوا البالغة من العمر ٥٢ سنة ليس حالة استثنائية .

فى شركة بكين لسيارات الجيب ينظر العمال الى المدير العام الامريكى على انه " رب العمل " ، حيث انه المسؤول عن المؤسسة ، تحت قيادة لجنة من المديرين . ودنغ ، كغيرها من عاملى النقابة ، ارتبكت فى البداية على الرغم من خبرتها مدة ٣١ سنة فى العمل الحزبى والعمل النقابى .

لكنها الآن ازدادت استيعابا بعد اربع سنوات من العمل الدؤوب فى الشركة .

تأسست هذه الشركة فى يناير ١٩٨٤ ، وهى مشروع صينى — امريكى مشترك ، وتعد اكبر مؤسسة من نوعها (شركة سيارات) فى الصين . وقد كوفئت فى هذه السنة بـ " شهادة اول مايو للعمل الممتاز " ، وهذه اعلى مرتبة شرف يمكن ان تحظى بها شركة فى الصين .

كل من فى المؤسسة يدعوها "الاخت دنغ " ، وهى تبدو كما تشير ملامحها : نشيطة وكريمة وعطوفة .

اما اسرتها فتتكون من أربعة افراد : هى وزوجها وولداهما . وهى لا تعرف لماذا لم يتزوج ولداها اللذان يناهزان الثلاثين .

ان العمل فى مؤسسة مشتركة يعد اختبارا تاما . لقد ترددت حين طلب منى قبل اربع سنوات ان اعمل فى شركة بكين لسيارات الجيب . فمع اقترابى من الخمسين لم ارغب فى تغيير اسلوب حياتى ، وكرهت تلك الفكرة . كانت المسافة بين بيتى والشركة تستغرق عشرين دقيقة على الدراجة ، وانا لا احب ركوب الدراجة ايضا .

لكن ما يدهشنى هو اننى اليوم شديدة الفخر بعملى فى نقابة عمال المؤسسة . ان العمل فيها يمثل تحديا كبيرا ، حيث لا توجد خطوط توجيهية ، وعليك ان تعتمد على نفسك . انه كتلمس طريقك فى الظلام او كخوضك فى نهر . وهذا التحدى هو ما جعلنى امضى قدما .

بدهى ان اعتاد العمل النقابى بعد احدى عشرة سنة من الخبرة فى عملى رئيسة نقابة فى مؤسسة تديرها الدولة . لكن الامر يختلف فى مؤسسة مشتركة . ان النقابة العمالية فيها ، منظمة تؤدى وظائف ثلاثة اطراف : الحزب وعصبة الشبيبة ونقابة العمال . لم اكن مستعدة تماما لدور النقابة الجديد ، فلم اعرف ماذا افعل .

ذهبت الى العمال كالمعتاد اطلب منهم النصح ، فوجدتهم ايضا حائرين فيما يفعلون . بعضهم لديه تخوف من ان تكون هناك خطورة سياسية فى التعامل مع الاجانب . وكثير من العمال

القدامى كانوا شديدى القلق بشأن مصالح تقاعدهم منذ شعروا بأنهم لم يعودوا ذوى سيطرة على المؤسسة . وآخرون لم يستوعبوا لماذا نقوم ، بعد هذه السنوات الطويلة من الاعتماد على النفس ، بتسليم زمامنا الى الاجانب . وكان اكثرهم غضبا سائق عاد من الحرب الكورية . فقد رفض ان "يخدم الامريكان" الذين كانوا ذات يوم اعداءه . والعمال الشباب من جهة اخرى اعتبروا انفسهم مستأجرين . لذلك لم يبالوا شيئا آخر ما داموا يحصلون على اجور عملهم . ارى انهم بوعى او دون وعى يعتقدون بأنهم فقدوا نفوذهم فى المؤسسة .

لم يسمح لى هذا الوضع بوقت اتخذ فيه موقف المتفرج . امضيت عدة ايام ادرس بعناية ما توفر لى مما له علاقة بسياسات الحزب وقوانين الدولة بخصوص المشاريع المشتركة : ورأيت اننى اجريت الاستعداد التام لتعليم الآخرين ..

وقمت بقدر كبير من العمل التوضيحى لاقنع العمال بأنهم ما زالوا مراقبين لهذه المؤسسة المشتركة . فشدد بعضهم على انه مسؤول فقط عما يفعل ، وانه ليس ملزما الا باطاعة الاوامر الصادرة من رب العمل الامريكى ، ولا شئ غير ذلك .

وهكذا ادركنا ان هؤلاء العمال يمتلكون احساسا ضئيلا بحقوقهم الشرعية . لم يعرفوا ان عليهم ان يشاركوا فى الادارة الديمقراطية للمؤسسة . وكان لفتورهم هذا ما يسوغه الى حد ما ، اذ ان العامل الفردى لا يجد مكانا له ان لم يكن هناك تجمع يمثل العمال ، منظمة جماهيرية تحت قيادة النقابة العمالية ،

تلك المنظمة المألوفة فى المؤسسات التى تديرها الدولة . لذلك كانت هناك حاجة الى منظمة مماثلة تتلقى اقتراحات العمال وشكاواهم ، وتصل الى حلول مع الادارة . واهتم بهذه الفكرة اهتماما جادا كل من العمال والمدير العام . وفى فبراير ١٩٨٥ تأسس المجلس التمثيلى لأعضاء النقابة ، وضم ١٠٢ من المندوبين .

ومع نمو الشعور بالمشاركة ، انجز العمال الآن عددا من الامور . فمثلا ، من اجل تحقيق انتاج الـ ٢١٣ موديل من سيارات الجيب قبل اكتوبر عرضوا ٢٨ اقتراحا ، وبذلوا جهودا لحل المشكلات التقنية . خرجت اول سيارة من خط الانتاج فى ٢٨ سبتمبر ١٩٨٥ . فقال المدير العام انه عمل فى عدة بلدان ، لكنه لم ير العمال يتعاونون مع الادارة هذا التعاون الصادق الا فى الصين .

لكن لفترة ظل المديرون الامريكيون غير واثقين بنا نحن العاملين النقابيين الى حد ما . فبسبب خبرتهم فى البلدان الغربية اعتقدوا انّ النقابات مصدر تعب . فكلما ذهبت الى القسم الادارى وجدتهم فى حذر دائم . فكرهت هذا الجو المتوتر ، واعتقدت ان التعب يكمن فى انهم لم يعرفوا حقيقة النقابة الصينية جيدا . لذلك حاولنا الاتصال بهم عبر طرق متنوعة . فدأبنا على عقد موتمر مشترك مرة كل شهر بحضور المدير العام ، نقدم فيه تقريرا عن عمل النقابة ، ونلتمس رده على هذا التقرير . وارسلنا له ايضا نبذة عن الوثائق حول العمل النقابى ، ونشرات كذلك تتضمن وجهات نظرنا . وبالتدريج ألف عملنا ، واعترف بأن

النقابة تعتبر بحق عونا كبيرا فى تحسين العمل .

ولتحسين علاقاتنا بالموظفين الامريكان دعوناهم لمشاركتنا فى الاحتفالات المهرجانية والحفلات المسائية . ولا يفوتنا أبدا ان نزور نساءهم فى عيد المرأة العالمى . لقد قال لى مدير مشروع امريكى ذات مرة فى حفلة رقص ان ذلك اليوم هو اسعد ايامه فى الصين . وقد حضر الحفلة مصطحبا زوجته واطفاله .

وكما يجرى فى المؤسسة الحكومية نختار ايضا عشرة عمال نموذجيين كل سنة . وكان احد هؤلاء العشرة عام ١٩٨٥ مدير مشروع امريكيا . فوضعت وردة ورقية حمراء كبيرة على صدره ، وهى رمز شرف صينى . وكوفئ بعلبة ادوات تجميل ومزهرية من المينا المجتزعة وشهادة استحقاق ، فخجل وانفعل كطالب المدرسة ، وقال انه برغم تعوده تقاضى زيادة فى الراتب على عمله البارز الا ان هذه المكافأة تعجبه اعجابا عظيما . وقال ان ذلك لا يعنى ان جهده قد حظيت بتقدير رب العمل فحسب ، بل بتقدير زملائه ايضا .

بالتأكيد تظهر احيانا خلافات بيننا وبين الجانب الامريكى . فالامريكان مثلا يصرون على زيادة فارق الراتب بين الموظفين الاداريين والعمال العاديين . وبعض العمال لا يرتضى بذلك . كما ان مثل هذا الاجراء لم يطبق فى الصين بعد والامريكان قد عبروا عن اسفهم برغم تنازلهم فى النهاية .

ان العمل فى مؤسسة مشتركة عمل قاس . فخلال ساعات العمل لا احد يمكنه التراخى فى اداء مهامه ، بل عليه ان يعمل

لقاء الراتب الذى يتقاضاه . لم يعد بوسع العاملين ان يستخدموا وقت العمل للرياضة او النشاطات الاستجمامية ، هذه الممارسة المألوفة فى المؤسسات الحكومية . لذلك علينا ان نفكر فى نشاطات يمكن ان تمارس فى وقت الراحة ، مثل الرقص الجماعى وملاكمة تاى جى (ملاكمة صينية تقليدية) وكرة القدم وتجديف القارب . وعندنا مجموعة موسيقية صغيرة تنال اعجاب هواة الموسيقى ومحبى الرقص ، وانا اذهب الى الحفلات مع اننى لا ارقص جيدا .

والعمل النقابى كذلك عمل مرهق . فهناك دائما اشياء كثيرة علينا ان نقوم بها مستغرقين ساعات طويلة . فى النقابة تسعة عاملين فقط . وكل منا مسؤول عن ثلاثة او اربعة انواع من العمل النقابى ، لكن لا احد يتذمر . انها فرصة – على ما اعتقد – لاظهار المواهب كاملة ، وفرصة لتطوير قدراتنا الكامنة . والنقابات فى الواقع تحظى باهتمام من المديرين فى المؤسسات المشتركة اكثر مما هو فى المؤسسات الحكومية .

ومع انشغالى بوصفى رئيسة نقابة اجد كذلك وقتا اتحدث فيه مع العمال لمعرفة ما لديهم من مشكلات . لا استطيع القول بأنى اعرف كل شخص فى المؤسسة ، لكننى اعرف معظم عامليها . وحين يمنعنى انشغالى عن زيارتهم يقلقهم ذلك ، ويأتون الى بيتى للاطمئنان على .

ان اكبر مشكلة لدينا هى افتقارنا الى قانون يدعمنا نحن عمال النقابة . ليس بوسعنا ان نضرب عن العمل كما هو الحال

فى البلدان الغربية ، بل نصل مع رب العمل الى وفاق من خلال التفاوض والاقناع .

انضممت الى الحزب فى التاسعة عشرة من عمرى . وطيلة حياتى وانا احاول اداء ما يطلبه منى الحزب . ولكن لو ترك لى الامر لآثرت ان اكون عاملة ماهرة . ففى تلك الحالة سأصبح — على ما اعتقد — مهندسة مثل الكثير من زملائى فى الدراسة .

الجزء الرابع

فى المكتب

تيان يه : موظفة علاقات عامة

" املى الاكبر ان ادرس العلاقات العامة فى الولايات المتحدة لأن هذا الاختصاص متطور هناك تطورا جيدا . "

تيان يه شابة فى الثانية والثلاثين من عمرها ، نشيطة جدا فى مجال العلاقات العامة فى الشركة الصينية العالمية للعلاقات العامة . انها تعمل مديرة محاسبة بقسم التجارة الدولية فى الشركة ، كما انها عضوة فى شركة بيرسون – مارستللر الامريكية للعلاقات العامة فى جمهورية الصين الشعبية . وشركتها اكبر شركة صينية ، انشأت علاقة عمل مع شركة بيرسون – مارستللر عام ١٩٨٥ ؛ وزبائن العلاقات العامة الدولية الذين تخدمهم ينحصر معظمهم عبر مكتب هونغ كونغ لشركة بيرسون – مارستللر . ولقد قررت ان تتخذ العلاقات العامة مهنتها الدائمة .

ان تيان يه من مواطنى بكين ، وهى شابة محنكة ومتفتحة ومفعمة بالحيوية والنشاط .

زوجها مراسل اخبار رياضية لوكالة انباء شينخوا . ولديهما ولد

فى الثالثة من عمره . اما بيتهما فى غربى بكين ، المكون من غرفة مساحتها ١٦ مترا مربعا ، فمملوء بالادوات الكهربائية المنزلية والمفروشات الحديثة .

مضى على فى مجال العلاقات العامة سنة واحدة ، لكننى احب عملى . ومع اننى لا اعرف تماما ما هى المواصفات الضرورية للعامل فى هذا المجال ، الا اننى اجد عملى الحالى يناسبنى كل المناسبة . انه يتيح لى ان اعمل مع اناس متنوعى الخلفية ، ومن بينهم الاجانب ، وان احل بنفسى كثيرا من المشكلات .

انهيت دراستى الثانوية فى المدرسة الثانوية رقم ١ بمنطقة فنغتاى فى بكين عام ١٩٧٣ . وكانت علاماتى مرتفعة ، ولاسيما فى اللغة الانجليزية . ولهذا تم اختيارى لأصبح مدرسة للغة الانجليزية لصفوف المرحلة الاعدادية فى مدرستى . فعلمت الانجليزية هناك خمس سنوات حتى عام ١٩٧٩ حين دخلت قسم اللغة الانجليزية فى معهد بكين لهندسة الحديد والفولاذ .

بعد التخرج عام ١٩٨٣ عينت للقيام ببحث تعليمى فى مركز البحث للتعليمى العالى المرتبط بالمعهد . فتطلب منى موضوع بحثى ان اقرأ كمية كبيرة من الاعمال التعليمية فى اللغة الانجليزية . وكان من ضمن بحثى ان ترجمت الى الصينية اربعة اعمال اجنبية . وهذه الاعمال هى : مشكلات حلت فى الولايات المتحدة الامريكية ، والتعليم العالى فى كندا ، وادارة التعليم العالى فى بريطانيا ، والتقييم التعليمى فى اليابان .

وتدريجيا اقتنعت بأنه على ان ابدل عملى ، وذلك لعدم

تأكدى من قدرتى على تحقيق نتائج اكاديمية من بحثى . هذا الى جانب اننى لم اكن احب البحث لأنه قد يعزلنى فى " برج عاجى" . رغبت فى ان اقوم بعمل تطبيقى . وفوق ذلك كله عارض زوجى قيامى بعمل البحث التعليمى . لذا تقدمت بطلب الى ادارة المعهد من اجل الانتقال .

فى البداية رفضت الادارة طلبى . ولكننى لم اتراجع عن قرارى ابدا . فحاولت مرات ، واخيرا اقنعت الادارة بالموافقة على انتقالى . وتشاورت مع وحدتى عمل رغبتا فى توظيفى . احداهما الشركة الصينية لاستيراد وتصدير الالكترونيات ، والاخرى هى الشركة الصينية العالمية للعلاقات العامة . وقد اهتمت الاولى بالامر كثيرا لأنها تفتقر الى مترجمة للغة الانجليزية ولأننى كنت النموذج الذى تبحث عنه ، وقد وعدتنى باعطائى شقة من غرفتين اذا انا عملت لديها ، وهذا بالطبع اغراء كبير . فى ذلك الوقت لم يكن لنا انا وزوجى بيت ، بل كان كل منا يقيم منفصلا عن الآخر فى مهجع جماعى . فحثنى زوجى على قبول عرض هذه الشركة . لكننى رفضت العرض لأنى رأيت ان العمل هناك يتطلب قدرا كبيرا من المعرفة الاختصاصية التى لم تكن متوفرة لدى . وكان هناك سبب رئيسى آخر هو اننى اذا اصبحت مترجمة فى هذه الشركة ، فكثيرا ما سأذهب فى مهمات عمل الى الخارج . وزوجى ايضا يذهب الى الخارج كثيرا لمتابعة اخبار المباريات الرياضية الدولية . واذا ما خرجنا كلانا فى وقت واحد ، فان دراسة ابننا ستتأثر تأثرا سيئا .

واخيرا قبلت عرض الشركة الثانية ، الشركة الصينية العالمية للعلاقات العامة . لم اسمع قبل ذلك بمصطلح " العلاقات العامة " ، ولم اكن اعرف ما الذى يعنيه . ولكن حين قدم لى رجال الشركة تعريفا موجزا لهذا العمل شعرت بأننى استطيع القيام به . لقد كنت نشيطة فى النشاطات الاجتماعية خلال فترة دراستى . ففى المدرسة المتوسطة بقيت عريفة صف عدة سنوات . وفى الجامعة كنت ايضا احد قادة اتحاد الطلبة . لذلك تعلمت خلالها كيف اتعامل مع انواع مختلفة من الناس .

لذلك اصبحت موظفة علاقات عامة فى ابريل ١٩٨٧ .

فى السنة الماضية كنت مسؤولة عن اربعة مشاريع للعلاقات العامة واسعة المجال ، وساعدت زملائى فى عدة مشاريع اخرى . وجميع هذه المشاريع ، ما كان منها للزبن الاجانب او الصينيين ، قد نجحت بفضل الجهود المشتركة من العاملين فى شركتنا . وكان الزبائن راضين . وكانت هذه التجارب بالنسبة لى ذات قيمة كبيرة جدا .

كان المشروع الاول هو اعداد مادة اخبارية لاجتماع الصحفيين الدولى فى قاعة اتحاد الصحفيين لعموم الصين فى يوليو ١٩٨٧ . فالمادة الاخبارية لمعهد البحث الدولى للارز ، الموجود فى مانيلا ، هى الحديث عن المنجزات التى حققها هذا المعهد فى بحث الارز والتركيز على جهوده فى المساعدة على حل مشكلة نقص الغذاء العالمية .

وكان هناك جهد آخر هو تقديم الدكتور م . س . سواميناثان ،

المدير العام للمعهد المذكور . لقد كان الفائز الاول بجائزة الاغذية العامة التى كافأته بها حكومة الولايات المتحدة على منجزاته فى البحث الزراعى .

لقد اختار هذا المعهد الصين لاعداد هذا الخبر ونشره باعتبار انها اكبر بلد زراعى ، وانها جذبت انتباه العالم لقدرتها على اطعام بليون نسمة .

اراد المعهد دعوة مراسلين من جميع الصحف الكبيرة ووكالات الانباء والمحطات التلفزيونية الصينية فى بكين ، وكذلك جميع المراسلين الاجانب المقيمين فى بكين ، لحضور المؤتمر الصحفى . ونحن لم نطبع بطاقات دعوة . لذلك كان على ان اجرى عشرات الاتصالات الهاتفية لدعوة المراسلين . وهذا وحده كان كفيلا بأن يفقد الانسان اعصابه ، ذلك لأن طلب رقم هاتفى فى بكين هو بحد ذاته عبء كبير . كان من السهل نسبيا ابلاغ اجهزة الاعلام الصينية . اما ابلاغ المراسلين الاجانب خلال النهار ، فكان فى غاية الصعوبة لأن الصحف ووكالات الانباء الاجنبية ليس لكل منها عادة الا مراسل واحد مقيم فى بكين . وهم يخرجون فى النهار لتغطية الاخبار ، ويعودون الى مكاتبهم ليلا . وكان على ان اتصل بهم هاتفيا فى ذلك الوقت . لقد بقيت يومين وحتى وقت متأخر فى المساء اجرى الاتصال بهم .

بعد ترتيب هذا الامر كان على ان ارى ما اذا زينت قاعة المؤتمر على النحو الملائم ، واعدت منضدة لتوقيع الحضور ، وهيئت المرطبات لتقدم فى موعدها المحدد . وكان من الضرورى

الانتباه لكل جزئية ، فغلطة صغيرة واحدة تسبب الكثير من المشاكل . لذلك بقيت مشغولة الذهن بهذا المشروع حتى وانا فى السرير ، واسأل نفسى على الدوام عما اذا نسيت شيئا .

وكان الشئ الاخير هو الحصول على مترجم لغة انجليزية كفؤ لهذا المؤتمر . وبرغم اتقانى الانجليزية الا اننى لا استطيع اداء هذه المهمة باعتبارى مديرة حسابات . وكان مستحيلا الحصول على مترجم من وزارة الخارجية . وشركتى ايضا ليس لديها مترجمون محترفون . وكل مرة تتولى فيها مشروع علاقات عامة لزبون اجنبى تبحث عن مترجم متطوع ومؤهل لذلك . وعدم توفر مترجم قد يكون مبعث احباط شديد . وهذه المرة كان على ان اذلل هذه العقبة . بقى على انعقاد المؤتمر يوم واحد ولم اجد المترجم المطلوب ، فلك ان تتخيل مدى الاضطراب الذى كنت فيه . واخيرا وجدت هذا المترجم . وانتهى المشروع الى النجاح .

فى اكتوبر ١٩٨٧ ندبت لمشروعى الثانى ، ندوة بكين الدولية للمقاولين لعام ١٩٨٧ ، التى عقدت لمدة يومين فى فندق كونلون . فبدأت استعداداتى قبل عشرة ايام من الموعد . واحتجت الى اتمام طبع كراسة الندوة والمواد المتعلقة بها ، والى ترتيب قاعة الاجتماع ومتابعة كثير من الامور الاخرى الصغيرة انما الضرورية . ومرة اخرى واجهتنى مشكلة المترجمين . ومن اجل تنسيق الامور قرر منظم الندوة ، شركة الهندسة المعمارية الصينية ، استخدام الترجمة الفورية . وهذا يتطلب كفاءة عالية من جانب المترجمين . وانطلقت فى جولة بحث اخرى مكثفة عن المترجمين . ومن حسن

الحفل ان وجدت اربعة . ثم اضطررت الى اقناع مسؤوليهم ليأذنوا لهم بالعمل معنا .

وحين قدرت ان كل شئ قد تم ترتيبه قال وفد المقاولين اليابانيين قبل يومين فقط من موعد انعقاد الندوة بأنهم يريدون ان تكون الترجمة باليابانية .

كان الوقت اصيلا . ففتشت على الفور عن اربعة مترجمين ذوى كفاءة فى اللغة اليابانية . وكان لا بد لى من اعطائهم كراسة الندوة وجدولا بأعمالها ليطلعوا عليهما مسبقا وقتا كافيا . وبعد حصولى على موافقة مسؤوليهم المباشرين كانوا قد غادروا مكاتبهم . فاضطررت الى الذهاب الى بيوتهم لأسلمهم محتويات الندوة . وحين انتهيت من مقابلة الشخص الرابع ، وعدت الى البيت ، كانت الساعة قد بلغت العاشرة ليلا . ووجدت زوجى قد قلق لتأخرى .

ان احدى مشكلاتى الكبيرة ، بوصفى موظفة علاقات عامة ، هى ان يتقدم الزبن الاجانب بطلبات عاجلة غير مدركين الصعوبات التى تعنيها هذه الطلبات . انهم يدفعون اجرا ، لهذا يشعرون انهم يطلبون من موقع الآمر ، وما على المأمور الا ان يستجيب لطلباتهم . احيانا يتقدمون بطلبات تستغرق تلبيتها ساعات ، بلى حتى اياما .

مديرنا العام يقول لنا بأن زبائننا دائما على حق . فدائما ما نحاول بذل اقصى جهدنا لتلبية طلباتهم . لكن هذا الجهد لا يرضيهم احيانا لأن هناك اشياء فوق قدرتنا او خارج نطاق سيطرتنا .

ولا يتوصل الزبائن الى ادراك هذه الحقيقة .

فى يناير ١٩٨٨ زكتنا شركة صناعة السيارات الصينية للاستيراد والتصدير لشركة جنرال موتورز بوصفنا شركة علاقات عامة . وكان ذلك هو المشروع الثالث الذى اضطلع به . طلبت منا هذه الشركة الاجنبية ان نحصل لها على رخص خاصة ليستخدمها موظفوها التجاريون بحيث لا يفتشون فى الجمارك لدى دخولهم الصين . فهذا الطلب فوق صلاحيتنا ، لذلك رفضنا تلبيته ، وقدمنا توضيحا بذلك . ورفعنا هذه المسألة ايضا الى سلطات عليا .

ونجحت استعداداتنا للمؤتمر الصحفى الذى تعقده شركة جنرال موتورز فى قاعة الشعب الكبرى . وبعد ذلك مباشرة جد طلب آخر لمسؤولى هذه الشركة نفسها . فقد رغبوا فى مشاهدة رقصة الاسد الصينية التقليدية تؤدى فى مكتبهم بفندق بكين — تورونتو احتفالا بهذه المناسبة . فسارعت الى الاتصال بمجموعة من ممثلى اوبرا بكين ومجموعة من محترفى الالعاب البهلوانية . ورقصة الاسد تتطلب اسودا صناعية ومؤدين للعروض وكرات حريرية ملونة وفرقة موسيقية . وامضيت اصيلا كاملا على الهاتف اتصل بالناس ، لكنهم جميعا رفضوا الاستجابة لسبب او لآخر . واخيرا اتفقت مع فرقة الغناء والرقص التابعة لمصلحة السكك الحديدية ببكين ، التى وافقت على اداء رقصة الاسد . وقد سر ضيوفنا كثيرا بهذا الاداء . لكن لا اعتقد ان ايا منهم قد ادرك كم انفقت من الوقت فى الاعداد لتسليتهم .

حين قبلت العمل فى الشركة الصينية العالمية للعلاقات العامة

ظننت انه سيكون لدى متسع كبير من الوقت للعناية بابنى ، لكن تبين العكس تماما . فعندما اكون منهمكة فى مشروع ما ، لا استطيع ترك مكتبى .

فى البداية ، حين وضعت ابنى فى روضة الاطفال ، كنت اضطر الى استعادته فى الساعة الخامسة بعد الظهر . فتناقض ذلك مع عملى ، لذلك اخذته الى ابوى المتقاعدين اللذين يقيمان فى منطقة فنغتاى فى جنوب شرقى بكين . وفى ايام الآحاد اقوم انا وزوجى بزيارة ابوى لرؤية ابننا . فمنذ بدأت اعمل فى العلاقات العامة لم امض احدا واحدا فى بيتى . فاما ان اذهب لرؤية ابنى عند ابوى ، واما ان اعمل فى المكتب .

احب الملابس الحديثة ، وعملى يتطلب منى العناية بمظهرى . امورى الاقتصادية فى تحسن مطرد . راتبى الشهرى بمعدل راتب الموظف فى الدائرة الحكومية تقريبا ، لكن هناك اضافات وعلاوات تتوقف على كمية عملى . وقد تمكنت من شراء خمس ادوات كهربائية منزلية — تلفزيون ملون ، وفيديو ، وثلاجة ، وغسالة ، ومسجلة . وهذا طبعا بفضل جهودنا المشتركة انا وزوجى . ان مستوى معيشتنا اعلى من مستوى معيشة كثير من الناس . لكن ليس عندى وقت كبير للتمتع بمشاهدة الفيديو والاستماع الى الموسيقى ، وهذا شئ احبه كثيرا .

هناك اناس يقولون بأن المرأة الصحفية يجب ان تبدل عملها فى الخامسة والثلاثين من عمرها لأن عمل الصحافة يرهق الانسان كثيرا . وفى ذلك شئ من الحقيقة . واشعر ان الامر نفسه ينطبق

الى العلاقات العامة . فحتى الآن ما يزال انطباعى العام عن العمل فى العلاقات العامة هو انه منهك . والنشاطات المرهقة المنهكة يمكن ان تستمر اسبوعا او عشرة ايام ، او حتى اسبوعين ، من بداية المشروع الى نهايته . فأعتقد بأننى حين ابلغ الخامسة والثلاثين ، او على الاكثر قبل الاربعين ، لا بد ان انتقل الى البحث فى العلاقات العامة او الى تعليمها فى الجامعة . اننى اجمع من عملى الآن الخبرة والمادة . واعتبر عمل العلاقات العامة عملا ذا قيمة وجديرا بأن يؤدى .

لقد قررت الشركة ايفادى الى هونغ كونغ هذا العام لامضاء فترة تدريبية تستغرق اربعة اشهر فى مكتب شركة بيرسون — مارستلر .

املى الكبير ان ادرس العلاقات العامة فى الولايات المتحدة ، حيث هذا المجال متطور جدا . وانوى مؤخرا ان اؤلف كتابا فى مواصفات موظف العلاقات العامة . اريد ان افعل شيئا للمساعدة على تطوير ميدان العلاقات العامة فى الصين .

قاو تشى كاى : مترجم

" اجد عملى مثمرا ، وينطوى على كثير من التحدى . "

انه مواطن من سوتشو ، تلك المدينة المشهورة منذ القدم بجمالها وادبائها الموهوبين . ولربما بسبب المعرفة الواسعة التى ورثها عن اجداده ظهرت موهبته فى سن مبكرة . لقد دخل جامعة سوتشو عام ١٩٧٨ ، وهو فى الخامسة عشرة من عمره ، واختص فى اللغة الانجليزية وادابها . وقبل سنة من موعد تخرجه المحدد فاز فى امتحان وطنى لبحث الموهبة ، وادرج اسمه فى دورة تدريبية متقدمة للمترجمين الشفويين والتحريريين ذوى المستوى العالى للحكومة والامم المتحدة . جرت الدورة فى معهد اللغات الاجنبية ببكين (الآن جامعة بكين للدراسات الاجنبية) .

انهى سنتى الدورة عام ١٩٨٣ ، ومنذ ذلك الحين وهو مترجم شفوى وتحريرى فى قسم اللغة الانجليزية بوزارة الخارجية . اسمه قد لا يكون معروفا لدى كثير من الناس ، لكن وجهه مألوف لديهم بالتأكيد لكثرة ظهوره فى التلفزيون مع القادة الصينيين فى نشاطات وزارة الخارجية وفى المؤتمرات الصحفية . وبسبب مهارته التى لا يتسرب اليها الخطأ تقريبا فى مجال الترجمة الشفوية والتحريرية دائما ما يتلقى الاطراء من زملائه ومن المراسلين الدوليين ، وغيرهم ممن يعرفون الانجليزية . وبرغم هذا يظل متواضعا . انه فى السادسة والعشرين من عمره ، ويحتل مرتبة دبلوماسية رسمية بدرجة سكرتير ثالث ، ويمتاز بروحه المرحة ، لذلك غالبا ما تظهر الابتسامة على محياه .

بعض الناس يقول بأن ذوى المقدرة يكتبون ، وان من هم دونهم قدرة يترجمون ما يكتبه الآخرون ويقولونه ، وان الاقل قدرة يكتبون حول فنون الترجمة .

ان كان هذا صحيحا ، فأنا انتسب الى "من هم دونهم قدرة" لأننى اترجم للآخرين . ومؤخرا دخلت فى عداد "الاقل قدرة" حيث انى اكتب الآن اطروحة حول مهارات الترجمة .

خلال حضورى دورة تدريبية للمترجمين الشفويين والتحريريين لم يكن المعهد يمنح شهادات عالية ، لذلك لم انل شهادة الماجستير بعد تخرجى عام ١٩٨٣ . اما وقد اصبحت جامعتى تمنح الآن هذه الشهادات ، فاننى لم ادخر وسعا فى التقدم لنيل درجة الماجستير . ولا بد من اطروحة ، واننى اعمل بها منذ وقت .

بدأت الترجمة لقادة الحزب والحكومة فى اواخر عام ١٩٨٣ . واننى لقادر الآن على دخول حالة من "الانعكاس الشرطى" التى انسى فيها لمن اترجم . اننى اركز على الاستماع وترجمة ما يقال ، وقلما انتبه لمن حولى ، وكذلك لأضواء الكاميرات .

بسبب كثرة ظهورى مع القادة فى التلفزيون يعتقد كثير من اصدقائى ، ومن بينهم زملائى السابقون فى الدراسة ، اننى محظوظ . فقلت لهم ليس فى عملى هذا القاسى المرهق ما تحسدوننى عليه . انما ألعب دورا ضئيلا فى تبادل الاحاديث بين القادة الصينيين والشخصيات الاجنبية البارزة . وبعد انتهاء اللقاء مباشرة ارتد الى

شخص مجهول . قد يحسدنى الناس لهذه اللحظات القصيرة من التألق ، لكننى لا اعتقد ان ارضى لابنى - اذا رزقت ابنا - بأن يحذو حذوى .

ان وضعى يغر الآخرين ، ليس الا . لكن احب دورى هذا برغم تفاهته ، وارجو ان اؤديه على خير وجه . واظن اننى كسبت ثقة الناس .

مع انى اترجم فيما لا يحصى عدده من المناسبات الرسمية وغير الرسمية ، الا انه يظل من قبيل التحدى ان تقوم بعمل مرض .

قد يظن بعض الناس ان من السهل ان تقوم بالترجمة . لكن هذا غير صحيح . فالترجمة الجيدة تتطلب كفاءة عالية فى لغتين ، كما تتطلب معرفة واسعة . انها فن لا غنى فيه عن التدريب والكفاءة. والشهادات الاكاديمية لا تقدم الكثير من العون .

هل لاحظت المترجمة فى احد المؤتمرات الصحفية التى عقدت خلال المؤتمر الثالث عشر للحزب ؟ كان المؤتمر لأوساط التعليم الصينية ، والمترجمة تحمل شهادة الدكتوراه من جامعة تشينغهوا ، وقد عادت لتوها من الولايات المتحدة . ان معرفتها فى مجال اختصاصها دقيقة وواسعة دون شك ، لكنها لم تهيأ لتكون مترجمة شفوية فحين كان المتكلم يقول اربع جمل او خمسا ، لم تكن تترجم الا جملة او اثنتين . وبعد ذلك لاذت بالصمت ، واضطر آخر الى تولى هذه المهمة .

وبرغم تدريبى وكفاءتى فى هذه المهنة اواجه ايضا تحديات

قد تبرز فى اى وقت . وفى مراحل الترجمة الخمس يمكن للمرء ان يخطئ ايضا فى اى وقت . فأحد اكبر التحديات التى واجهتنى كان فى المؤتمر الصحفى الثانى لمؤتمر الحزب الثالث عشر . هناك صحفى من سنغافورا وجه سؤالين بالانجليزية عبر الميكرفون اللاسلكى . وميكرفون من هذا النوع يجب ان يتم التكلم من خلاله مباشرة كى يسمع الصوت بوضوح . لكن الصحفى لم يفعل ذلك ، فقد امسك به قريبا من صدره . فى البداية ظننت انه يتكلم لهجة قوانغدونغ الصينية التى لا افهمها . فاضطررت الى ان اطلب منه اعادة سؤاليه . عندها اكتشفت انه يتكلم الانجليزية . ومع ذلك لم افهم سؤاليه فهما كافيا . فهل اتجرأ على مطالبته باعادتهما مرة اخرى ؟ كثير من الناس كانوا ينظرون الى منتظرين ترجمتى . وملايين من مشاهدى التلفزيون كانوا ايضا يراقبون وينتظرون . وملأ العرق جبينى وكفى . فبذلت جهدى فى تقدير السؤال معتمدا على التخمين العقلى ، وهذا محظور فى الترجمة .

كانت هذه واحدة من اشد الاختبارات التى مررت بها . لذلك اذا حدث خطأ فى الاستماع ، تعرضت المراحل الاخرى للخطأ . كثير من القادة الصينيين يتكلمون بلهجة محلية . فحين اترجم لهم استمع بحرص شديد لأتجنب ارتكاب الاخطاء . ان احاديثهم من الاهمية بحيث لا يمكن ان يساء فهمها ، ولا اجرؤ كذلك على مطالبتهم باعادة الكلام . ومن حسن الحظ اننى نادرا ما اواجه مشكلة فى فهم كلامهم .

لا ادعى بأن ترجمتى هى الافضل ، لكننى اسعى دائما

الى بذل اقصى جهدى . اسمى عملى " ترجمة تحريرية " بدلا من " ترجمة شفوية " لأنى يجب ان اكون فى ذلك دقيقا كل الدقة . انا لست فى وضع يتيح لى ، او ليس عندى الحرية فى ان ادخل اى تبديل على ترجمة الاحاديث والوثائق الرسمية الى الانجليزية . فقيامى بذلك قد يسبب ارباكا للحكومة .

ذات مرة قدمت الحكومة الصينية مذكرة الى حكومة الولايات المتحدة محتجة على قذفها ليبيا بالقنابل . فاحتوت النسخة المترجمة الجملة التالية : " بحجة الهجوم المضاد على الارهاب الدولى ارسلت الولايات المتحدة قاذفاتها جهارا لمهاجمة ليبيا . "

فذهب على الفور مسؤول فى وزارة الخارجية الامريكية الى السفارة الصينية فى الولايات المتحدة وقدم احتجاجا الى السفير هان شيوى . وقال انه لمن المعروف للجميع ان ليبيا مشتركة فى نشاطات الارهاب الدولى . واحتجاجات كثير من البلدان الاخرى ، بما فى ذلك الاتحاد السوفياتى ، قد استخدمت كلمة " مسوغ " . فلماذا تستخدم الحكومة الصينية كلمة " حجة " ؟ فاضطر هان شيوى الى تقديم اعتذار قائلا ان ذلك مجرد خطأ فى الترجمة . انا لم اشترك فى ترجمة مذكرة الاحتجاج هذه برغم اننى ترجمت كثيرا من الوثائق الدبلوماسية الاخرى .

اشعر ان القيام بالتسجيل هو احدى المزايا الايجابية لدى . فأستطيع ان ادون باختصار سريع كلما يدور فى المحادثة بين المتحدثين . واستخدم الرموز المألوفة لدى ، والتى يمكن ان اميزها بسهولة . احيانا تكون هذه الرموز مقاطع صينية ، واحيانا

حروفا انجليزية . وبعد انتهاء المحادثة اترجم عادة ما سجلته الى نص كامل على احتمال الاستفادة منه فيما بعد . فالحرف " h "مثلا فى اختزالى الشخصى يرمز الى كلمة " صحة " او " هيمنة " المبتدئتين بنفس الحرف . يجب ان اكتب شرح هذه الرموز فورا حتى لا انسى ما كانت تشير اليه .

يسرنى ان اقول بأننى استعد للزفاف . خطيبتى امينة مكتبة فى جامعة بكين للدراسات الاجنبية . حين كنت متدربا هناك كثيرا ما ذهبت للبحث عن كتب لديها . وتدريجيا اقتربنا من بعضنا بعضا . لقد ساعدتنى فى اختيار كثير من الكتب الانجليزية الجيدة التى ترجمت ثلاثة منها الى الصينية وتم نشرها .

سمعت ان مترجمين آخرين كثيرا ما استخدموا قربهم من القادة فى الشكوى من افتقارهم الى السكن او من معاناتهم من مشكلات مادية او من صعوبات اخرى . وانا بالتأكيد لى مشكلاتى ، فالمهجع الذى انام فيه بعيد جدا عن مكتبى . فأنام غالبا فى مكتبى لأظل قريبا من مكان عملى . وهذا ما ادهش الناس . اما الآن فأنا محظوظ تماما بحصولى على شقة من ثلاث غرف تقع فى حى دونغبا بشمال شرقى بكين . انا فى الواقع تكفينى شقة من غرفتين لأنى ما زلت شابا ، وكان من المفروض ان اشترك مع زميل لى فى هذه الشقة ذات الغرف الثلاث . لكن الموقع غير ملائم له ، فانتقل . وبقيت الشقة بكاملها لى وحدى . وقد انتهيت من الانتقال اليها ، واشعر الآن بمنتهى السعادة .

منذ اصبحت مترجما فى وزارة الخارجية اخذت اسافر مع

القادة الى بلدان كثيرة . ومعظم البلاد التى زرتها جميلة . وما يؤسفنى هو انشغالى الدائم فى الترجمة عن القيام بمشاهدة المناظر الجميلة خلال هذه الرحلات .

احب مشاهدة المناظر الطبيعية . وخلال دراستى فى جامعة سوتشو كنت اركب الدراجة الى شانغهاى وحدى فى ايام العطل . واستمتع بالمناظر على طول الطريق استمتاعا كبيرا . وذات ليلة نمت فى ميدان الشعب بشانغهاى . وقد استجوبنى رجل الامن مرة ، لكنه تركنى حين اطلعته على هويتى الطلابية .

وخلال فترة تدربى فى بكين ذهبت على الدراجة الى منطقة السور العظيم وغيرها من الاماكن الطبيعية . وتجربتى مع السور العظيم لا تنسى . فقد سلكت بدراجتى الى اعلى الطريق المتعرج ، ثم نزلته على الدراجة بسرعة شديدة . وكانت المتعة فى النزول اكثر منها فى الصعود .

كان حلمى ايام دراستى ان اقوم برحلة حول العالم لأرى من الاماكن والمشاهد ما يسرنى . واليوم ، وقد اصبحت لدى فرصة الترحل ، لم اعد اجد متسعا من الوقت لمشاهدة ما اريده .

قريبا سأذهب للعمل فى مقر الامم المتحدة بنيويورك . وبعد انتهاء هذه المهمة سأعود الى الصين .

اننى مترجم محترف ، وعلى ان اتقيد بالقواعد التى تعتبر دستور الاخلاق . والقاعدة الاساسية هى ان لا يذكر المترجم مطلقا ما يدور بين القادة من احاديث خاصة .

الجزء الخامس

فى الصناعة

منغ ما ينغ : نساجة

" على الرغم من العناء الشديد فى عملى لا اتذمر منه ، فهو على كل حال اختيارى . "

الناس يميلون عادة الى الحكم على المظهر . وبالنسبة لعاملات النسيج فالناس عموما يظنون بأنهن يلبسن ثيابا نظيفة وجميلة ، وانهن يتصفن بالرشاقة وسرعة البديهة . لكنهم قلما يفكرون فى الحياة اليومية التى تعيشها هؤلاء العاملات ، او فى المشكلات التى يعانين منها .

هذه قصة نساجة فى الرابعة والاربعين من عمرها ، تدعى منغ ما ينغ . وهى تعمل منذ ٢٢ سنة فى معمل النسيج رقم ١٢ بشانغهاى ، احد اكبر معامل النسيج فى شانغهاى .

تعيش منغ مع زوجها وابنتها البالغة من العمر ١٩ سنة ، وتصفهما فتقول : " زوجى مستقيم ومجتهد فى عمله . اريد لابنتى ان تحصل على عمل افضل من عملى . وافضل ان ابقيها فى البيت واقوم بنفسى على اعالتها من ان ادعها تمارس عملا شاقا كعملى . "

اعمل نساجة منذ اثنين وعشرين عاما . وانا لا اتذمر من عملي هذا برغم معاناتي فيه ، فهو على كل حال اختياري ، أليس كذلك ؟

نحن عاملات النسيج عندنا — كما تعرف — ثلاث مناوبات : مناوبة الصباح (من الساعة ٦ — ١٤) ، ومناوبة بعد الظهر (١٤ — ٢٢) ، ومناوبة الليل (٢٢ — ٦) . وانا اعمل فى الليل سبعة ايام ، وبعد الظهر ستة ايام ، وفى الصباح ستة ايام . واحيانا نعمل ساعات اضافية . ونستريح يومين كل ثمانية ايام . وفى السابق كنا نستريح يومين كل تسعة ايام .

والسؤال الآن : هل يتاح لنا ان نحصل على المزيد من اوقات الراحة ؟ اننا اكثر تعبا من السابق لأن الآلات الجديدة تتطلب اعمالا يدوية اكثر سرعة . خلال المناوبة التى تستمر ٨ ساعات نظل واقفات على اقدامنا طيلة الوقت ، نتنقل بين صفوف الآلات ، لا نتوقف الا لتناول وجبة الطعام ودخول دورة المياه . لا نستطيع ان نجلس ، ولو لحظة ، خوفا حدوث انقطاع فى مكان ما من الفتلة . لم احاول قط ان احسب كم مشيت فى الورشة خلال هذه السنين الطويلة . لكننى اعتقد بأننى قد مشيت مسافة اطول من تلك التى اجتازها الجيش الاحمر فى المسيرة الكبرى ، وطولها ١٢ر٥٠٠ كم .

نتيجة لذلك دائما ما تنتفخ قدماى بعد كل مناوبة عمل . وكلنا نلبس فى الورشة احذية قماشية بلا كعب .

كنت فى صغرى احب التأنق فى اللباس ، فكان من عادتى ان احشر قدمى المنتفختين فى حذاء جلدى عالى الكعب ، وامشى عائدة الى البيت ، وانا اضغط على اسنانى من شدة ما تؤلمنى قدماى . اما وقد كبرت الآن ، فأفضل لبس الحذاء القماشى . صحيح . انه قبيح ، لكنه مريح وملائم ايضا .

طيلة السنة نلبس فى الورشة بلوزات بأكمام قصيرة لأن معيار الحرارة الدائمة ٢٦ درجة للحفاظ على اقل نسبة من انقطاع الخيوط . خلال فصول الشتاء من السنوات الاولى التى عملت فيها هنا كنت كثيرا ما اصاب بالزكام حين اعود من العمل الى البيت غير مراعية ملاءمة ثيابى للجو الخارجى .

اننا نجلب معنا الى العمل دائما ثلاثة اشياء : مقصا لقص اطراف الخيوط ، وحقيبة لجمع الغزل التالف ، ومروحة من ورق نبات التيفا لنتبرد بها . منذ عام ١٩٧٢ زودت الورشات الاخرى بكراس متحركة ، فيها مراوح كهربائية وحقائب وآلات صغيرة لنزع كبب الغزل . فبوسع العاملة ان تجلس فى الكرسى المتحرك وتؤدى عملها بمزيد من السهولة . لكن اناسا يشكون من ان الجلوس هكذا ساعات طويلة يخدر الساقين ويسبب ألما فى الظهر . اما انا فأفضل الجلوس فى الكرسى عن العمل طيلة اليوم واقفة على قدمى المتورمتين . ومن سوء الحظ ان ورشتنا لا تحتاج الى مثل هذه الكراسى .

نحن عاملات النسيج دائما ما نشكو من آلام فى اليدين او القدمين او الظهر . واما الانهاك العصبى والم المعدة والنتوء

العظمى فى عقب القدم ، فهى ايضا من العلل المألوفة لدينا . بعض العاملات طلبت ترك العمل ، لكن طلبها رفض . والسبب بسيط : من الصعب جدا ايجاد عاملات جديدات فى شانغهاى . فالشابات الشانغهانيات يفضلن البقاء فى البيت بلا عمل على تعريض انفسهن للآلام التى تعانى منها عاملة النسيج . لذلك يضطر المعمل الى تشغيل عاملات بالتعاقد . وغالبا ما يكن فتيات صغيرات من ريف مقاطعة تشجيانغ . ويأتين لهذا العمل بسبب التأمين الذى يقدمه هذا المعمل للعمال .

وانا اقول بصراحة اننى لن ادع ابنتى الوحيدة تحذو حذوى . يمكنها ان تعمل ما تشاء الا ان تصبح عاملة نسيج . وان هى بقيت بلا عمل ، فأنا على استعداد لأن اعيلها بأقصى ما استطيع .

حتى ولو علمت مسبقا ان عملى سيكون مرهقا الى هذا الحد ، لبقيت متمسكة به ، اذ ليس امامى من اختيار آخر كما تعرف .

كنت فى التاسعة عشرة من عمرى حين تخرجت فى المدرسة الاعدادية . واردت دخول المدرسة الثانوية ، لكننى لم استطع لأن وضع اسرتى الاقتصادى كان فى غاية الصعوبة . انحدرت من اسرة كبيرة فيها ثلاثة اخوة وثلاث اخوات . وكانت امى ربة منزل ، لذلك كان على ابى المحاسب ان يعيل وحده الاسرة بكاملها . فكنا دائما فى عوز ، مما جعل ابى فى قلق مستمر بشأن النقود . ومن اجل تخفيف العبء عن كاهل ابى تخليت عن فكرة الالتحاق بالمدرسة الثانوية لأبحث عن عمل .

اخترت عمل النسيج لأن الاجر فيه عال نسبيا . واضافة

الى ذلك احببت كبقية الفتيات حينذاك المظهر الخارجي لعاملة النسيج : نظيفة وانيقة بقبعة بيضاء وقميص قطني مزهر . وبعد فترة غير طويلة اجتزت امتحان القبول فى المدرسة الفنية التى انشأها المعمل لتدريب العاملات الجديدات .

وخلال ثلاث سنوات من الدراسة كنا نذهب الى المعمل ما بين حين وآخر لتطبيق ما تعلمناه فى المدرسة . وتلك كانت اسعد ايام حياتى . كل شئ بدا مفعما بالامل ، وكل زميلة فى الصف بدت فى غاية السعادة .

فيما بعد اصبحت حاملا . فشعرت بصدمة مخيفة . سأظل ملزمة بالعمل مناوبة كاملة مدتها ثمانى ساعات الى ان اضع المولود . العاملات الشابات اليوم اسعد حظا ، فمن بلغت منهن الشهر السابع من حملها يمكن ان تستريح ساعة فى كل مناوبة .

تزوجت فى السادسة والعشرين من عمرى ، وقد اعتبرت يومها متأخرة فى زاوجى الى حد ما . والغريب انه لم يخطر لى ان اتخذ اى قرار بشأن زواجى ، بل تركت كل شئ لأبوى معتقدة انهما على معرفة وحكمة واسعتين فى هذا المجال . وشعرت ايضا انهما سيتأكدان من كون الشاب المتقدم موضع ثقة . لهذا لم اكلف نفسى ولو عناء التفكير . واعتقدت بأنه اذا ما قرر ابواى ، فلا مانع من ان تتم الامور . لقد رفضت عدة متقدمين قبل ان يتقدم زوجى لاو لى . لذلك حين توصل ابواى الى ان لاو لى شاب مستقيم ومجتهد فى عمله سرعان ما تم زواجنا .

وكان ابواى مصيبان ، فهو حقا رجل مستقيم .

وخلافا لمعظم الازواج من سننا اكتفينا بمولود واحد . لم نرغب فى انجاب المزيد لأننى وزوجى عرفنا من خبرتنا الطفولية (لزوجى ستة اخوة واخوات) الصعوبات التى تنتج من انشاء اسرة كبيرة يتم فيها اقتسام الحب والاهتمام الابويين ، وتصبح النقود مشكلة دائمة . لذلك رأينا ان مولودنا الوحيد سيحظى بكل حبنا ورعايتنا ويتمتع بحياة سعيدة سارة حرمنا منها حين كنا فى سنه .

ابنتى الآن فى التاسعة عشرة من عمرها ، تدرس فى مدرسة مهنية ، وترتدى ملابس انيقة ، وهى كذلك جميلة .

لكنها تحاول دائما تجنب والدها . فقلما تتحدث معه برغم حرصه على الاحتكاك بها . انها تعتبره كمتطفل على اسرة من فردين : انا وهى . واظن ذلك نتيجة ابتعاده الطويل عنا . فقد ظل يعمل فى قوانغتشو حتى عام ١٩٨٦ .

يقول الناس بأنه قد كتب على ان اكون كادحة ، حتى فى البيت . ولربما يكونون على حق . فأنا اقوم بجميع الشؤون المنزلية لاعتقادى بأن لا احد غيرى يستطيع القيام بها خيرا منى . يحاول زوجى وابنتى احيانا مشاركتى فى بعض الاعمال المنزلية ، لكننى لا بد ان اجد خطأ فى العمل الذى يؤديانه . فزوجى مثلا يغسل الملابس بفرشة تنظيف خشنة لا احتمل مجرد منظرها . لذلك اظل منشغلة طيلة الوقت باستثناء بضع ساعات انامها فى الليل .

انه لحلم لى منذ سنوات ان اسافر الى بعض البقاع الجميلة مثل هانغتشو وبكين ، لكن النقود هى المشكلة . ولا اعنى بذلك اننا لا نملك اية نقود ، بل عندنا مدخر لابنتنا . نريد ان نقدم

لها اسهاما معقولا فى المهر عند زواجها .

لقد تعودت التكلم بصوت عال ، بل حتى الصراخ الى بعضنا بعضا احيانا ، لنتجاوز بذلك ضجيج الآلات فى المعمل . ومن الصعب ان اغير هذه العادة فى البيت . لهذا غالبا ما يرتبك الجيران للضجة التى نحدثها . ويظنون بأن شجارا قد نشب فى اسرتنا . فمع شقيقتين لى وزوجة اخ ، وجميعنا نعمل فى معمل النسيج ، يبدو مشهدنا صاخبا اذا ما اجتمعنا سويا .

وتظل اكبر مشكلة لدى هى السكن . فالبيت الاحادى الغرفة الذى نسكنه ومساحته ٨ امتار مربعة يستخدم غرفة جلوس وغرفة نوم ومطبخا فى آن واحد . كل ليلة يضطر زوجى الى الانتظار خارج الباب ريثما تستحم ابنتى . وهناك سرير فردى يطوى تحت السرير المزدوج . علينا ان نسحبه كل ليلة ونهيئه لنوم ابنتنا . وبين السريرين نعلق قطعة طويلة من القماش القطنى تقوم مقام ستارة . وهذا وضع غير ملائم اطلاقا .

نادرا ما ادعو زملائى الى البيت ، فلا مكان يجلسون فيه ، ولا مقعد يجلسون عليه الا السرير . واذا بلغ الحضور اربعة او اكثر ، ازدحمت بهم الغرفة .

دو جيا تينغ : عامل متعاقد فى الخارج

" ذهبت للعمل فى الخارج كى اجمع النقود واشاهد العالم . لكن انتهى الامر الى اننى جمعت ثروة صغيرة ، ولم اشاهد الكثير من العالم . "

بعمله فى الخارج ساعد اسرته ماديا ، لكنه دفع ثمن ذلك معاناته فى الحنين الى موطنه . والآن ، وقد اصبحت اسرته " ثرية " بالمعايير الصينية ، فانه يندم على افتقاره للمهارات والمعرفة . ويعتقد بأنه لو بذل جهدا افضل فى المدرسة المتوسطة ، لأمكنه ان يصبح مديرا ، ولما احتاج الى مغادرة بلاده من اجل كسب المال .

انه فى الثلاثين من عمره ، عامل كهربائى فى شركة جينان للبناء رقم ٤ . فى اكتوبر ١٩٨٣ اختير مع الف عامل بناء آخرين فى جينان للعمل فى الكويت ، حيث بنوا ٥٤ مبنى سكنيا فى مدة سنتين .

انه معجب بفعالية العمل فى هذا البلد الاجنبى . ولكن حين عاد الى بلده وجد ان وحدة عمله قد تبنت نظام فعالية مشابها جعل من الممكن بالنسبة له ان يكسب ضعف ما كان يكسبه قبل خمس سنوات .

انه غير متأكد بخصوص ذهابه للعمل فى الخارج مرة ثانية . وان هو خرج ، فالنقود ستكون ثانوية بالنسبة للتجربة التى سيعيشها .

يبدو فى مظهره رياضيا . زوجته تعمل فى معمل للجوارب . وبيتهما مزود بالأدوات الكهربائية المنزلية الجيدة . لكن الشىء الواضح فقدانه فى بيتهما العصرى المظهر هو لمسة من التهذيب والاناقة .

ذهبت للعمل فى الخارج كى اجمع النقود واشاهد العالم ، لكن انتهى بى الامر الى اننى عدت بثروة صغيرة ، ولم يتيسر لى ان ارى الكثير من العالم .

كنا اول دفعة من العمال المتعاقدين فى مدينتنا تذهب الى الخارج . وبعض افراد دفعتنا قد عمل فى الخارج من قبل ، ولكن ذلك العمل كان جزءا فى برامج بلادنا للمساعدة الخارجية فى البلدان الافريقية .

ان العمل فى الخارج مختلف الآن . فاذا كنت معافى وقادرا على العمل مستقلا ، فأمورك تغدو ميسرة . منشأك الطبقى وسلوكك لم يعودا عرضة للتدقيق واعادة التدقيق كما كان الوضع فى السابق . اجد شعبنا اليوم قد اصبح اكثر وعيا للعوامل الاقتصادية . الحكومة تدعونا للعمل فى الخارج كى تعزز صداقتها مع البلدان الاجنبية ولتكسب السمعة الجيدة لبلادنا ، ولكن نحن نقول لأنفسنا بأننا نخرج لنكسب لبلادنا عملة صعبة .

الدولة تأخذ النصيب الاكبر ، والافراد يأخذون جانبا ، وشركتنا تأخذ بقية المبلغ . صراحة لا اعتقد ان وحدة عملنا تكسب شيئا من ارسالنا الى الخارج لأن اعمال البناء تجارة مربحة فى الصين الآن . فحقيقة الامر ان شركتنا تحصل على مال من عملها داخل البلاد اكثر مما تحصل عليه من قيامها بمشاريع فى الخارج . لذلك لن تستمر وحدة عملنا مستقبلا فى ارسال العمال الاكثر مهارة الى الخارج .

عندما اخبرونى بأنه قد تم اختيارى للعمل فى الخارج ، قدرت اننى يمكن ان اعود بتلفزيون ملون وثلاجة . لكننى عدت بثلاثة تلفزيونات ملونة وثلاث ثلاجات ودراجتين ناريتين وفيديو وارغن ألكترونى وساعات ودراجات عادية وحلى . وقيمة هذه الادوات اكثر مما استطيع كسبه طيلة حياتى فى الصين . قدمت تلفزيونين وثلاجتين لأخوى واختى ، وبعت الدراجتين الناريتين . اردت ان احتفظ بواحدة لنفسى ، لكن ليس عندى مكان احفظها فيه . وكانت صفقة خاسرة لأننى علمت ان الدراجات النارية المستوردة تباع بسعر اعلى الآن .

بوسعك ان تجمع ثروة اذا عملت فى الخارج بجد لبضع سنوات ، لكن يجب ان تكون على استعداد لمعاناة الحنين الى وطنك . لقد غبت عن بلدى سنتين ، ووجدت ذلك وقتا فى غاية الطول . سنة واحدة لا بأس .

عملت فى احد الاحياء السكنية بالكويت . تعاقدنا هناك على بناء بيوت من طابقين . وكانت فرقتنا تضم مئة عامل . ورئيس الفرقة مهندس من مقاطعتنا تحت قيادته رؤساء اقسام من شركتنا . والمراقب الذى بدا كأنه عربى لم يختلط بنا نحن العمال . كنا نقوم بعملنا ، وهو يقوم بمعاينته . فاذا وجد شيئا لا يتفق والمواصفات المطلوبة ، اخبر رئيس وحدتنا بذلك . فيدعونا الرئيس الى اجتماع ليطلب من المسؤولين عن ذلك تصحيح النواقص . كان المراقب صارما جدا بخصوص مواصفات المشروع ، يعاين كل شئ نقوم به . نحن شخصيا لم نخض معه اى جدال ،

والاحتكاك الوحيد بيني وبينه هو تبادل التحية بلغته .

كنت عامل كهرباء من الدرجة الرابعة فى ذلك الوقت . وكانت مهمتي ان اركب اجهزة هاتف ومكيفات ومراوح لسحب ابخرة المطابخ واجراسا للابواب . وكنا نتقاضى اجرا على القطعة ، فكلما عملنا اكثر ، كسبنا اكثر . وقد عملنا جميعا بجد ونشاط ، لاسيما فى البداية ، لأننا حرصنا على كسب المزيد من النقود لشراء ادوات الترفيه والعودة بها الى بلدنا .

كانت نقودنا تحفظ جماعيا ، فاذا ذهب احدنا الى المدينة فى العطلة الاسبوعية سحب نقوده من الشخص الذى تحفظ لديه النقود . فى الواقع لم يكن هناك شيء نحتاج الى شرائه ، وقد شجعنا رؤساؤنا على عدم التبذير ، ونصحونا بأن نستخدم النقود فى شراء الحاجات الكبيرة .

فى بداية وصولنا الى الكويت لم نستطع ان نميز الشرق من الغرب . لم يذهب احد الى المدينة فى النصف الاول من السنة الاولى . وفى البداية لم نسترح فى العطل الاسبوعية لأننا حرصنا جميعا على انهاء العمل مبكرا والعودة الى بلادنا . ولما اصبحنا اكثر تآلفا مع البيئة هناك اخذنا نستريح يوما كل اسبوعين .

كان مكان اقامتنا قريبا جدا من موقع العمل . ومربعاتنا السكنية بدت كالمهاجع ، لكنها مريحة من الداخل . كل سبعة منا يشتركون فى غرفة . وفى غرفتنا سجادة ومكيف وثلاجة . وفيما بعد اشترى رؤساؤنا مسجلة لكل غرفة . فى المساء نقتل الوقت فى مشاهدة التلفزيون والفيديو . وكانت لنا غرف استحمام ،

فبوسعنا الاستحمام يوميا . كنا فى البداية منضبطين ، نحافظ على نظافة الغرفة . اما حين استبد بنا التعب فيما بعد ، فأصبحنا نتكاسل حتى عن خلع احذيتنا . ندوس على السجادة بأحذيتنا الموحلة ، ونلقى بأنفسنا على الاسرة دون ان نخلع ثيابنا الوسخة .

كان الطعام كثيرا . ووجباتنا تحتوى على لحم البقر والدجاج والبيض والسمك والجمبرى وجميع انواع الخضار والفاكهة ، وهى مشابهة لما عندنا هنا . فى البداية كنا نأكل خبزا وكعكا نشتريهما من السوق . لكننا لم نستطع استساغة هذا الطعام الغريب ، لذلك اشترينا ارزا ودقيقا لنعد الطعام الذى يلائمنا . واصبحنا نأكل "جياوتسى" (كرات عجينية محشوة باللحم) كلما رغبنا فيها . واصبح لنا طباخونا الخاصون . لقد ازداد وزنى هناك كثيرا . وبعضنا كان يرغب عن الطعام لشدة شوقه الى بلده . ومن حسن الحظ اننى لم اتأثر الى هذا الحد .

هناك شخص استبد به الحنين الى بلده ، فتوقف عن العمل ، ورجا المسؤولين ان يسمحوا له بالعودة الى بلده . لكن ذلك مستحيل . فحاول المسؤولون مواساته . المتزوجون كانوا يحنون الى زوجاتهم واولادهم ، والعزاب الى حبيباتهم واهاليهم . وبالنسبة لى لم يكن لى الا اب اشتاق اليه فلم يكن لى حبيبة ، اما امى فقد ماتت منذ سنوات طويلة .

سواء اشتقت الى بلدك ام لم تشتق لا يمكنك العودة قبل انتهاء عقدك . وانه لمن العبث الاستغراق فى اوهام العودة قبل موعدها المحدد .

انك تنسى الشوق الى بلدك خلال انشغالك بعملك ، لكن بقاءك بلا عمل يبعث فى نفسك السأم . فى وقت الفراغ نلعب الورق والشطرنج ، ونستمع الى الموسيقى . وفى العطلة الاسبوعية نشاهد برنامجا تلفزيونيا خاصا بنا عبر الفيديو . واشرطة الفيديو تزودنا بها غالبا السفارة الصينية ، وتحتوى تمثيليات كونغفو من هونغ كونغ وافلاما سينمائية منتجة فى الصين . وقد وصلنا بعد شهر شريط الاحتفال بعيد الربيع (رأس السنة القمرية) فى الصين .

اكثر لحظة شعرنا فيها بالوحدة كانت خلال عيد الربيع . فمع انه لم يحتفل احد بهذا العيد الصينى ، الا اننا لم نستطع الكف عن التفكير ببلدنا واهلنا . كان اناس من السفارة الصينية يأتون لزيارتنا . ومرة جاء وفد صينى لزيارتنا خصيصا ، وكان قادما من مقاطعتنا . فشعرنا جميعا بأنهم اعزاء على قلوبنا ، وامطرناهم بوابل من الاسئلة حول مواطننا .

وترسل لنا السفارة غالبا صحيفة الشعب اليومية . هنا فى الصين لا اعير هذه الصحيفة اهتماما خاصا ، لكن فى الكويت كنت احرص على ان اكون اول من يقرأها رغبة فى معرفة ما يجرى فى بلادنا .

كان تلقى الرسائل من بلادنا يعتبر من اسعد لحظاتنا . فالذين يتلقون رسائل تغمرهم الفرحة ، والذين لا يحمل لهم البريد رسائل ينظرون اليهم بعين الحسد ، ويقلقون لعدم سماعهم اخبارا عن بلدهم . واحيانا كنا نشارك فى قراءة الرسائل حتى يبتهج الذين

لا يتلقون اية رسائل .

كنت اذا كتبت رسالة الى الاهل ، ظهرت بمنتهى الايجابية . فلا اذكر ابدا اننى متعب برغم شعورى بالتعب فعلا . بل اخبرهم بأن كل شئ على ما يرام ، ولا حاجة بهم الى القلق .

كنا جميعا حريصين فى موقع العمل حتى لا يصاب احدنا بسوء وتقلق عليه اسرته . ولم يتعرض اى منا لاصابة خطيرة . اسوأ ما هنالك حين كان احدنا يدوس على مسمار . وكان معنا طبيب يزودنا بكل ما نحتاج اليه من الرعاية الطبية . واذا اشتد بأحدنا المرض ، نقل الى مستشفى محلى للعلاج .

الكويت اشد حرارة من مسقط رأسى . فكنزة صوفية تكفى فى الشتاء . لكن من الغريب اننى لم اتعرق هناك كثيرا برغم الحرارة الشديدة . وحين تهب الرياح من البحر تضايقنا الرطوبة .

موقع العمل ارض خلاء واسعة ، لا ترى فيها الا القليل القليل من ابناء البلد . اذا ذهبنا للتحوج ، فلا بد لنا من ركوب التاكسى او الباص . النساء هناك يضعن الخمار ، ولم أتجرؤ قط على التعرف عليهن . والرجال يأخذون بتعدد الزوجات ، وقد تكون بعضهن من البلاد الغربية . ويبدو لكل اسرة عدد كبير من الاولاد . أليس غريبا ان لا يطبقوا تحديد النسل ؟ لكن ليست هناك ازمة سكان .

الكويت غنية اكثر مما ينبغى . وهى تستورد كل شئ تقريبا حتى التربة . ولا احد من ابنائها يقوم بعمل يدوى لكسب معيشته ، فعمال البناء من بلدان آسيوية اخرى ، وحتى العاملون فى المخازن

الكبيرة من الاجانب .

تبدو الكويت خالية من اللصوص . فحين يذهب اصحاب المخازن الى بيوتهم لتناول الغداء يكتفون باسدال ستائر قماشية على محلاتهم ، ويتركونها دون رعاية . انهم لا يخشون ان تسرق . والشرطة فى الكويت يستخدمون الحوامات ، لذلك يستطيعون ان يروا ما يجرى تحتهم .

شعرت بالفرق الكبير فيما بيننا وبينهم ، وهو ان معداتهم افضل من معداتنا . وعندهم كذلك ادارة ممتازة وكفاءة فى العمل ونوعية جيدة . ولكن اجد الصين فى السنتين الاخيرتين تقوم بأشياء كثيرة على غرار ما تعلمنا القيام به فى الكويت ، فقد ادخلنا نظام التعاقد ، ونأخذ اجرا على اساس قدراتنا الانتاجية ، فتكسب اكثر ان عملت اكثر .

راتبى الشهرى ٧٢ يوانا ، لكننى اكسب فعليا ٣٠٠ يوان بسبب ما احصل عليه من دخل اضافى من الاعمال الاخرى . زوجتى لا تحصل على اضافات كبيرة ، لذلك لا انتظر منها اسهاما كبيرا .

تعرفت عليها من خلال قريب لى ، وكان هذا بعد عودتى من الكويت . رأى ابى انه قد حان موعد زواجى . وقد تزوجنا عام ١٩٨٦ ، لكنى وجدت الحياة الزوجية مملة .. تعود الى البيت بعد العمل وتنهمك فى اعداد وجبات الطعام ، فلا تجد وقتا لمجالسة زملائك .

زوجتى حامل من ستة اشهر ، ولا فرق عندى ان يكون المولود

بنتا او ولدا . واذا رزقنا بنتا ، فذلك افضل . وليكن ما يكون ، انى لا اريد لولدى فى المستقبل ان يصبح عاملا . لقد اشتريت ارغنا الكترونيا لطفلنا القادم ، ولا يستعمل الآن لأننى وزوجتى لسنا من هواة الموسيقى . اودعت فى المصرف عدة آلاف من اليوانات . اريد لولدى ان ينال تعليما جامعيا . انا شخصيا لم اتعلم جيدا ، وقد فات الاوان بالنسبة لى . لو اننى حصلت تعليما افضل ، لما ذهبت الى العمل فى الخارج لجمع المال . بتعليم افضل ربما كان بوسعى ان اصبح مديرا ، وعندها سأعمل بحماسة شديدة فى هذا المنصب .

يمكن ان اعمل فى الخارج ثانية لسنة واحدة ، وليس اطول من ذلك . فى السنة الماضية اتيحت لى الفرصة ، لكن المشروع الغى . وعلى اية حال لست قلقا بهذا الشأن ، فلا بأس ان لم تتح لى هذه الفرصة . لقد حصلت على كل ما اريده الآن ، فعندى اشياء جيدة للمشاهدة والاستماع والعزف ، والنقود ليست هامة جدا فى الوقت الحاضر . ما اريد ان افعله هو ان اشاهد العالم . اسرتى لا تكون سعيدة ان خرجت . ابى فى المرة السابقة تأثر كثيرا لابتعادى عنه . خشى ان يحدث حادث للطائرة التى ركبتها . وعندما عدت من الكويت لم اخبره بالموعد المحدد لوصولى حتى لا يقلق . وكانت مفاجأة سعيدة بالنسبة له حين وصلت البيت وحييته .

توقفنا فى تايلاند خلال عودتنا من الكويت . وطلب منا مسؤولونا ان لا نتجول فى الشوارع خشية انزلاقنا الى المواخير .

والحقيقة اننى لو مررت بماخور لما غامرت باقتحامه . بلدنا بات على مشهد منا ، والحمقى هم الذين يبحثون عن هذا النوع من المتاعب .

الجزء السادس

فى الشؤون الاجتماعية

لاى شياو ماو : عامل اعمى

" بالرغم من عماى اتمتع بالحياة . لى اسرة جيدة . احب زوجتي وهى تحبنى ، ولنا ولدان ذكيان وسيمان . "

ان الفقر وسوء العناية الطبية قبل التحرير قد خلفا للصين عددا كبيرا من المعوقين . ففى شانغهاى وحدها التى يبلغ عدد سكانها ١٢ مليون نسمة يصل عدد المكفوفين والصم والبكم وغيرهم من المعوقين الى نصف مليون .

ولاى شياو ماو البالغ من العمر ٤٩ سنة هو واحد من هؤلاء السيئى الحظ .

اصبح يتيما وعمره لا يتجاوز بضعة اشهر . وفى سن الرابعة اصيب بالحصبة ، وفقد بصره لأن جدته الارملة لم تستطع تحمل نفقات العلاج الطبى الملائم له . عاش حياة التشرد الى ان وجدت له اخته عملا عام ١٩٥٩ فى مصنع للمكفوفين بشانغهاى .

منذ ذلك الوقت تحسنت حياته . فبعد التئام شمله بأخته مرت به

سلسلة من الاحداث السعيدة . فقد صنف "عاملا متقدما" ، وتزوج بواحدة من اجمل الفتيات فى مصنعه ، ورزق بطفلين معافيين ، وحصل على علاوة فى الاجر دائمة ، واعطى شقة جديدة .

ان لاى شياو ماو سعيد بحياته خلافا لكثير من الناس الذين يشكون من الحياة . لكن عدم رضائه الرئيسى هو انه اعمى .

عندى شقة بغرفتين وشرفة ، بالاضافة الى المنافع الاخرى . وانا راض بها كل الرضا برغم انها ليست واسعة جدا علينا نحن الاربعة . كثير من الاسر فى شانغهاى شققها اضيق من شقتنا بكثير . كنا بين اول دفعة من العمال فى مصنعنا نحصل على شقق جديدة . ان مشكلة السكن فى هذه المدينة حادة . ففى بعض الحالات تحشر اسرة من ستة افراد وثلاثة اجيال فى غرفة واحدة فقط . فلتوفير المجال يضطرون الى جعل اسرتهم من طابقين .

زوجتى ايضا عمياء ، لكنها من اجمل فتيات مصنعنا حين تزوجتها . والاهم من ذلك انها شديدة المراعاة لى . فى حياتنا الزوجية الممتدة منذ ثلاثة وعشرين عاما لم نتشاجر على الاطلاق . لنا ولد عمره ٢١ سنة وبنت فى التاسعة عشرة . وهما ذكيان ، ويتمتعان لحسن الحظ ببصر سليم . ابنى يعمل موظفا فى مصرف ، وابنتى تعمل فى قسم الاستقبال بفندق ذى خمسة نجوم . وبعملنا نحن الاربعة نعيش حياة مريحة .

لقد مضت طفولتى مثل كابوس . ولدت فى اسرة زراعية فقيرة بمقاطعة شاندونغ .

مات ابى وامى ، وعمرى لم يتجاوز بضعة اشهر . فانتقلت انا واختى الى رعاية جدتى الارملة . حين بلغت الرابعة من عمرى تعرضت لاصابة حادة بالحصبة رافقتها حمى شديدة . وكانت جدتى افقر من ان تستطيع اخذى الى طبيب . وبقيت حيا لكن فقدت البصر . ومن ذلك الحين وانا اعيش فى ظلام دامس .

يبدو حقيقة ان سوء الحظ لا يأتى منفردا ابدا . حين كنت فى الثالثة عشرة ماتت جدتى . واظن انها ماتت من الارهاق دون شك ، فقد كان من الصعب جدا على ارملة فى سنها الكبيرة ان تقوم بتربية حفيديها فى الريف .

وكى تضمن اختى استمرار عيشها ، وكانت اكبر منى بخمس سنوات ، اضطرت الى الزواج من مزارع اعرج غنى عمره ضعف عمرها . وطبعا لم تستطع جلبى للعيش معهما ، فتركت لأتدبر امرى بنفسى .

كان لى عم ، اعمى هو الآخر ، فجاء لانقاذى . كان يزيد عن سن الثلاثين قليلا ، ويغنى ألحان اوبرا محلية . فيكسب معيشته من خلال غنائه فى الشوارع . اخذنى اليه مباشرة ، وعلمنى العزف على ربابة ثلاثية الاوتار لأصحبه فى غنائه .

ورحنا سويا نطوف من مكان الى آخر ، ومعظم الوقت نقضيه فى مقاطعة خنان المجاورة . كانت اغانى الاوبرا التى يغنيها عمى قديمة ، تروى قصص الابطال القدامى . لكن صوته لم يكن قويا . لذلك كنا نعزف فترة ، ونستجدى المستمعين بعدها .

بقيت على هذه الحال سبع سنوات الى ان جاءنى كلام من اختى بأنها ما تزال على قيد الحياة ، وانها تقيم فى شانغهاى ، وتتمنى ان تضمنى اليها .

كان ذلك فى عام ١٩٥٩ حين كنت فى العشرين من عمرى . لقد طلقت من زوجها الاول ، وتزوجت من عامل فى شانغهاى . وحصلت لى على عمل فى مصنع للمكفوفين .

فى مصنعنا اكثر من ٨٠٠ عامل ، نصفهم تقريبا مكفوفون . فالمبصرون من عمال المصنع يقومون بأعمال الصيانة ، ويعملون على الآلات الاساسية ، ويساعدون المكفوفين فى تعلم المهارات المطلوبة .

تنتج ورشتنا الدبابيس النحاسية للمآخذ الكهربائية . وهناك درابزينات بين صفوف الآلات ، وكافة العجلات المسننة والاحزمة وغيرها من الاجزاء المتحركة مغطاة بحيث نستطيع نحن العمال المكفوفين ان نعمل بأمان .

لقد سعدت غاية السعادة بحصولى على عمل لائق يمكننى من ان اعيش حياة مستقلة . لذلك رحت اعمل بجد واجتهاد وتعلمت طريقة بريل فى مدرسة اوقات الفراغ التى يديرها المصنع . وتم اختيارى عاملا نموذجيا عام ١٩٨٣ .

وبعد ذلك بوقت قصير استدعانى مدير المصنع الى مكتبه . وقال لى من كرسيه ذى العجلات (كان معوقا) :

— يا لاى شياو ماو ، لا اريد ان احدثك حول الانتاج ، بل حول شؤونك الشخصية . اريد ان اقدم لك ليو تشياو يون .

انها اجمل فتاة فى مصنعنا .

فقلت :

— هل تسخر منى ايها المدير ؟ لقد سمعت عن ليو تشياو يون . هناك كثير من الشبان الوسيمين المبصرين ينجذبون اليها . انا شاب كفيف ، ولست كفؤا لها .

لكن المدير اصر على اننى ذكى وطيب القلب ، واكد لى ان ليو تشياو يون ستعجب بى . لذلك اصبحت انا وهى صديقين . وبعد ثلاث سنوات تزوجنا . وفيما بعد اخبرتنى زوجتى بأنها كانت تهتم من البداية بايجاد شاب مناسب للزواج منها على ان يكون مبصرا كى يعتنى بها عناية افضل . لكنها ايقنت اننى سأكون زوجا مثاليا .

مجتمعنا يعامل المكفوفين معاملة جيدة . وزملائى فى المصنع يقدمون لى كل عون ممكن . حتى العاملون فى سوق المواد الغذائية يساعدوننى مساعدة كبيرة حين اذهب لشراء اللحم والخضار كل صباح . فدائما ما يختارون لى افضل الخضار واللحوم . وبعض الباعة يصر على عدم انتظارى فى الصف .

وردا على ذلك ابذل دائما اقصى جهدى فى نقل خبرتى الانتاجية الى الآخرين ، ولا ارد اى شخص يأتينى طالبا المساعدة .

انا وزوجتى نكسب ٣٠٠ يوان فى الشهر . وعندنا علاوة اضافية فى نهاية السنة تصل الى عدة مئات من اليوانات . وبهذه النقود يزيد لأربعتنا جزء قليل ندخره فى المصرف بعد شراء طعامنا وكسائنا . ولا ندع ولدينا يشاركان فى النفقات لأننا نريدهما ان

يدخرا النقود لزواجهما .

اقول دائما ان ولدينا قد جاءا الى الدنيا فى الوقت المناسب : فقد حصل ابنى على عمله فى المصرف بعد انهائه الدراسة الثانوية . ويقول الناس بأن ابنتى تشبه امها كثيرا . تخرجت فى مدرسة مهنية تعلمت فيها الانجليزية والفرنسية . وهما يكسبان تقريبا بمقدار ما اكسب انا وزوجتى على الرغم من انهما ما يزالان فى بداية عملهما .

ان سألنى الناس عما اذا كانت لى تذمرات فى الحياة ، فانى اقول بأن هناك تذمرا واحدا بالاضافة الى فقدان بصرى : المدينة شديدة الازدحام وهناك نقص دائم فى بعض السلع ، مما يضطر الحكومة الى اصدار كوبونات تموين للحم والزيت والصابون والبيض وغير ذلك . وهذه الكوبونات المتساوية كلها فى الحجم والسماكة تسبب لنا نحن المكفوفين مشكلات كثيرة .

تشانغ دا كوان : سجان

"آمل ان يذكر السجن اسمى . "

ولد تشانغ دا كوان فى بكين ، وعمره الآن ٥١ سنة ، ويقيم مع زوجته فى شقة سكنية . بوصفه واحدا من الكوادر فى سجن بكين ، (الكادر هنا يقصد به السجان) فانه يساعد آمر السجن فى اكثر المهام صعوبة داخل السجن : انضباط السجين . ان نزلاء السجن البالغ عددهم ألفين مقسمون الى اثنتى عشرة مجموعة . ورئيس كل مجموعة مسؤول عن الانتاج فى مصنع السجن . والمرشد السياسى فى كل مجموعة يضطلع بمهمة اصلاح السجناء ، اى يعمل على اصلاح سلوكهم وتحويلهم الى ملتزمين بالقانون . وتشانغ دا كوان هو المرشد السياسى للمجموعة الخامسة . لقد مضى على عمله فى سجن بكين ست عشرة سنة .

برغم انه فى الخمسين ، وقد شاب شعره ، الا انه ما يزال مفعما بالحيوية ، وعيناه تتقدان . له منكبان عريضان وقامة منتصبة . لكن موقفه من الحياة ومن سجنائه مملوء بالتناقضات .

لا يذهب بك الظن الى اننى دائما لطيف وانيس كما يبدو على الآن . اننى مختلف مع السجناء . اود ان اقول : لا هيبة بلا شدة . ينبغى للكوادر ان لا يظهروا للسجناء دائما بوجوه صارمة . مع ان الكوادر الصارمين هم اناس مصلحون ، والسجناء هم

من يتلقون الاصلاح ، الا ان الكوادر يجب ان يجعلوا السجناء يشعرون بأنهم موضع عناية ومساعدة .

دائما ما افكر فى انه كان من الخطأ دخولى هذا المجال ، لأننى لست فى الاصل مناسبا لهذا العمل . قبل ان ابدأ عملى سجانا كنت اعمل فى مصنع . وفى عام ١٩٦٢ بدأت الشرطة بتجنيد عاملين لما سمى "مهمات خاصة" . فزكانى المصنع للتقدم الى امتحان القبول . قال ابواى بأنه سيكون فى ذلك خطر شديد على ، لكن مدير مصنعى نصحهما بوجوب انتقالى الى هذا العمل ، اذ من واجب اعضاء الحزب ان يخدموا الوطن دون تردد . (انضممت الى الحزب الشيوعى عام ١٩٥٨) . اما بالنسبة لى فكنت ارغب فى عمل يتفق وتخيلى . وكنت واحدا من ثلاثة وقع عليهم الاختيار من بين ٦ آلاف عامل .

لكن من سوء الحظ اننى لم ارسل للتدريب ، ولم اعين فى العمل الذى كنت اريده ، بل عينت بدلا من ذلك للعمل فى مصنع بالقرب من بكين لاصلاح الاحداث الجانحين من خلال العمل .

جميع اجهزة الامن العامة والنيابات العامة والمحاكم الشعبية قد جرى حلها خلال الثورة الثقافية . وارسلت انا وبقية الكوادر فى المصنع الى "اعادة التثقيف" فى مزرعة بمنطقة جبلية . وعملت هناك اربع سنوات قبل ان آتى الى سجن بكين عام ١٩٧٢ . ومنذ ذلك الحين وانا اقوم بعملى الحالى الذى لا احبه لكن لا بد ان اؤديه على خير وجه .

ان السجناء يثيرون الاشمئزاز ، لاسيما ذوو السوابق منهم . لكن بوصفنا كوادر علينا ان نراعيهم ونعاملهم كأننا اهل لهم او اطباء او معلمون . والقيام بذلك على نحو جيد ليس امرا سهلا . وباعتباري مرشد المجموعة يجب ان اتحمل مسؤولياتي بمنتهى الجدية .

وحتى يكون الكوادر صارمين مع السجناء عليهم قبل كل شيء وضع نظام صارم لأنفسهم . في مجموعتي تسعة زملاء يشرفون على ١٤٠ سجينا . والكوادر يعملون بطريقة تعاونية : انهم لا يستطيعون التأثير في السجناء او اصلاحهم ما لم يكونوا متحدين . ودائما ما اقول لأعضاء المجموعة : " بوسعكم ان تتناقشوا نقاشا حادا حول العمل في المكتب ، لكن ليس امام السجناء . "

على الكادر ان يتأكد من التمييز بين الخطأ والصواب ، بين ما يجب ان ينقد وما يجب ان يمتدح . يجب ان يكون صافي الذهن . وعلى العموم ابذل دائما اقصى جهدي في مساعدة السجناء على حل مشكلاتهم ، بشرط ان يكون ذلك في اطار انظمة السجن . والوفاء بالوعود اساس الثقة .

على الكوادر ان يكونوا شديدي الملاحظة . وهذا يمنع وقوع " الحوادث " لأننا نتنبه اليها مسبقا . السجناء كالحطب الجاف الذي تندلع به النار بمجرد شرارة صغيرة . فاذا وقع حادث دموي ، تعرض المرشد لانذار تأديبي . ذات يوم تشاجر سجينان في مجموعتي لأن احدهما خالف النظام بتدخينه في الممر . وهدد احدهما بأنه سيكون له شأن مع الآخر في ذلك المساء .

ولدى سماعى حديثهما ادركت ان الوضع خطير ، فتحدثت مع كليهما ، وتجنبنا بذلك نشوب عراك بينهما .

لكن هناك سجناء من الصعب التعامل معهم . ومعظم هذا النمط من السجناء هم من " اصحاب السوابق " الذين اعتادوا جو السجن واصبحت لديهم خبرة فى مقاومة اساليب " الاصلاح " . ففى مزرعة " الاصلاح من خلال العمل " يسببون للكوادر كثيرا من الهموم والازعاجات . لكن فى السجن لدينا طرق مختلفة للتعامل معهم . فى السنة الماضية مثلا ادخل السجن ثمانية شبان . وقبل مجيئهم الينا اكتشفنا انهم عصابة من المجرمين : فوزعناهم على عدة مجموعات لنحول بذلك دون حدوث اتصال فيما بينهم .

ان مساعدة السجناء تتطلب بالطبع صبرا وحرصا . فحين يجيب السجين الكادر بفظاظة ، على الاخير ان يحتفظ بالهدوء — ربما تصرف السجين هذا التصرف لأنه كان مغتاظا من امر ما فى تلك اللحظة . ان معالجة امور كهذه فى لحظة الغضب قد لا تزيدها الا سوءا . ومن رأيى انه يجب ان نكون حازمين ولكن دون قسوة . اذا انتقدنا السجين انتقادا خاطئا ، ظن الآخرون اننا لا نعاملهم بالاحترام المطلوب .

زوجتى تقول لى دائما بأننى اصبت بـ " مرض المهنة " . فهى تشكو من اننى ارفع صوتى واحملق فى الناس كأنما اقول لهم : " يجب ان تصغوا لى . " ولكن لا اظن ان الامر بهذه الخطورة ، انما اعتبر هذا انذارا .

منذ وجودى هنا فى سجن بكين لم تحدث اضطرابات او

فرار فى مجموعتى ، ولم ينتحر اى من سجنائى . فى السنة الماضية خفضت مدة العقوبة لـ ٢٨ سجينا تخفيضا تراوح ما بين نصف سنة الى ثلاث سنوات . وتخفيف الاحكام يعتمد على التقارير التى يقدمها مسؤولو المجموعات الى دائرة الاصلاح فى بكين . وبسبب هذا يخشانى السجناء ويحترموننى .

اصبح السجناء يتمتعون بمزيد من الحرية منذ عام ١٩٨٠ . فى الماضى لم يكونوا يقومون الا بالدراسة السياسية والعمل الجسمانى . اما الآن فبامكانهم مشاهدة التلفزيون ثلاثة ليال فى الاسبوع ، ويشاهدون الافلام السينمائية فى باحة السجن صيفا . وفى العطل نسمح احيانا للشبان المتزوجين من السجناء بالعودة الى بيوتهم يوما او يومين . ويزود السجن السجناء ايضا بفرص للدراسة والعمل اما فى مصنع البلاستيك واما فى الصفوف الدراسية . والسجناء المهرة يمكن ان يصبحوا معلمين .

اصعب الكوادر عملا اولئك الذين يعملون فى المجموعات ، خلافا للذين يعملون فى المكاتب . فبالنسبة لى انهض فى الساعة الخامسة والنصف صباحا ، فأجرى التفقد للسجناء ، ثم آخذهم الى العمل . وخلال النهار اقوم بجولة تفتيشية فى الممرات ، واتحدث مع السجناء فى اوقات فراغهم ، او اجتمع بزملائى . اعود الى البيت فى العاشرة مساء . لقد امضيت كثيرا من اعياد الربيع وانا على رأس عملى ، فلا اذكر كم عددها . وقد ألفت عملى ، فلا اجده مملا .

زوجتى تقاعدت . واولادى الثلاثة تزوجوا ، وانتقلوا من البيت .

ولا حاجة بى الى القلق عليهم ابدا ، وبوسعى ان اخصص طاقتى كلها للعمل . لكن زوجتى تشكو احيانا : " يجب ان لا تعمل فى سجن . تخرج باكرا وتعود متأخرا ، وتتركنى وحيدة فى البيت لا اجد من اكلمه . " وبرغم تذمرها لا تحاول ابدا ان تصدنى عن عملى .

ومع ذلك لا يجرى كل شيء كما اريد . فالمسؤولون الكبار هنا صارمون جدا ، ولا يحبون ان يفعل الكوادر اشياء بمبادرة خاصة منهم . وانا لا احب العمل بهذه الطريقة . اننى دائما افعل ما اريد ، ولا اعترف بأسبقيتهم . واكثر من هذا احب ان اتكلم بصراحة واطلق لسانى ، الامر الذى يترك فى نفوسهم انطباعا بأننى ازدريهم . لذلك يعتقدون بأن من الصعب ان اتقبل قيادتهم . وفى التقدير السنوى " للعامل المتقدم " (نظام يتبع فى الصين عادة لتكريم العمال) دائما ما استبعد فى الجولات النهائية برغم ان كثيرا من الناس يرشحوننى . فلا آخذ الامور بجدية . ولا يهمنى كثيرا حظيت بهذا التكريم ام لم احظ . سأكون سعيدا ما دمت ابذل جهدى فى اداء عملى اداء جيدا .

مضى على فى العمل مرشدا سياسيا ما يقرب من خمس عشرة سنة . وخلال هذا الوقت الطويل لم احصل على ترقية . ذلك لأنى ولدت فى اسرة عامل ولم احصل التعليم الثانوى الرسمى . والذين تمت ترقيتهم الى مناصب القيادة فى هذه الايام هم من الشباب . وكذلك راتبى لم يرفع منذ عشرين سنة : ما يزال ١١٠ يوانات شهريا (٣٠ دولارا امريكيا) . وقد ترى فى ذلك خيبة

امل كبيرة بالنسبة لى . لكن بمقارنة ذلك الى نفيى عام ١٩٦٨
اجده شيئا عظيما . فى ذلك الوقت عملت فى مزرعة بعيدة عن
بكين تاركا زوجتى وطفلى البالغ من العمر سنة واحدة . فكانا
فى حالة سيئة للغاية . ولم يكن يسمح لنا بالعودة الى البيت حينذاك .
ولكننى كثيرا ما كنت اعرض نفسى للعقوبة ، فأركب الدراجة
اكثر من ٢٠ كم عائدا من المزرعة الى البيت بعد انتهاء العمل
كل يوم ، ثم اعود فى الصباح التالى . من المؤكد اننى كنت
اتعرض لنقد عام من مسؤولى المزرعة . واضافة الى معاناتى من
الارهاق الجسمى معظم الوقت كنت اعانى ايضا من توتر ذهنى .
كنا نعامل حينذاك على اننا من " العناصر الشريرة الخمسة "
— وهم ملاك الاراضى ، والفلاحون الاغنياء ، والمعادون للثورة ،
والعناصر السيئة ، واليمينيون — تماما كأننا سجناء . وهذه كانت
ازمتى الوحيدة .

فلسفتى فى الحياة هى تجنب ارتكاب الاخطاء ، وهذا اهم
من تحقيق قدر كبير من المنجزات .

احيانا احب ان ادخل بعض الافكار الجديدة على العمل .
فقد اقترحت مرة للمجموعة نظاما من مئة نقطة بغية تسهيل ضبط
السجناء . وقد وضعت النقاط وفقا لسلوك السجناء فى العمل ونوعية
انتاجهم ومهماتهم اليومية الروتينية . وقد ادى هذا النظام نتائج
جيدة . وقدمت تقريرا الى سلطات السجن اطلب تعميم هذا
النظام ، لكنهم اهملوا تقريرى هذا . وسمع سجن مقاطعة
تشجيانغ بهذا النظام فطبقه ، وحظى بثناء وزارة العدل . لقد

تأسفت طبعا لعدم اهتمام السلطات هنا بذلك .

ما الذى يجعلنى فى غاية السعادة ؟ ذلك حين اعلم ان سجينا من مجموعتى يقدم اسهاما للمجتمع بعد خروجه من السجن . ما بوه تشونغ واحد من السجناء السابقين فى مجموعتى ، غادر السجن عام ١٩٨٢ . وهو الآن مدير لمصنع غلايات فى بكين ، وله علاقات تجارية بمصنع السجن .

حياتى الآن مريحة ، وكذلك عملى . عندى حديقة صغيرة فى السجن يعتنى بها احد السجناء . فى وقت فراغى ألعب كرة التنس والشطرنج . وقبل عدة سنوات فزت بالمرتبة الثالثة فى مباراة التنس التى اقامتها دائرة الاصلاح فى بكين . ما زال امامى بضع سنوات للتقاعد ، لكنى لم افكر بعد فيما سأفعله حينذاك . الشئ الوحيد الذى ارجوه الآن هو ان لا اخطئ فى عملى خلال السنوات الباقية . وهل من شئ آخر ؟ آمل ان يذكر السجن اسمى .

ما تشي شين : سجين

" لا يهمني ما يكون رأى الناس بى ، بل اهم شيء ان اكون مستقيما ، واكسب معيشتى بنفسى . "

فى الجنوب الغربى من بكين سجن مضى على انشائه سبع وسبعون سنة . وقد اعاد اليابانيون بناءه خلال الحرب العالمية الثانية . ويتكون الآن من ثلاثة مبان برجية ، تبدو من الاعلى على شكل مراوح . وفوق القاعة المركزية الرئيسية ينتصب برج حراسة ، وعلى جانبى القاعة ممران فيهما غرف السجناء . ولكل قاعة ابواب كثيرة ، لكن ليس لها الا مخرج واحد . فمن السهل دخولها ، لكن من الصعب الخروج منها .

يضم السجن ألفى سجين تقريبا ، يبلغ معدل احكامهم عشر سنوات . والسجناء فيه مقسمون الى اثنتى عشرة مجموعة ليظلوا بذلك تحت السيطرة المشددة . وفى السجن مصنع للبلاستيك وآخر للاحذية يعمل فيهما السجناء .

عمر ما تشى شين ٣١ سنة ، من مواليد بكين . وهو واحد من ١٤٠ سجينا فى المجموعة الخامسة . حكم عليه بالسجن مدى الحياة لارتكابه عددا من الجرائم من بينها محاولة اغتصاب . ولقاء حسن سلوكه فى السجن خفض حكمه ثلاث مرات ، لكن ما تزال امامه ثمانى سنوات . يرتدى بذلة سجن سوداء ، ويضع على رأسه قبعة سوداء كذلك . انه نحيف ، لكن تورد بشرته يظهره فى تمام الصحة والعافية .

فى بداية مجيئى الى السجن سألنى الكوادر (يشار بهم الى

سجانين) عن سبب ارتكابى جرائمى . حتى اليوم اخشى ان لا استطيع تلخيص الاسباب بسهولة .

اتذكر ان ابوى انفصلا بالطلاق وانا فى السادسة من عمرى . وبعد الطلاق اخذ ابى اخى الصغير ، وذهبت انا مع امى لنعيش مع جدتى . وغيرت امى اسم اسرتى الى " ما " وفقا لاسم اسرتها . وغيرت اسمى الاول الى " تشى شين " ، بمعنى ان مستقبلى سيكون واعدا ، واننى سأجتمع بأخى كذلك .

بعد اربع سنوات تزوجت امى ثانية . وبقيت زمنا طويلا مع جدتى التى قامت على تربيتى . كنت حينذاك شغوفا بمطالعة الكتب ، ولاسيما الروايات سواء كانت مناسبة لى ام غير مناسبة . ومن بين هذه الروايات الرواية الكلاسيكية الخليعة « باغودا الحب» . وكانت جدتى تحذرنى من قراءة هذا النوع من الكتب ، لكنها كانت امية .

كان لهذه الكتب تأثير مباشر فى سلوكى ، وقد ساقتنى على ما اعتقد الى انتهاك القانون . اعجبت بحياة الشخصيات السيئة فى الروايات . وكنت اقول لنفسى دائما بأنه سيكون رائعا ان اعيش هذا النمط من الحياة . وتعرفت على انواع سيئة من الاولاد خارج المدرسة ، وبدأت اسرق قطعا من الدراجات او الآلات . لكنى لم استطع ان اثبت لنظرائى اننى قادر بجهدى الشخصى على تحصيل النقود وشراء السجاير ، لذلك بدأت اسرق محافظ النقود فى الباصات .

وألقى القبض على متلبسا باحدى جرائم السرقة فى الباص

وانا فى سن الرابعة عشرة . فاحتجزتنى الشرطة مدة يوم ، ثم اطلقت سراحى . ذهلت امى عند سماعها هذا الخبر واضطربت كثيرا . ففى رأيها اننى تصرفت خلافا لمشيئتها بدلاً من ان اجلب لها السمعة الحسنة . ولم تحاول لجنة الحى السكنى مساعدتى ، بل قامت بنقدى وشجبى فى اجتماع عام . وبعد ذلك اصبحت عجائز اللجنة يترددن الى بيتى للتفتيش بخصوصى تحت حجة التفتيش الصحى فى الشقة . وواصلن مراقبتى كأنما انا اكثر الاولاد ازعاجا فى الحى . وراح المعلمون يعاملوننى بارتياب ، وزملاء الصف يسخرون منى .

عدت الى سرقة النقود من جديد . وامضيت اربع سنوات على هذا المنوال الى ان قبض على ثانية فى حى تشيانمن بوسط بكين . استوقفنى رجال الشرطة نصف يوم فى الحجز قبل اطلاق سراحى . وحيث لا هاتف فى بيتى ، فانهم استدعوا لجنة الحى التى تباطأت عمدا فى تبليغ امى . ولما لم يأت احد لاستلامى ، ارسلنى مخفر الشرطة الى مركز الشرطة الرئيسى . وهناك بحثوا فى سوابقى . ونتيجة لذلك نقلت الى مزرعة داشينغ بالقرب من بكين من اجل "اعادة تثقيفى" (تثقيف الجانحين الاحداث عبر العمل الجسمانى) .

هناك التقيت حثالة المجتمع ، من بينهم العمال الكسالى الذين يخرجون الى المطاعم دائما بعد انتهاء العمل . ولم تكن المزرعة تغلق .

حسدتهم على نقودهم ، وحاولت ان احصل على بعض

النقود لنفسى . ورحت اكثر من ترك المزرعة لأرتكب جرائم فى القرى المجاورة ، واسرق حاجات المزارعين وابيعها ، او اهاجم النساء ، دون ان يكتشف امرى . وذات يوم حاولت اغتصاب امرأة ، لكنها نجحت فى التغلب على .

بعد ان استجوبنى رجال الشرطة وجدونى مسؤولا عن عدة جرائم . فأخذت الى محافظة داشينغ ، وحوكمت على الملأ . استشاط الفلاحون هناك غضبا ، وهموا بضربى حتى الموت ، لكن الشرطة منعتهم . وحكم على بالسجن مدى الحياة ، وكنت يومها فى التاسعة عشرة .

عندما تلقيت حكم المحكمة صدمت لسلوكى السيئ . لم تكن عندى فكرة واضحة حول مغبة انتهاك القانون ، لذلك لم يخطر ببالى قط ان انتهى هذه النهاية . . لكن فات الاوان . وكان اول شيء فعلته لدى وصولى السجن توضيح الاسباب التى دفعتنى الى ارتكاب جرائمى (هذا تم بطلب من الكوادر) . لكن كبقية السجناء شكوت من ان المحكمة قد جارت على فى الحكم ، وحرصت على استئناف الحكم . وفى السجن يعتبر المتقدمون بطلبات استئناف متمردين . لذلك اقتنعت بقبول الحكم . وعملت فى البداية مصلحا للآلات فى مصنع البلاستيك داخل السجن .

فى السنة الثانية من سجنى عام ١٩٧٩ كانت الحكومة فى الصين تراجع الاتهامات غير العادلة التى ألصقت بالناس خلال الثورة الثقافية . فراح السجناء يتقدمون بطلبات استئنافهم واحدا بعد الآخر . وتقدمت بطلبى ثلاث مرات الى المحاكم

الشعبية المتوسطة والعليا ، فكانت هذه المحاكم تقرر فى كل مرة ان طلبى " غير معقول " ، فيزعجنى ذلك ازعاجا شديدا . وبدأت اعمل بأسلوب متهور ، وتعمدت ان اظل دائما شارد الذهن . وتسببت فى وقوع ثلاث حوادث عمل متتابعة نتيجة اهمالى . واصبح انتاجى اسوأ من اى انتاج آخر . واعتبرونى حينذاك اكثر العمال اهمالا وخطورة .

حتى ذلك الوقت لم يعاقبنى الكوادر عقوبة صارمة اذ ادركوا انى متهور سريع الغضب . وخيرونى بين ثلاثة انواع اخرى من العمل . فأثر فى لطفهم تأثيرا شديدا . واخترت عمل براد اعتقادا منى بأنه قد ينفع فى المستقبل .

بقيت وقتا طويلا بعد دخولى السجن لا ارى امى ، ولم يحدث ان جرى بيننا اتصال ولو برسالة ، فقد كنت اخجل من رؤيتها . وكان الكوادر يجدوننى جالسا وحدى خلال وقت الزيارة التى كانت تتم مرة كل شهر . فأقنعوا امى بأن تحسن ثقتها بى . وفيما بعد اصبح كل من امى وابى يأتى لزيارتى من حين لآخر .

بعد ان امضيت ستة اشهر فى عملى الجديد عينت رئيس مجموعة فى الورشة . وقال احد الكوادر بأن هذه فرصة جيدة لى لاصلاح نفسى حيث اننى ما زلت صغيرا ومدة حكمى طويلة . وفى الوقت نفسه اعادت دائرة الاصلاح فى بكين النظر فى قضيتى ، ووافقت على تبديل الحكم الى ثمانى عشرة سنة .

هذا اعطانى المزيد من الامل فى الخروج من السجن اخيرا ،

وبدأت استعد لمستقبلى . وذات يوم قرأت فى صحيفة انه ستجرى فى الجامعة دورة جديدة للدراسة الذاتية . فانتسبت اليها باسم اخى خوفا من ان ارفض . والجامعة ارسلت جميع المواد الى بيتى ، وامى قامت بنقلها الى .

بعدها بدأت ادارة السجن تشجعنى فى دراستى . والجامعة ايضا اولتنى عناية خاصة . فقدمت الامتحان فى السجن ، ونجحت فى جميع المواد ، وحصلت على شهادة . لكن هذه الشهادة لسوء الحظ لم تساو شيئا لأن الجامعة لم تكن حاصلة على اعتراف من لجنة الدولة للتربية والتعليم .

لكننى واصلت الدراسة . ومنذ عام ١٩٨٦ اصبحت لجنة الدولة للتربية والتعليم تسمح لأى فرد بالاشتراك فى الامتحانات من اجل الحصول على درجة اعلى عبر الدراسة الذاتية . وافتتح السجن صفا خاصا بالسجناء ، ويأتى مدرسو الكليات للتدريس فيه . وقد نجحت حتى الآن فى مادة المنطق والتاريخ الصينى وتاريخ الحزب الشيوعى الصينى . واخطط لاجتياز الامتحانات العشرة كلها .

لقد تحسن سلوكى كثيرا منذ ان بدلت اعمالى . لكننى لم استطع تجنب بعض النكسات . فقد حدث مثلا ان صادفت يوما سجينا كان فى مزرعة داشينغ . فتبادلنا بضع كلمات فى الممر . ورآنا كادر نتحدث فحذرنى من تكرار ذلك ثانية لأن انظمة السجن تنص على عدم السماح للسجناء بالتحدث مع بعضهم بعضا اذا كانوا من مجموعات مختلفة (ذلك لأن السجناء

مقسمون الى مجموعات بهدف منع استمرار الروابط الاجرامية السابقة) فقلت لهذا الكادر :

– لا بد ان تظل للانسان مشاعره اينما كان . هل اخطأت فى تصرفى ؟

ورحت اتجادل انا والكادر ، وكاد الامر ينتهى بيننا الى عراك . ونتيجة لذلك قيدت ، وطلب منى ان اجرى " النقد الذاتى " يوما بكامله .

طبعا ليس كل سجين يتقيد بالانظمة ويسلك سلوكا حسنا . فبعضهم تتاح له محاولة بناء نفسه من خلال التحدث للكوادر عن الآخرين فى غيابهم . لكن امثال هؤلاء السجناء تقل فرص دعمهم شيئا فشيئا ، لاسيما ان الكوادر مدركون طبيعة هذه التكتيكات .

ان لنا ، نحن السجناء ، تنظيمنا الخاص : لجنة ذوى الفعالية الاصلاحية . وجميع اعضاء هذه اللجنة سجناء ينتخبهم بقية السجناء بموافقة الكوادر لمدة سنة . وتنقسم اللجنة الى اربع مجموعات تساعد الكوادر فى ترتيب معيشة السجناء اليومية وفى الدراسة والعمل . وانا واحد من رؤساء المجموعات ، مسؤول عن القراءة .

نعمل ثمانى ساعات فى اليوم . وعندنا فى الاسبوع امسيتان للدراسة السياسية وثلاث اخرى للدراسة الثقافية . ويسمح لنا بنشاطات الترفيه مساء الاربعاء والسبت وفى الآحاد ، وفى بعض العطل ، مثل عيد الربيع ، تدعى اسر السجناء ليشتركوا مع السجناء فى حفلات شاى او فى اعداد الجاوتسى سويا ..

لكونى رئيس مجموعتين اواجه صعوبة فى ايجاد وقت للدراسة ما عدا يوم الاحد وساعة كل مساء بعد العشاء . ليس من الفخر طبعا ان اكون سجينا ، لكن السجن غيرنى تغييرا جيدا . فقد تعلمت بعض المهارات هنا . فى سبتمبر ١٩٨٦ اشتركت فى الامتحانات التى اجراها مصنع البلاستيك . فنلت الدرجة الرابعة ، وهى خطوة تمهيدية كى اصبح بعدها "سجينا مؤهلا" ، كما تخولنى تقاضى ثلاثة يوانات شهريا مصروف جيب . وفوق ذلك احصل على علاوة من المصنع يصل معدلها الى سبعة يوانات . وامى احيانا تعطينى نقودا لشراء الكتب .

لقد تم تخفيض حكمى مرتين بعد ان بدل الى ثمانى عشرة سنة عام ١٩٨١ ، فبقى امامى ثمانى سنوات للخروج من السجن . يقول الكوادر ان بوسعنا التعجيل فى خروجنا "معتمدين على انفسنا" . بالنسبة لى لم يفت الاوان على اصلاحى وتحولى الى مواطن صالح . لقد حدثت تغيرات كبيرة فى البلاد . ويصعب على ان اتنبأ بما سيحدث فى المستقبل ، لكن المعرفة والمهارات المهنية تظل الاكثر طلبا على اية حال ، وهذا ما اكافح من اجله .

قيل لى ان بعض السجناء يجد صعوبة فى الحصول على عمل بعد الخروج من السجن لتميزه بماضية ، فلا اعتقد بأنى سأواجه مشكلة كهذه . ربما مررت فى تجارب اكثر مما ينبغى . اننى لا اهتم بما سيكون رأى الناس بى ، بل اهم شيء لدى ان "اكون مستقيما" واكسب معيشتى بنفسى . فى ذهنى مخطط لانشاء

معمل خاص بعد خروجي ، اعمل فيه ما اقوم بعمله الآن .
امي محزونة دائما بسببي ، لكنها ما تزال متفائلة بشأني . لقد
اعدت كل شيء لورشتي المنزلية مستقبلا . فمن اجلها هي على
الاقل ارغب في ان اكون صالحا .

فعلا ، ليس هناك ما افخر به في سنواتي العشرين الماضية .
والشيء الوحيد الذي يستحق التذكر هو المدرسة الابتدائية ووقت
دخولي مدرسة اللغات الاجنبية في بكين ، والتي اغلقت خلال
الثورة الثقافية فور قبولي فيها . ولو ان اضطرابات الستينات
لم تحدث ، ودخلت يومها تلك المدرسة ، لكان من المحتمل
ان لا تجدني الآن في السجن .

الجزء السابع

فى البحر والنهر

شيه تشان سان : بحار

"سفننا دائما ما تنخدع لدى تعاملها مع الزبائن الاجانب ."

ان شيه تشان سان البالغ من العمر ٥٢ سنة واحد من الخبراء النادرين الذين ما زالوا يبحرون على متن عابرات المحيطات الدولية . انه يعمل ملاحا فى الشركة الصينية للشحن عبر المحيط منذ تأسيس هذه الشركة تقريبا ، قبل سبع وعشرين سنة . تستخدم هذه الشركة التى تديرها الدولة ٣٨ الف ملاح يعملون على سبعة وثلاثين طريقا دوليا .

وشيه خريج جامعى ، ورجل مخلص فى عمله ونشيط ، يفكر ويعمل بطريقة تختلف عن جيل الشباب من الملاحين . زوجته تدرس فى مدرسة متوسطة . وعندهما ولدان .

اننى كبير مهندسين . والناس الذين فى سنى نادرا ما يعملون فى السفن هذه الايام ، انما انا حالة استثنائية . من حسن الحظ

ان صحتى جيدة ، واننى متعود العمل على ظهر السفن . اما من حيث الجهد العضلى فليست هناك مشكلة . انظر الى عضلاتى ، اننى قوى كالحصان . بعض الناس يظننى اصغر من سنى ، فيقول بأننى على الاكثر فى اوائل الاربعينات .

بعض الناس يعتقد بأن الحياة فى البحر مملة ، ولكن ليس عندى وقت امل فيه . ألبس بدلة المرجل اربعا وعشرين ساعة فى اليوم ، ألبسها حتى فى النوم .

لماذا ؟ نحن نعمل بالآلات وانابيب النفط ، ونظل عرضة للاوساخ طيلة الوقت . النوبة قدرها اربع ساعات ، ومعيار عمل المهندسين اثنتا عشرة ساعة فى اليوم . اما انا فليس لى معيار عمل محدد منذ اصبحت كبير مهندسين . وان كانت هناك مشكلة ، فأنا الذى اتولى حلها . الشبان اليوم يلجأون الى حتى اذا كانت المشكلة بسيطة جدا . واذا لم اعالجها لهم ، بقيت المشكلة قائمة دون حل .

غرفة المحركات فى قعر السفينة . فلا يمكنك ان ترى مكان عملنا من الخارج لأن متن المركب فوقنا . عندنا محركان رئيسيان . واحد يدفع السفينة ، والآخر يولد الكهرباء . فالجو يصبح شديد الحرارة حيث نعمل ، اذ تتراوح الحرارة بين ٤٠ و٥٠ درجة . واذكر مرة اننى لم اعد اقوى على الصعود الى حجيرتى بعد ان تسلقت الى ظهر السفينة . فاستلقيت هناك عدة ساعات قبل بدء النوبة التالية .

الظروف اليوم تحسنت تحسنا كبيرا جدا بالقياس الى الماضى .

فمعظم السفن مزودة بأجهزة اوتوماتيكية توفر الكثير من الجهد العضلى . كل ما هو مطلوب منا اليوم ان نضغط ازرارا . فى الماضى كان الفرن يوقد بالفحم بدل النفط ، وكنا نجرف الفحم بالمجارف .

دخلت هذه الشركة عام ١٩٦٢ ، بعد ست سنوات من تخرجى ، وكان قد مضى على بدئها العمل ما يقرب من سنة . وكان لدينا اذذاك عدة سفن قديمة جدا . وهذه السفن القديمة ، كأصدقائى القدامى ، قد كفت عن العمل . وجميع اصدقائى القدامى تقاعدوا .

عملت فى كافة انواع السفن : سفن الركاب ، وناقلات النفط ، وسفن الشحن ، وسفن الصهاريج . ومن الصعب ان احصى عدد الاماكن التى زرتها . فباستثناء كندا واستراليا وجنوب افريقيا وتايوان هناك قليل من البلدان او الاماكن فى العالم لم ازر موانئها .

اتذكر اول مرة دخلت فيها البحر . كان ذلك فى بحر الصين الجنوبى . ويومها عانيت من دوار البحر معاناة شديدة ، وبقيت لا استطيع تناول الطعام ثلاثة ايام . وطبعا لا بد للمرء اخيرا من ان يباشر العمل . فتغلبت على هذا الدوار — اول واشد مشكلة يواجهها البحارة . دائما ما اقول للشبان ان الرحلة البحرية الاولى هى اهم رحلة . بمجرد ان تتغلب على النوبة الاولى من الدوار ، فانك لن تعانى كثيرا فى المرة الثانية .

انظر ، اننى لم اصب بهذا المرض ثانية . وكلها مسألة ارادة . الشبان لا يصدقوننى . احد اصدقائى ظل ممتنعا عن الاكل

والشرب سبعة ايام ، ولكنه مع ذلك ما زال حيا ، ولا اقول ذلك مازحا .

كل واحد تقريبا يعاني من دوار البحر فى البداية . حين يصاب المرء بهذا الدوار يشعر بالغثيان ويتقيأ . وان هو لم يأكل كان وضعه اشد سوءا ، اذ يتقيأ الصفراء والدم . والشبان يحسدوننا نحن البحارة المتمرسين على استمرار شهيتنا للطعام بغض النظر عن ارتفاع الامواج . احيانا لا احد يعد الطعام لأن الطهاة انفسهم مصابون بالدوار . فنتناول فى هذه الحالة المعلبات ونشرب البيرا . وكلما اشتدت الرياح ازددنا اكلا . والكثير يصابون بآلام دائمة فى المعدة وبالارق ايضا ، لكن لحسن الحظ لم اصب بشيء من هذا قط .

انني مشغول دائما بالعمل . تزوجت منذ اكثر من عشرين سنة ، لكنني لم ابق فى البيت اكثر من ثلاثة اشهر فى السنة . وآخرون يستريحون فى بيوتهم هذه المدة بعد امضائهم فى البحر اقل من عشرة اشهر . وغالبا ما امكث على متن السفن سنة او سنتين متواصلتين . فأستريح على الشاطئ شهرا ثم اعود الى البحر ثانية حالما اتلقى برقية . ومنذ سنوات طويلة قلما امضيت العطلة مع اسرتي .

مرة تلقيت برقية فى اليوم الثاني من عيد الربيع ، فغادرت على الفور . احزر ماذا قالوا عندما وصلت الى هناك . قالوا : " عرفنا انك ستأتي . لقد اتصلنا بثلاثة اشخاص قبل ان ندعوك . فرفضوا جميعا ، لكننا ادركنا انك ستأتي . "

دعنى اوضح الامر على النحو التالى : اذا لم تكن هناك حالة طارئة ، فلن يستقدمنى مسؤولى .

استطيع ان اكتب تقارير بالانجليزية ، كما استطيع التحدث بها مع الاجانب . وربما يكون هذا هو السبب فى انهم يجعلوننى مع الربابنة الشبان الذين لم يتقنوا عملهم بعد . كثيرا ما اعمل مترجما ، ويستشيرنى الربابنة فى كل امر ، بما فى ذلك اختيار المكان الذى نرسو فيه .

لا ضرر فى ان اقوم بعمل اكثر من الآخرين . ان لم اقم انا به ، فلا بد ان يؤديه شخص آخر . اننى محظوظ تماما اذا ألقيت نظرة الى ماضى . درست هندسة السفن فى الكلية ، واخذت اعمل فى هذه المهنة منذ تخرجت ، واظل فيها حتى خلال سنوات الاضطراب العشر للثورة الثقافية . فنحن والجيش استثنينا من الاشتراك فى الصراع الطبقى . قمت بالعمل الجسمانى مدة سنتين فقط ، وذلك حين كنت فى الكلية . سنة عملت فيها بجنى محصول الملفوف الصينى ، والسنة الاخرى امضيتها فى مصنع للحديد والفولاذ . هل سمعت حول القفزة الكبرى الى الامام التى عمت البلاد عام ١٩٥٨ ؟ لذلك قمت ، مدة سنتين فقط ، بأعمال لا علاقة لها بمهنتى . احد اصدقائى اصبح طباخا مع ان اختصاصه هندسة السفن . كثير من الناس اكرهوا على تغيير مهنتهم او امروا بالعمل الجسمانى فى مزرعة الاصلاح خلال الثورة الثقافية . وبالمقارنة اليهم ليس عندى ما اشكو منه .

نقلت للعمل فى مركز القيادة فترة من الوقت ، لكننى طلبت

العودة الى السفينة لعدم تمكنى من التلاؤم مع العمل هناك . لم استطع الانسجام مع الآخرين . لقد تعودت الحياة الهادئة فى البحر . اما الجلوس فى المكتب ، وتدخين سيجارة مع الشاى ، وقراءة الصحف لقتل الوقت ، كل ذلك جعلنى اشعر بعدم الارتياح .

رؤساء الشركة جميعهم يعرفوننى . فقد عملوا معى او تحت اشرافى . لكننى لا اعرف مسؤولى المباشر . ليس لى علاقات خاصة بهم ، ولم اقدم لأى منهم هدية قط . لذلك اظل فى السفن القديمة . هناك حسنة واحدة . كل من يعملون على السفينة اناس مثلى ، وليس لهم علاقات خاصة بالمسؤولين ولكنهم يتميزون بالمهارة الفنية الحقيقية . ونحن منسجمون فيما بيننا خير انسجام .

هناك قول : " الشبان للسفن الجديدة ، والمسنون للسفن القديمة . " ليس غريبا ان يرغب كثير من الملاحين فى تغيير عملهم . الناس فى هذه الايام نفعيون . ذات مرة رأيت شابا يصل الى الميناء ومعه امتعته . ولدى رؤيته سفينة قديمة انكفأ عائدا دون ان ينبس بكلمة .

اننا نتقاضى اجورا على عملنا اقل مما نستحق . فكبير المهندسين الاجنبى يتقاضى ما يقرب من ١٥٠٠ دولار امريكى شهريا . والقبطان الاجنبى يحصل اكثر مما يأخذه بحارة السفينة مجتمعين . وهم لا يمضون حياتهم فى البحر ايضا . انهم يوقعون عقودا مع شركاتهم . وبمجرد ان يكسبوا ما يكفى من النقود يتركون العمل . سمعت ان البحار فى بريطانيا اذا امضى فى البحر اكثر من ستة اشهر ، فلن يكون مسؤولا عن اية خسارة يتسبب

فى حدوثها فى البحر . اما نحن فوظيفتنا مؤبدة . بمجرد ان يتم تعييننا فى الشركة يتعذر علينا تركها . وهذا هو السبب فى ان كثيرا من الناس يتأخرون عن الذهاب الى البحر او حتى يرفضون الذهاب . فيبتون فى بيوتهم ، يمارسون عملا آخر ، ويكسبون نقودا كثيرة .

كثير ممن يأتون للعمل فى البحر يفضلون العمل على سفن اجنبية لارتفاع الاجور فيها . لكن بعد ثلاثة اشهر تقريبا يتركون العمل عليها ، اما لقيام مسؤوليهم الاجانب بطردهم فى حالة غضب ، واما لادراكهم انهم لن يستطيعوا تحمل التعايش معهم . ان العمل على سفننا اسهل بكثير من العمل على السفن الاجنبية . فعلى السفن الاجنبية يعملون ثمانى ساعات فى اليوم ، وعلى سفننا ليس اكثر من ساعتين . عملت على سفينة امريكية ستة عشر شهرا ، وهى اطول مدة فى شركتنا . ارباب العمل الاجانب يعرفون كيف يجمعون المال . فبرغم ان هذه السفينة الامريكية سفينة قديمة ، الا ان صاحبها لم يرسلها للاصلاح طيلة ثلاث سنوات . كل سنة يخصص ٢٥٠ الف دولار للصيانة ويترك الباقى لبحارته ، ليس مثلنا نحن الذين نتفحص سفننا ونصلحها كلما دخلنا الرصيف ، منفقين فى ذلك من ٥٠٠ الف الى مليون يوان فى كل مرة .

اخيرا طلب الامريكان منى ان ابيع لهم السفينة ، ورغبوا فى تجديد عقدى وحدى ، اما الآخرون فبوسعهم المغادرة . وارادوا منى ان ادرب مجموعة من الفيليبيين . لكن زوجتى لم تؤيدنى فى ذلك ، حيث مضى على ابتعادى عن البيت اكثر من سنة .

يقول الناس بأن البحارة افضل من غيرهم ، لكننى لست

كذلك : ما زلنا نعيش فى شقة تتكون من غرفة ونصف الغرفة . انا اكبر اخوتى واخواتى الستة ، وكان على ان اعيلهم وهم صغار ، ولكل منا انا وزوجتى والدان نعتنى بهما . لقد كانت حياتنا فى الماضى صعبة حقا . لم اشتر الا ساعة وكاميرا ومسجلة لأسرتى ، ولم استطع شراء تلفزيون . ابننا الكبير يدرس فى الكلية ليصبح فيما بعد بحارا . انه يريد ان يحذو حذوى .

نادرا ما انفق نقودا . فأنا لا ادخن ، واشرب فى المناسبات . اسلم زوجتى كل النقود . اعتقد بأنه كلما ازدادت النقود فى يد المرء ، ازدادت طلباته ، فليس هناك حدود . ما دام معنا ما يكفى من النقود لمعيشتنا ، فهذا جيد .

سفننا دائما ما تنخدع لدى تعاملها مع الزبائن الاجانب ، ذلك لأن بعض الربابنة لا يجيد التجارة ولغته الانجليزية بائسة ، وعليه فانه لا يحس حين يخدع . اننى لا اخشى تسوية الخلافات مع الزبائن فى المحكمة لأننى متأكد من كسبى الدعوى . والا لن اذهب الى المحكمة . لقد كسبت فى المرة الماضية ، ومع ذلك لم يعلق احد حينذاك . اما لو خسرت ، فسأتعرض للنقد من جميع العاملين فى الشركة . وسيقولون : " جلبت لنفسك المتاعب ! "

ماذا عن التقاعد ؟ من المفروض ان نتقاعد فى سن الخامسة والخمسين ، لكننى ارى اناسا تجاوزوا هذه السن وما زالوا يعملون ، ولم ار وثيقة فى الشركة تنص على ذلك . صحتى جيدة ، لذلك سأتابع عملى وارى ما يحدث .

تشن كه شيونغ : ربان على نهر اليانغتسى

" لقد بدل النهر شخصيتى ، فحتى أكثر الناس اضطرابا سيغدو شخصا هادئا بعد ابحاره فى اليانغتسى سنين طويلة . "

كان يأكل سمكا كثير الحسك عندما التقينا فى قمرته على السفينة جيانغيوى رقم ٢ ، ويرتدى جاكيتا محشوة بالقطن فيها عدة ثقوب لم ترقع بعد . لا يبدو عليه ابدا أنه ربان سفينة تبحر فى نهر اليانغتسى ، اطول انهار الصين ، لكن عينيه الكبيرتين المفعمتين بالثقة بالنفس تقنعك بأنه كذلك . انه قادر حقا على تسمية جميع المناطق الرئيسية فى مجرى النهر البالغ طوله ٦٫٣٠٠ كم .

ان تشن كه شيونغ البالغ من العمر ٤٧ سنة يبحر فى اليانغتسى ، ثالث نهر فى العالم من حيث طوله ، منذ كان فى السابعة عشرة من عمره . وهذه السفينة البالغة حمولتها ٣٥٠٠ طن قادرة على حمل الف راكب ، وهى من اكبر السفن فى شركة تشونغتشينغ للملاحة . والشركة واحدة من عشرات المؤسسات التى تملكها الدولة ، وتقوم بنقل الركاب والبضائع على امتداد اليانغتسى من والى مقاطعة سيتشوان .

سفينته تبحر بين تشونغتشينغ فى الداخل وشانغهاى عند مصب النهر ، والمسافة قدرها ٢٫٣٩٩ كيلومترا . هذه الرحلة الدائرية تستغرق اثنى عشر يوما : خمسة ايام مع التيار وسبعة ايام فى معاكسته . وهناك اكثر من ٤٠٠ سفينة مختلفة الحمولات تبحر فى هذا النهر .

نشأت فى قرية صغيرة على ضفاف نهر جيالينغ ، احد روافد اليانغتسى . كنت احب اللعب فى صغرى عند النهر . اجلس هناك ، احدق الى الامتداد الواسع من الماء الذى يجرى باتجاه الشرق ، بينما تتابع عيناى طيور النورس وهى تنزلق فوق الماء ، والقوارب وهى تمخر عباب الماء رائحة غادية . وكنت كثيرا ما اتساءل : من اين يأتى هذا الماء ؟ والى اين يجرى ؟ ولماذا تتابع طيور النورس القوارب على الدوام ؟ ولماذا تطلق السفن احيانا صفرة واحدة واحيانا صفرتين ؟ وماذا تعنى هذه الصفرات ؟

هذه الاسئلة جعلت مهنة الابحار تبدو لى ساحرة ، وانا يومها ابن مزارع . ثم ما لبثت هذه الاسئلة ان وجدت الاجابة مع مرور السنين . فطيور النورس تتقاطر خلف السفينة بحثا عن القوت لسد جوعها . والسفينة تصفر صفرة واحدة اشارة الى انها ستمر بسفينة اخرى عن يمينها ، اما الصفرتان فاشارة الى انها ستمر بميناثها .

لنهر اليانغتسى ثلاثة اقسام ، ولكل قسم ميزاته الخاصة . عند مجرى النهر الاسفل يمتلئ القعر بالاقذار والرمال ، ويكون الحوض واسعا . وعند اواسطه يكون واسعا ايضا ، ولكن هناك عدد من الاماكن الضحلة ، ولا يزيد عمق الماء عن عدة امتار فى بعض الاماكن . النهر هناك شديد الضحالة حتى ان اسفل السفينة يكاد يلامس قعر النهر فى بعض الاحيان . وعند اعلاه يكون مجرى النهر ضيقا ومتعرجا ومملوءا بالصخور والمنعطفات الخطرة .

واخطر جزء فيه هو اعلى النهر ، لا سيما القسم المعروف باسم نهر تشوانجيانغ . يبدأ هذا القسم فى يبين — مدينة تلى تشونغتشينغ فى مقاطعة سيتشوان — وينتهى فى ييتشانغ بمقاطعة هوبى ويزيد طوله عن ١٠٠ر١ كيلومتر ، وهو معروف بمناظره المشهورة عالميا ، المضائق الثلاثة .

آلاف من الناس يأتون الى هنا كل سنة من داخل الصين وخارجها ، وخصوصا فى الصيف ، ليقوموا برحلة فى القارب عبر هذه المضائق الثلاثة . ان المضائق بالنسبة لهم منظر طبيعى خلاب ، بينما بالنسبة لنا نحن الملاحين جحيم .

فى قسم تشوانجيانغ كثير من المضائق الجبلية العالية المتعرجة ، كما انه مملوء بالالتواءات والمنعطفات ، وبعضها حاد جدا فيضطرنا الى الانعطاف بالسفينة ٩٠ درجة تقريبا . هذا النهر ضيق جدا ، واضيق نقطة فيه لا يزيد عرضها عن ٤٠ مترا . فمن المتعذر على سفينة اخرى كبيرة كسفينتنا ان تمر بجوارنا فى هذه النقطة . والتيار سريع فى موسم الفيضان ، فيصل الى ثلاثة امتار فى الثانية . وفى القسم الممتد بين تشونغتشينغ وييتشانغ ما يقرب من ألفى صخرة وصخرة مغمورة ، من المؤكد انها خطرة تماما .

ان المضائق الثلاثة هى اخطر جزء فى هذا القسم . ولا احد احصى كم من الارواح زهقت فى هذا الجحيم . وبسبب الصعوبة التى تعترض ابحار المراكب فى هذا الجزء من النهر فلا بد للمراكب من الاعتماد على اناس لجرها . وهؤلاء يعملون كحمالين ، يمشون

على الضفة ، ويجرون المراكب بالحبال ، ووضعهم هذا فى غاية البؤس .

كان ذلك فى الماضى . اما الآن فلا ترى من يجر المراكب ، اذ ان الحكومة عملت على اصلاح مجرى النهر ، ونسفت كثيرا من الصخور الكبيرة التى كانت تعوق الطريق . لكن مستوى الماء ظل ضحلا سنوات طويلة . وبعد بناء سد قتشو بالقرب من ييتشانغ عام ١٩٨١ ارتفع مستوى الماء فى المضائق الثلاثة ٢٠ مترا . فلم يعد الابحار فيها خطرا كالسابق .

انما يظل الابحار فى قسم تشوانجيانغ والمضائق معركة على الغالب . علينا ان نظل دائما يقظين ، فخطأ صغير يمكن ان يؤدى الى كارثة . وتقع من حين لآخر حوادث مثل الاصطدام بصخور مغمورة او التصادم مع مركب آخر .

قبل وقت غير طويل تصادمنا مع مركب شحن خاص كان ينقل البضائع عبر النهر .

كان صاحب السفينة مستعجلا فى انجاز عمله ، فطلب من رجاله التحرك قبل ان نفسح الطريق ، مما جعل سفينته تصدم سفينتنا فى مؤخرها . ولم تصب سفينتنا بأذى لأنها مصنوعة من الفولاذ ، لكن سفينته اصيبت بضرر بالغ . وطلب منا ان نعوض عن هذا الضرر ، لكننا رفضنا لأن الخطأ ليس خطأنا . وهددونا بأنهم لن يدعونا نمر ما لم تدفع الخسارة . وسدوا علينا الطريق ، ثم رفضوا ان يتزحزحوا عن مكانهم . واخيرا دفعنا لهم الف يوان لنتمكن من المرور . فى هذه الايام يبحر فى اليانغتسى المزيد

والمزيد من امثال هذه المراكب . انها صغيرة الحجم ، ولا تهتم كثيرا بقواعد المرور ، فتسبب لنا الكثير من المتاعب . كل سنة تتكبد شركتنا خسائر تتراوح بين ٣٠٠ و٤٠٠ الف يوان بسبب اصطدامات من هذا النوع .

هناك مثل آخر من الحوادث اشد ايلاما . فبعض الناس يحاول الانتحار خلال الرحلة . فى السنة الماضية قامت سيدة فى منتصف العمر بالقاء نفسها من السفينة . وحين علمت بذلك امرت بوقف السفينة على الفور ، وبدأنا البحث عنها . لقد استمر بحثنا عدة ساعات ، لكننا لم نستطع العثور عليها . هؤلاء الذين يحاولون الانتحار يبدو انهم يختارون دائما منتصف الليل ، وربما يعمدون الى ذلك حتى لا يراهم احد وينقذهم .

على السفينة هنا تشهد اشياء كثيرة كالشجار والعراك والسرقة . من هذه الناحية لا تختلف الحياة فى سفينة الركاب عما هى على اليابسة . وفى سفينتنا بضعة من رجال الامن للمحافظة على الامن ، ولدينا قسم خاص يتوسط فى النزاعات التى تحدث بين الركاب ، وهذا كله يوفر على الكثير من المتاعب .

تخرجت فى مدرسة ملاحة . وعملت بحارا فمدير دفة فمساعدا ثالثا للربان فثانيا فأول . عملت فى مركب شحن عشر سنوات ، وانتقلت بعدها الى سفينة ركاب . وقد تنقلت حتى الآن بين اربع سفن : الاولى للشحن ، والثلاث الاخرى لنقل المسافرين . اصبحت ربانا عام ١٩٨٥ بعد دراسة سنة فى مدرسة ادارة ملاحة فى تشونغتشينغ .

كان اقصى طموحى ، وانا صغير ، ان اصبح ربانا . وكان هذا من اكثر المراكز هيبة ضمن اعمال الملاحة فى النهر . كنت سريع الانفعال فى الماضى ، لكن النهر غيرنى . اعتقد بأن اكثر الناس عصبية سيغدو صبورا بعد ابحاره فى اليانغتسى سنين طويلة . غير اننا نختلف عن ملاحى البحر الذين تكون آفاقهم اوسع . نحن نبحر فى مجرى ضيق ، وعلينا ان نكون شديدى التبصر والحذر .

لدينا قاعة تلفزيون على متن السفينة . ولتقديم المزيد من وسائل الترفيه والتسلية لركابنا فتحنا مؤخرا قاعة رقص . لكن اهم شيء بالنسبة للركاب هو الامن . ولهذا السبب تقع قمرتى عند سلوقية السفينة . برغم ان لى ثلاثة مساعدين — مساعدا اول وثانيا وثالثا ، وبرغم اننا نتبادل النوبات فيما بيننا ، الا اننى اظل على رأس عملى حين نمر عبر المضائق الثلاثة ، وحين نمر بسد قتشو او تحت الجسور ، او حين نقترب من احد الموانئ . على هذا النهر اربعة جسور وعشرات الموانئ . ونادرا ما نبقى المساعد الثالث فى نوبته حين نبحر ليلا او نبحر فى اعلى النهر ، ذلك لأنه شاب اقل منا خبرة . هناك على الاقل ثلاثة اشخاص على سلوقية السفينة فى كل نوبة : مدير دفة وعامل اشارة ومسؤول . وكل نوبة تستمر اربع ساعات ، وكل واحد من هؤلاء يعمل نوبتين فى اليوم .

لقد مكنتنى خبرتى فى الابحار من رؤية وسماع اشياء كثيرة لم تتح لى رؤيتها او سماعها من قبل ، ومعرفة كثير من

الناس الممتعين ، وتعلم كثير من الامور الجديرة بالتعلم . فأنا الآن مثلا قادر على التنبؤ بالتغيرات الجوية مثل المتنبئ الجوى لأن ابحارنا متأثر بالحالة الجوية تأثرا كبيرا . فأحيانا نضطر الى الرسو اياما لسوء الاحوال الجوية .

لهذا النمط من الحياة مشكلاته ايضا . فالبحار مثلا لا يحصل على طعام جيد وراحة كافية ، بل عليه ان ينذر نفسه لعمله ، فلا يبقى له الا وقت ضئيل يمضيه مع اسرته . البحار المتزوج يمضى من الوقت مع زملائه اكثر مما يمضى مع زوجته واولاده . وذووه لا بد ان يدفعوا اذا ارادوا السفر بالمركب ، فأسرته ليست لها امتيازات . ولهذا يواجه كثير من البحارة الشبان صعوبة فى ايجاد شريكة زواج . والطلاقات بين البحارة اصبحت اكثر مما كانت عليه فى السابق .

اما انا فمحظوظ . لقد تزوجت قبل اكثر من عشرين سنة ، حين كانت مهنة البحار اكثر انتزاعا للاعجاب . زوجتى تعمل بائعة ، والعلاقة بيننا جيدة جدا . وكثيرا ما يؤنبنى ضميرى لعدم عنايتى بها وبأولادنا عناية جيدة . لا استطيع ان اكون الى جانبها حتى وهى مريضة . ان مجموع ما اقيمه مع الاسرة طيلة السنة لا يزيد عن ثلاثة اشهر . فقد قررت ان ألازم البيت بعد تقاعدى بحيث ابقى مع زوجتى . اننى مدين لها بفضل كبير .

عندى شكوى وحيدة ، وهى ان اهتمام حكومتنا بنهر اليانغتسى ضئيل جدا . فمشكلة تراكم الطمى ومشكلة التلوث اصبحتا مخيفتين . اعرف ان المسؤولين فى الولايات المتحدة قد انفقوا

الكثير من النقود فى ترويض نهر المسيسيبى . واليانغتسى هام للصين كأهمية المسيسيبى للولايات المتحدة ، او ربما اكثر اهمية . فآمل ان تولى الحكومة هذا النهر مزيدا من الاهتمام .

اننى كثير التدخين ، استهلك كل يوم علبتين ، فأنفق فى الشهر ثلاثين يوانا على التدخين . وراتبى الشهرى ١٩٠ يوانا .

عندى ولدان ، بنت وابن . وابنى يعمل مدير دفة على سفينتى . حين قرر ان يصبح بحارا بعد تخرجه فى المدرسة الثانوية ، عارضته امه ، لكننى ايدته . صحيح ان حياة البحار شاقة ، انما ينبغى للمرء ان يقوم بهذا العمل مهما كان شاقا .

لين مو وانغ : صياد سمك

" البحر فناء الملك التنين ، اذا عرفت ما ستكون عليه حالة الجو ، فلن تدخل فى متاهته . "

يبلغ لين مو وانغ الثالثة والستين من عمره ، وقد بدأ عمله فى صيد السمك فى سن المراهقة . ويعمل الآن فى مزرعة على شاطىء البحر منذ سنتين ، يربى فيها حيوانات ونباتات مائية . والمزرعة تابعة للفيلق الانتاجى فى قرية جيانتين حيث يعيش لين . تضم القرية ١٥٠٤ افراد ، وتقع فى الضاحية الشمالية الشرقية من مدينة فوتشو على ساحل الصين الشرقى . ان حوالى ٣١٧ عضوا من اعضاء الفيلق ، وهم يشكلون غالبية القوة العاملة فى القرية ، يكسبون معيشتهم من صيد السمك . اما المزرعة فيتعهدها على الغالب النساء والصيادون المتقاعدون .

ولما كانت الحكومة قد شجعت الريفيين على البحث عن طرق يصبحون بواسطتها اغنياء ، فان بعض الصيادين ترك تعاونية الفيلق ليقوم بانتاج فردى . وابن لين واحد من هؤلاء . ولدى الحديث عن ذلك يمكنك ان ترى خيبة الامل فى وجهه الذى لفحته الشمس والرياح .

ألا ترى بيتا مضيئا من الآجر هناك على سفح التلة ؟ لقد بناه ابنى فى السنة الماضية . وطلب منا ان ننتقل اليه ، لكننى خجلت من فعل ذلك . كنت انا وابنى فى سفينة صيد واحدة .

حين انتقلت الى العمل فى المزرعة ترك هو الفيلق . احيانا كان يترك القرية عدة اشهر ، لكنه لا يخبرنى اين كان . وزوجته ايضا لا تخبرنى . اما امه فتقول انه يخرج لجمع المال . حاولت اقناعه بالبقاء فى الفيلق الا انه لم يصغ لى .

وذات يوم عاد بسفينة قديمة بحمولة عشرين طنا . وساعده بعض الفتية فى دهنها بلون اخضر غامق . ثم ابحروا بها . وبعد شهرين عادوا . وقيل بأن ابنى كسب ٢٠ الف يوان . وبدأ بعض الناس يحذو حذوهم .

بدأت العمل لصاحب سفينة وانا فى الثانية عشرة من عمرى . وانت ترى الآن اصحاب سفن جددا ، وأحد الطليعيين بينهم هو ابنى بالذات . انى اكره التفكير فى ان يكون ابنى قد اصبح غنيا من خلال تحوله الى مالك سفينة .

ولدت فى مركب بيت * . وعشت مع جدى وابوى واخى واختى فى رقعة مساحتها عشرة امتار مربعة ، نستخدمها مطبخا وغرفة نوم فى وقت واحد . وسميت لين مو وانغ (اى الغابة الكثيفة) على امل ان يصبح لدينا خشب نبنى به قاربا اكبر . ولم نحلم قط فى امتلاك بيت على الشاطئ . كان الصيادون يومها من افقر الناس . وكنا ندعى "بط الماء" بسبب لف سيقاننا باللفافة للتوازن على متن القارب .

كان بوسع هذا المركب البيت ان يبحر بعيدا عن شاطئ البحر . وتبحر الأسرة فى العادة باكرا . فيلقى الرجال شباكهم

* وهو مركب معد للسكنى ، وبخاصة فى النهر .

ويطرحون صنانيرهم ، بينما تقوم النساء بأعمال الطبخ والغسل ، اما الاولاد فيلعبون . فى المساء كنا نعود بما يقرب من ٥ كغ من السمك او الجمبرى الصغير . فيبيعها رب الاسرة لتجار السمك ، ويشترى بثمنها طعاما يعود به الى البيت فى اليوم التالى .

مع كبرنا بدا لنا القارب الذى نسكنه اصغر حجما . ولم يكن بمقدورنا شراء قارب آخر ، لذلك ذهبت انا واخى لنعمل عند مالك سفينة . كانت حمولة السفينة التى عملت فيها تسع سنوات عشرين طنا . ابحرنا بها جيئة وذهابا على الخط الساحلى ، ومالكها يبيع السمك الذى نصطاده فى تلك الاماكن .

ساعد ابواى اخى على انشاء اسرة له فى مركب بيت جديد ، وبذلك لم يتركا لى شيئا تقريبا . فتزوجت من ارملة خلف لها زوجها السابق مركبا بيتا . ورحنا نعوم به فى الماء متجهين فى الوقت نفسه نحو مجتمع جديد .

كان العام عام ١٩٥٥ عندما جاءت جماعة من خمسة افراد الى المكان الذى نرسو فيه . وقاموا بتفتيش المراكب واحدا بعد الآخر . اثنان منهم قيل انهما موظفان حكوميان ، وكانا يتكلمان باللهجة الصينية الشمالية . اما الآخرون الذين قاموا بالتفتيش بأمر منهما فكانوا من قرية مجاورة . قالوا ان ابناء قريتهم قد كونوا تعاونية وانهم سيجمعون السفن الكبيرة التى يمتلكها جميع الصيادين . وبمساعدتهم كونا تعاونيتنا فى غضون خمسة اشهر .

خلال سنة والنصف اصبحت لدينا سفن حمولة كل منها

ستون طنا . فأخذنا نبحر الى اماكن ابعد من السابق . لقد ابحرت سفينة الكومونة طوال الليل . وعندما نظرنا الى الماء صباحا اخذتنا الدهشة . انها اول مرة نرى فيها اللون الحقيقى للبحر – كان لونه ازرق .

انتقلنا الى بيوت على اليابسة عام ١٩٦٠ . واصبح الرجال ينطلقون الى البحر ، فيما تمكث نساؤهم فى البيت للعناية بالاولاد وصنع الشباك .

لقد استثمرت شركة الحيوانات المائية التى تديرها الدولة مالها فى بناء السفن ، ونحن رحنا نبيع سمكنا الى محطة الشراء التابعة للشركة . الحكومة اشترت لنا سفنا نصطاد بها ، كما اشترت لنا بيوتا نسكنها على اليابسة . فأنا لذلك ممتن للحكومة . لقد انشأت لنا الحكومة ايضا مركز اتصال لاسلكى لتقدم من خلاله النصح للصيادين . فنتصل بهذا المركز حين نصادف قطعانا من السمك ، او ننطلق الى منطقة صيد اخرى حين يخبروننا بوجود كميات هائلة من السمك فى هذه المنطقة او تلك .

فى السنوات القليلة الماضية رفعت الحكومة السعر الثابت للمنتجات البحرية . فأصبح بوسعنا بيع البيكول الواحد (٥٠ كيلوغراما) بثمن ثلاثة بيكولات فى السابق .

اخذ التجار بلهجاتهم المختلفة يأتون الى قريتنا ، ويدفعون اسعارا اعلى من اسعار محطة الشراء . لكنهم لا يستطيعون ان يشتروا الا جزءا صغيرا من سمكنا ، ويمضون وقتا طويلا فى المساومة . ونحن " البط المائى " لسنا ماهرين فى ذلك ، فظل معظم

السمك الذى نصطاده يذهب الى محطة الشراء . وعندهم فى المحطة وسائل تبريد ضخمة تستوعب ما يشترونه .

معظمنا يفضل البقاء فى الفيلق عن تركه ، اننا لا نريد المخاطرة .

ان الناس من امثال ابنى يجمعون النقود بطريقتهم الخاصة على نحو اسهل واسرع . انهم يخرجون ويصطادون كل ما يستطيعون . اراهم احيانا يعودون بأسماك شريطية صغيرة جدا . ليس لديهم احساس ، فالبحر لا بد ان ينتقم . اذكر ان فيلقنا قد سجل فى اوائل السبعينات رقما قياسيا فى الصيد . لكن فى السنة التى تلت غرقت سفينة لنا فى عاصفة رعدية ، ومات فيها اثنان . وظل الناس يتحدثون فى ذلك عدة سنوات ، اما الآن فلا بد انهم نسوا .

انها لفكرة جيدة ان تعاد الاسماك الصغيرة الى البحر . ومركز الابحاث المائية على مستوى البلدية يتخذ مزرعتنا قاعدة اساسية بين قواعده لاجراء هذه التجارب ، ويساعدنا ايضا فى زراعة الاعشاب البحرية وتربية القريدس .

نعمل ثمانى ساعات فى اليوم ، ولدينا عطلة اسبوعية ، ويدفع لنا الفيلق خمسة يوانات كل يوم . فوضعنا كوضع العامل فى المدينة . ابنتاى متزوجتان . وزوجتى الآن مربية فى روضة الاطفال فى القرية . وبراتبينا معا نعيش حياة جيدة . زوجتى هى التى تتولى ادارة المصروفات . لقد اشترت مؤخرا تلفزيونا ملونا . وآمل ألا يكون شراؤه تم بنقود ابنى .

لا اشاهد التلفزيون كثيرا ، اذ لا استطيع فهم لهجة الشمال فهما جيدا . فبجلوسي امامه حتى الساعة الثامنة مساء يغلبني النعاس . انهض باكرا في الساعة الخامسة صباحا . بعد ان ادخن غليوني يحين موعد نشرة الاخبار في المذياع . عندي عادة قديمة هي سماع النشرة الجوية الصباحية في نهاية النشرة الاخبارية . وحتى اسمع هذه النشرة الجوية لا بد ان اصغي الى نشرة الانباء كلها ، والا فلن احصل على الانباء الجوية . البحر فناء الملك التنين ، اذا عرفت حالة الجو ، فلن تدخل في متاهته .

في السابعة انطلق الى المزرعة التي تبعد عن بيتي مسيرة ربع ساعة ، لكنني استغرق ساعة تقريبا لوصولها . فدائما ما اجد اشياء تستدعي المشاهدة واناسا اتحدث معهم . في طريقي الى العمل قبل ايام قال لي رئيس فيلقنا بأن الفيلق يخطط لبناء مركب فولاذي كبير ليبحر بعيدا الى البحر . وعندها سيطلب مني دخول البحر ايضا .

الجزء الثامن

فى حركة المرور

تشانغ باو تشينغ : بائعة تذاكر فى الباص

" الباص عالم صغير ، اتعامل فيه كل يوم مع نماذج مختلفة من الناس . "

فى العاصمة الصينية بكين الواسعة الانتشار ١٦٩ خط باص تخدم المواطنين المتنقلين ما بين بيوتهم ومراكز عملهم . وتعمل على هذه الخطوط اربعة آلاف باص ، يبلغ عدد قاطعى التذاكر فيها ١٩٦ر١٩ شخصا ، بينهم ٠٧٦ر١٤ من النساء ، اى ما يقارب ثلاثة ارباع العدد الاجمالى . وتشانغ باو تشينغ البالغة من العمر اربعين سنة هى واحدة منهن .

انها ام لولد عمره عشر سنوات . وقد مضى على عملها عشرون سنة تقطع التذاكر فى الباص رقم ٤٣ الذى يجتاز مسافة قدرها ٢٥ر١٣ كيلومترا ، تتخللها ستة عشر موقفا .

وبسبب خدمتها الفعالة الودودة تحظى بلقب " عاملة نموذجية " كل سنة منذ عشرين عاما ، باستثناء عام ١٩٧٨ الذى اخذت فيه اذن امومة .

انها لا تفهم لماذا تكره كثير من زميلاتها عملهن ، وتوضح لنا السبب الذى يجعلها تقول : " سأبقى فى عملى هذا الى ان اتقاعد . "

الباص عالم صغير يرى فيه المرء كل يوم نماذج مختلفة من الناس . ولدى قاطع التذاكر عمل كثير يقوم به بالاضافة الى بيع التذاكر . فعلى ان اتحدث طيلة الوقت . اطلب من الركاب شراء التذاكر ، وابحث عن مقاعد للمرضى والعاجزين والمسنين والاطفال ، واوضح للركاب اى باص ينتقلون اليه .

هناك غالبا ركاب سيئو المزاج . فينبغى لى ان اتحلى بالصبر . بعضهم يتزعج حين نطلب منه ابراز بطاقة اشتراكه الشهرى . وبعض الشبان على درجة شديدة من الوقاحة ، فتجده احيانا يدفع البطاقة فى وجهك مرددا اكثر من مرة : " انظر اليها ! " مرة طلبت قاطعة تذاكر من شاب ان يريها بطاقته الشهرية ، فأخرجها هذا الشاب ببطء ، وقال لها بلهجة ساخرة : " انظرى الى ما يطمئن قلبك اذا اردت . "

قبل ايام سألت مزارعا مسنا عن تذكرته ، فانفجر غاضبا وقال : " لماذا تسألينني وحدى دون الآخرين ؟ " وعند نزوله من الباص حاولت ان اسنده لأنى وجدته يعانى فى ذلك مشقة ، لكنه نحى يدى عنه وقال : " لا تستهينى بالفلاحين والمسنين . " ان نوايانا الطيبة دائما ما ينكرها الآخرون .

لا بد ان اعمل بنشاط كى انجز حصتى اليومية من بيع التذاكر . والمشكلة ان بعض الناس لا يريد ان يدفع . لذلك اضطرهم الى الدفع بسؤالى الدائم عن تذاكرهم : فى معظم الحالات

استطيع ان اعرف من تعابير الوجوه ما اذا كانوا قد اشتروا تذاكر ام لا . ما زلت اذكر يوما قال لى فيه احد الفتية : " لقد نوينا ركوب الباص من دون دفع ، لكن طريقة عملك جيدة تماما جعلتنا نشعر بالحرج في ان نغادر الباص من غير ان ندفع . "

ان من العسير حقا امضاء ساعات فى باص مزدحم وسط حرارة الصيف . واضطر الى الاستيقاظ فى الرابعة صباحا كى استعد لعمل .

باصنا باص نموذجى ، لذلك يجب ان اؤدى كل شيء تأدية صحيحة . ان هدير الباص يسبب لى النعاس حقا ، انما يجب ان اظل يقظة . وعلبة " ابو فاس " هى علاجى المفضل لمقاومة النوم .

فى الشتاء قد تصل ادنى درجة للحرارة الى ٢٠ تحت الصفر ، ولكننى اضطر عندها الى خلع القفازين ومتابعة بيع التذاكر ، ولا بد ان اكون سريعة فى البيع ايضا . كل يوم يغطى الغبار وجهى ويدى . وبعد العودة الى البيت يظل الدم متجمعا فى قدمى كأنهما ما تزالان فى الباص . واتحمل ذلك بفضل صحتى الجيدة .

ان عملى متعب حقا ، لكننى ألقى دعما وتفهما عامين . وركابى ايضا يشيدون بعملى . قال لى طبيب فى مستشفى تشاويانغ بأنه سيقدم لى كل عناية طبية ممكنة اذا مرضت . وفيما كنت ذات يوم اقف فى الصف لشراء بعض الخضار جاءنى غريب وقال : " دعينى آخذ لك الخضار الى البيت . " فشعرت بارتباك ، فوضح لى انه يركب فى باصى بانتظام .

انني اعتبر كل من يركب باصى صديقا لى . باصنا يغطى مسافة طويلة من بحيرة توانجيه فى الشمال الشرقى من بكين الى ليوجياياو فى جنوب المدينة . ولما كان الباص يمر فى مناطق سكنية ، فلا بد لى من ان اولى الركاب عناية خاصة .

فى احدى المرات لم تستطع عجوز ان تجد لنفسها مقعدا وسط الازدحام ، فطلبت منها ان تجلس مكانى . فنظر بعض الركاب الى الامر فى استغراب . وبعد ان نزلت من الباص سألنى احدهم هل هذه العجوز امى . فرد عليه راكب آخر : " انها تعامل المسنين دائما هكذا . "

فى باصات بكين غالبا ما تعرض المقاعد على المرضى والضعفاء والمسنين والنساء الحاملات اطفالا ، لكن ليس دائما . مرة صعد الباص رجل ذو ساق واحدة ، فطلبت من الركاب ان يتلطف واحد منهم ويترك مقعده لهذا الرجل . فلم يستجب احد . واتجهت الى عدد من الشباب اطلب مساعدتهم ، لكنهم لم يتحركوا ايضا . لذلك عرضت عليه مقعدى ووقفت . هناك كثير من الركاب ينتقلون فى باصى بانتظام . وبعضهم يعرف حتى رقم باصى (٥٤٧٠١) . وبعضهم الآخر يعرف رقم عملى ٥٠٨٨ ، وهناك بنت صغيرة تدعونى " العمة ٨٨ " كلما رأتنى . وبعض الكفيفين ايضا يعرفنى معرفة جيدة ، ويميزنى من صوتى . وبعض الصم البكم يكلمنى بلغة الاشارة . فوضع قبضة على الاخرى يعنى " العمل " وفرك الكتف الايسر يعنى " الاستراحة " .

العاجزون يستحقون عطفنا ، فعلينا ان لا ننظر اليهم باستخفاف .

انني اعامل الاجانب بالطريقة التي اعامل بها اى شخص آخر : لكن من الصعب الحكم على سن الاجانب لأن بعضهم قد شاب شعره برغم صغر سنه . لا يمكنك ان تميز الكبار منهم الا من مظهرهم العام والتجعدات التي في وجوههم .

على طريق باصي مدرسة للمتخلفين عقليا . فأولى الطفل الذى لا يستطيع التكلم او المشي على نحو طبيعي عناية خاصة . ذات يوم وقف صبي على الموقف ينتظر الباص . وكانت بيده صحيفة فيها مقالة عني . وحالما رآني اشار الى الصحيفة ، ثم الى قلبه ، يعني بذلك ان الصحيفة قد عبرت عما لم يستطع ان يقوله لي مباشرة .

الباص رقم ٤٣ تابع للمرأب الخامس من شركة الباصات العامة في بكين ، هذه الشركة التي تسير باصاتها على ١٦٩ خطا . نستغرق عموما ٤٣ دقيقة لنقوم برحلة كاملة من نقطة الانطلاق الى نهاية الخط . ففي فترة الازدحام نستغرق اكثر من ساعة حتى نتم رحلتنا . كل يوم نجتاز هذه المسافة ذهابا وايابا ثلاث مرات ونصف المرة . وفي باصنا اربعة واربعون مقعدا ، كما تصل قدرته الاستيعابية الى ١٨٥ راكبا . ولكن في ساعات الاختناق ينحشر فيه اكثر من ٢٠٠ راكب . ومع ان كل متر مربع من ارضية الباص لا يتسع لأكثر من تسعة اشخاص ، الا ان هذه المساحة تستوعب ثلاثة عشر شخصا عند الازدحام .

ولتخفيف الازدحام اتخذت السلطات بعض الاجراءات كاضافة خطوط جديدة . وتنتظر اضافة بعض الخطوط الجديدة

فى هذا العام ايضا . وتجرى الآن تجربة على بضعة خطوط بحيث لا تستخدم فيها البطاقات الشهرية . وما يزال الازدحام من اكبر الهموم لدى ركاب بكين الذين يتذمرون دوما بشأن خدمة الباصات .

وفقا للانظمة المرعية ينبغى لقاطع التذاكر ان ينجز فى بيع التذاكر حصته اليومية المقدرة بثمانية يوانات . واذا هو تجاوز الحصة يمكنه الحصول على علاوة . لكن مع كثرة الركاب فى الباص يقل بيع التذاكر ، ذلك ان لمعظم الركاب بطاقات شهرية . والباص العام ليس عملا مربحا . فالبطاقة الشهرية التى تكلف خمسة يوانات تتطلب معونة من الدولة قدرها ١٫٩٥ يوان ، ومع ذلك نضطر الى تشغيل هذه البطاقة . ولما كانت رواتب قاطعى التذاكر ضئيلة ، فكثير منهم يريدون تغيير اعمالهم . لكن الدولة ، وهى تحظر مثل هذا التغيير ، قد بدأت فى تقديم نظام العقد منذ اكتوبر الماضى . وفى ظل هذا النظام الجديد يستطيع قاطعو التذاكر الحصول على "تعويض المسافة البعيدة" . وهذا يعنى انه كلما طال خط الباص ازداد كسب قاطع التذاكر ما لم تقع حوادث .

تخرجت فى المدرسة الثانوية رقم ٥٥ فى بكين . واصبحت قاطعة تذاكر فى الثامنة عشرة من عمرى . لكننى لم اتوقع ان اصبح كذلك لأنى كنت هادئة الطبع ، ولم اركب الباص من قبل . بعد ان استلمت العمل وجدت من الصعب حتى التفكير فى ايجاد عمل آخر . لى الآن ولد فى سن العاشرة . ومن سوء الحظ اننى لا استطيع العناية به كما تعتنى الامهات الاخريات

بأولادهن . لقد احرق مرة جاكيته الجديدة خلال لعبه بالالعاب النارية . فلو كنت معه ، لما حدث له ذلك . ان وضعه يؤلمنى كلما فكرت به .

اكسب دخلا شهريا قيمته ١٥٠ يوانا بما فى ذلك الاضافة والمعونات . ويكسب زوجى ١٠٠ يوان شهريا ، وهو عامل فى المرأب الخامس لشركة الباصات العامة ايضا . نعيش حياة جيدة نوعا ما ، لكننا محشورون فى غرفة صغيرة مساحتها ٧ر٢ امتار مربعة . والحقيقة ان هذه الغرفة ليست لى اصلا . لقد حصلت عليها من اختى التى تعمل فى مكان آخر . ولما كان المبنى السكنى غير تابع لوحدتنا ، فغالبا ما استحث على مغادرتها . ولكن الى اين انتقل ؟ برغم قيام وحدتنا بانشاء مبنى سكنى جديد يظل املى ضئيلا فى الحصول على شقة لأن اسمى فى اسفل القائمة . املى الأكبر فى الوقت الحاضر ان اسكن فى مكان افضل . لا افكر فى ترك عملى قبل التقاعد . باصنا باص نموذجى وسأستمر فى كفاحى لأسهم بقدر ما استطيع فى جعله باصا نموذجيا على مستوى العاصمة .

وانغ ليان ينغ : مضيفة طائرة

" عملى يبدو بسيطا ، لكنه خلاف ذلك فعلا . "

وانغ ليان ينغ البالغة من العمر ٣٢ سنة تعمل مضيفة جوية فى مصلحة الطيران المدنية الصينية منذ ثلاث عشرة سنة . وقد طارت على جميع الخطوط الرئيسية ، المحلية منها والدولية ، وزارت اكثر من عشرين بلدا .

انها تتكلم الفرنسية بطلاقة ، وتعرف الانجليزية . تحب الادب الفرنسى ، ولا سيما اعمال الكسندر دوما ، وهى تفضل باريس على جميع المدن الكبيرة الاخرى فى العالم .

تزوجت متأخرة نسبيا ، ولها الآن ابنة عمرها سنتان . زوجها خريج جامعى ، وهو مسؤول عن التحكم بالنوعية فى مصهر بكين . وتقيم هى وزوجها فى بكين مع حمويها البالغين سن السبعين .

وانغ وزوجها يهويان التصوير . وتحب ان تلعب بكرة الريشة ، او ان تتجول مع زوجها فى حديقة مجاورة . كما تحب ان تزور ابنتها التى تعيش مع والديها فى تيانجين على بعد ١٠٠ كيلومتر من بكين .

حين كنت فى المدرسة المتوسطة قررت فى ذهنى ان اصبح مضيفة ذات يوم . وقالت لى زميلاتى اننى اصبت فى اختيارى هذا لأننى حسنة الطباع ودائمة التبسم ، واحب التحدث والرياضة .

وعندما انهيت دراستى الاعدادية قام مكتب طيران شانغهاى التابع لمصلحة الطيران المدنية الصينية بقبول موظفات من مدرستى . فاضطربت كثيرا مما رفع الضغط عندى وادى الى اخفاقى فى الفحص الطبى ، وبعد انهائى المرحلة الثانوية تقدمت ثانية الى مكتب الطيران فى بكين . وهذه المرة لم اضطرب كثيرا ، فجاء ضغطى عاديا . واصبح حلمى حقيقة .

بعد عشرة اشهر من التدريب بدأت اركب فى طائرة صغيرة تتمايل وتهتز الى حد كبير . فجميع المضيفات الجديدات ، وعددهن ثلاثون مضيفة ، ما عداى وحدى اصبن بالدوار وتقيأن .

وفيما بعد رشحت لدراسة اللغة الفرنسية فى معهد اللغات الاجنبية بشيآن . وكنت قد درست الانجليزية فى المدرسة الثانوية وحصلت على درجات جيدة فى الامتحانات . وبذلك اكتسبت لغتين اجنبيتين مفيدتين فائدة عظيمة فى عملى مضيفة على الخطوط الدولية .

بدأت اطير على الخطوط الدولية عام ١٩٨٠ ، وزرت اكثر من عشرين بلدا . لقد زرت سان فرانسيسكو ونيويورك فى الولايات المتحدة ، وباريس فى فرنسا ، وفرانكفورت فى ألمانيا ، وزوريخ فى سويسرا وموسكو فى الاتحاد السوفياتى ، وغير ذلك من البلدان التى تصلها طائرات شركتنا . احب ان ازور الكرملين ومتحف بوشكين ، وفيرسايل ، واللوفر . لقد احببت باريس اكثر من بقية المدن الاجنبية التى زرتها . اعجبتنى هندستها التقليدية الجميلة والملابس النسائية فيها .

نستمتع باجازة يومين او ثلاثة ، او اسبوع فى بعض الاحيان ، كلما قمنا برحلة الى بلد اجنبى . فنستغل هذا الوقت فى زيارة الاماكن الطبيعية الجميلة ، وتعلم عادات ولغة ذلك البلد . وحين نزور بلدا جوه لطيف نفضل الاستلقاء على الاراضى المعشوشبة الخضراء والتمتع بجمال الطبيعة والاستغراق فى التأمل الحالم . واحيانا نقفز ونجرى ونلعب .

راتبى ليس مرتفعا بالقياس الى راتب المضيفة الاجنبية ، لكنه مرتفع بالنسبة للصينيين . فراتبى الاساسى ٨٨ يوانا بالاضافة الى مبلغ عائم قدره تسعة يوانات . وهذا راتب يعادل راتب المحاضر فى الكلية . وهناك ايضا علاوات . اذا طرت على خط داخلى ، اتقاضى ٨٠ فنا عن كل ساعة عمل . واذا طرت على خط دولى احصل على هذه القيمة انما بالعملة الصعبة . وعلاوة الطعام ٢٤٠ يوانا ، وهى كافية لاطعام اسرة عامل عادى مكونة من اربعة افراد ، لذلك اعيش حياة جيدة .

وباعتبار ان المضيفات يتمتعن بمعاملة مفضلة ، ويكن فى الغالب حسنات الشكل والمظهر ، لذلك تجدهن مرغوبات جدا فى الزواج . لكن الذين يتقدمون لخطبتنا سيشعرون بالخيبة اذا اكتفوا بالنظر الى "الجانب الحلو" فينا ، واخفقوا فى رؤية "الجانب المر" من حياتنا .

ولتأخذنى انا مثلا . فوالدا زوجى كانا متخوفين قبل زواجنا ظانين ان عملى فى غاية الخطورة . فقمت بشئ من التوضيح لأقنعهما بأن العمل على الطائرات اقل خطورة من العمل فى القطارات او

الباصات . وهكذا غيرا رأيهما تدريجيا .

لم ارغب انا وزوجي فى ان يكون لنا طفل فى السنتين الاوليين من زواجنا خوفا من ان يؤثر ذلك فى عملى . رؤسائى قد عاملونى معاملة جيدة تماما ، فلن اكون سعيدة اذا اعاقنى الحمل عن الطيران . وحين قررنا اخيرا ان نخلف طفلا لم تتأت لى فرصة الحمل بسبب ابتعادى عن البيت اكثر من ثلثى السنة . ولم يتم ذلك الا فى الثلاثين من عمرى حيث انجبت طفلة .

بسبب عملى لا اتمكن من العناية بها . وصحة زوجى ليست على ما يرام ، لذلك تعيش مع امى فى تيانجين . وابواى كلاهما يعملان ، لهذا تذهب ابنتى الى مركز للعناية النهارية .

وقع على الاختيار عام ١٩٨٥ نائبة للمرشد السياسى مسؤولة عن العمل الايديولوجى بين المضيفات . وهذا زاد فى الاعباء . حين يشتد حنينى لابنتى اركب القطار اليها ، لكن امرا عاجلا احيانا يظهر فجأة فيفسد على خطتى . اذهب الى تيانجين ما يقرب من ست مرات فى السنة ، وامكث يومين فى كل مرة . لقد ظنتنى ابنتى امرأة غريبة فى البداية . انها شديدة التعلق بجديها . ويقول لى زوجى مازحا بأننى لست زوجة صالحة ولا اما طيبة . واظن اننى لا استطيع انكار ذلك . اذا تزوج شخص من مضيفة ، وارادها ان تكون زوجة صالحة واما طيبة ، تبقى معه كل يوم ، فقد اخطأ الاختيار . ان من المضيفات من طلقن فعلا لأنهن لم يعشن وفقا لما كان يأمله ازواجهن .

عملى يبدو بسيطا ، لكنه خلاف ذلك بالفعل . فى الظاهر

نقوم بتقديم الطعام والشراب للركاب ، لكن هذا ليس بالعمل السهل اذا اراد المرء انجازه على ما يرام . لا بد له من اجادة لغات اجنبية ، وان يكون واسع الاطلاع ويدرك احتياجات المسافرين . ان الركاب متنوعون . فبينهم قادة دول واناس عاديون مختلفو المهن والحرف ومن بلدان مختلفة ايضا .

فى بداية عملى مضيفة صادفت راكبا اجنبيا تكلم معى باللغة الانجليزية وقتا طويلا . لكن كل ما التقطته منه كلمة " وسادة " . ولما جئته بوسادة ظل يهز رأسه بالنفى . فطلبت العون من مترجم . فتبين ان ما كان يقوله هو انه قد نسى مفاتيحه ومحفظته تحت الوسادة فى الفندق ويطلب منا ان نساعده على استعادتها . فأدركت اننى لن استطيع التفاهم مع ركابى والقيام بعملى على الوجه المطلوب ما لم ألم باللغات الاجنبية .

فى التعامل مع الناس لا يكفى ان يكون المرء مؤدبا ، بل عليه ان يكون لبقا ايضا . وهناك اشياء كثيرة يلزمه تعلمها . مرة كنت اقدم المشروبات ، فأخذ احد الركاب كوبا من عصير البرتقال ، وبعد ان ارتشف منه رشفة واحدة تذمر وشكا من انه مر المذاق . واشار الى مكعبات الثلج على عربة الخدمة امامى وقال انه يريد شيئا من مكعبات السكر . فخشيت ان اسبب له احراجا اذا قلت له ان هذا ثلج وليس سكرا . لذلك ابتسمت وقلت : " هذا العصير ، كما ترى ، خلاصة برتقالة كاملة بما فى ذلك قشرتها . انه عصير مغذ ويخفف الحرارة الجوفية . سأضع لك فيه بعض مكعبات الثلج مما يجعله باردا ومستساغا . "

فهز رأسه بالموافقة .

لخدمة المسافرين على خير وجه ينبغى للمضيفة ان تكون مضيافة وجاهزة لتقديم المساعدة مهما كان الامر متعبا . قبل بضع سنوات سافر على طائرتى عجوز صينى فى السبعينات من عمره ليزور ابنه فى الولايات المتحدة ، فرتبنا له جلوسه قريبا من دورة المياه . وكان ضعيف الصحة ، كما كان عصبى المزاج الى حد كبير ويريل على الدوام ، مما اضطرنى الى القيام بتنظيف جوانب فمه ما بين حين وآخر . فشكرنى الرجل غاية الشكر وقال لى اننى فى تصرفى هذا مثل ابنة له .

اعتقد بأن اكثر من تسعين بالمئة منا نحن المضيفات والمضيفين نحب عملنا ، ونعامل ركابنا معاملة جيدة . بعض العاملين حديثا لا يراعون حقوق الركاب كما ينبغى ، اما نحن القدامى فنبذل قصارى جهدنا لمساعدتهم .

ان مصلحة الطيران المدنية الصينية تقوم بتحسين خدمتها . ودائما ما اشعر بالسرور حين نتلقى ثناء من الركاب . لكن شركتنا هذه تتكون من عدة اقسام ، اذا كان عمل احدها ليس جيدا اثر ذلك فى سمعة الشركة عموما . وغالبا ما نبوء نحن الذين فى الطليعة بأشد تأثير ، وتصبح جهودنا غير مجدية ، اذا قصر العاملون فى الاقسام الاخرى فى اداء عملهم على نحو جيد ، ويميل الركاب الى ان يبثوا الينا جميع شكاويهم فى الخدمة الارضية لشركتنا ، ويخبرونا بأمور غير سارة ايضا . وفى حالة كهذه اسعى جاهدة الى فهم حالتهم واسترضائهم ، وابذل كل ما فى وسعى لحماية

سمعتنا ، وهذا ما اظنه واجبى .

انني تجاوزت الثلاثين من عمرى الآن . ووفقا لأنظمة الشركة يمكننا التوقف عن العمل مضيفات بعد سن الاربعين . وعندها يجب ان نعمل فى مجال الخدمة الارضية . والفترة الممتدة من الزواج الى وضع المولود هى عادة اشد الفترات تخوفا . اذا لم تعالج فيها المضيفة وضعها معالجة جيدة ، فلا بد ان تترك هذه الوظيفة .

انوى تأليف كتيب عن الخدمة الجوية باللغة الاجنبية بعد تقاعدى . ان الكتاب المدرسى الذى تعلمناه فى المعهد قديم جدا ، فما ورد فيه يختلف فى الواقع اختلافا كبيرا عما يتكلمه الاجانب حاليا ، فيستخدمون جملا قصيرة بكلمات بسيطة . علينا نحن المضيفات القديمات ان نمهد السبيل لزميلاتنا الجديدات حتى يخدمن الركاب على احسن وجه .

تشن شاو ون : عامل فى عربة القطار

" ان لدى عامل عربة القطار فرصا كثيرة لتحصيل المزيد من النقود اذا اراد مخالفة القوانين . "

يعمل على القطار السريع ١١٩ / ١٢٠ بين بكين ومدينة المناظر الطبيعية هانغتشو . انه واحد من ١٢٠ الف عامل يعملون على عربات الركاب الخضراء السوفياتية الطراز التي تسير على طول " شرايين النقل " كما تدعى الخطوط الحديدية فى هذا البلد الواسع النامى الكثير السكان . فى حجيرته داخل القطار يتحدث باعتدال وثبات تماما كما يتحدث فى غرفته الصغيرة داخل بيته فى هانغتشو . لقد امضى عشر سنوات ما بين بيته وقطاره .

سواء أكان عامل عربة القطار طويلا ام قصيرا لا بد ان يركز ثقله على ساقيه الاثنتين بدلا من ساق واحدة . وعليه ألا يقلق بشأن التوازن . كيف يمكن للمرء ان يقع فى عربة مزدحمة كهذه ؟ ولكن يظل على ان انتبه اين اخطو . فاذا انا لم انتبه ، فقد يتذمر الركاب . ويكون الامر خطيرا حين احمل بيدى اناء ماء ساخن .

لقد مضى على فى هذا القطار عشر سنوات تقريبا منذ ان فتح الخط فى ١ اغسطس ١٩٧٨ . انني الآن فى الثالثة والثلاثين

من عمرى ، واعتبر كبيرا على مهنتى هذه عاملا فى قطار سريع . معظم زملائى فى العربات الاخرى اصغر منى . العاملون الاكبر سنا يعينون عادة فى قطارات ابطأ وخطوط اقصر ، لأن العمل فيها اسهل . الا ان رؤسائى يبقوننى هنا ، فلعلهم لا يريدون ترك كل شيء للشبان .

لا بد ان نصغى لمطالب قادتنا . الخطوط الحديدية معروفة بادارتها شبه العسكرية . فيفترض بنا ان نطيع الاوامر . كنت يوما جنديا ، لذلك اوافق دائما على ما يرى القادة ان من واجبنا فعله .

لقد ركبت القطار اميالا واميالا . المسافة بين بكين وهانغتشو ١٦٥١ر١ كيلومترا . والرحلة بينهما ذهابا وايابا تبلغ ٣٣٠٢ كيلومتر . والقيام بهذه الرحلة مرة كل اسبوع على مدار سنة يعنى اننى اجتاز مسافة تساوى اربع دورات حول العالم . لهذا اكون فى عشر سنوات قد اجتزت ما يساوى اربعين دورة حول العالم .

المضيفة الجوية قد تقطع من الاميال اكثر مما نقطع نحن . انما شعورك فى الطائرة يختلف عما هو عليه فى القطار حيث يكون لديك انطباع واضح عن الاشجار والمدن التى تمر بها طيلة الوقت . على عاملى العربة ان ينظروا من النوافذ بين حين وآخر ليعرفوا اين وصل القطار ، ثم يتصرفوا بشأن ذلك .

ركبت الطائرة مرة منذ عدة سنوات ، حين ارسلنا الى تشانغتشون (اكبر موقع فى البلاد لتصنيع عربات القطارات) لنعود بعرباتنا الجديدة التى تكون بالطبع اكثر اراحة .

نستغرق ٢٨ ساعة و٢٧ دقيقة من بكين الى هانغتشو ، و٢٧ ساعة فى العودة . وهناك عاملان فى كل عربة . ونتعاقب عادة على نوبات العمل فيما بيننا . كل منا يعمل ١٢ ساعة . بعد بضع ساعات من انطلاق القطار ، وحين يقترب القطار من مكانه المقصود ، نعمل سويا .

هذا القطار هو الوحيد بين هانغتشو وبكين . وهو من اكثر القطارات ازدحاما فى الصين . فيه ١٫٤٥٢ مقعدا ومنامة ، ويصل معدل الركاب فيه الى ٢٫٦٠٠ راكب احيانا لا نستطيع السير فى ممر العربة من شدة الزحام . وفى حالات كهذه نضطر عند توقف القطار الى نقل الماء الساخن للركاب عبر النوافذ . وقد قال احد زملائى مازحا : "سيرك فى قطار كهذا عشر سنوات سيجعلك راقص باليه ."

على اية حال الوضع هنا افضل مما هو فى عربة المقاعد الخشبية ، انما ليس كثيرا . هذه الحجيرة ضئيلة جدا عن ان تدعى "مكتب العامل" . تكفى فقط لأن تجلس فيها طاويا ساقيك . وليس مسموحا لنا ان نغلق الباب ونبقى هنا طيلة الوقت .

لم يكن القطار بهذا الازدحام قبل عشر سنوات . فى ذلك الوقت كان معظم الركاب من موظفى المعاهد والمؤسسات التى تديرها الدولة ، وكانوا يسافرون اما فى رحلات عمل او فى اجازة الى اهليهم ، ونفقات السفر تتحملها وحدات عملهم . ونادرا ما كان الناس يسافرون على نفقتهم الخاصة .

اما الآن فبوسعك ان ترى جميع صنوف الناس فى هذا

الفراغ الضيق المحدود . كل ربيع يسافر كثير من الشماليين الى الجنوب ، وكل خريف يسافر كثير من الجنوبيين الى الشمال ، لقضاء شهر العسل او التمتع بالمناظر الطبيعية . وفى كل صيف وشتاء تفعم عربات القطار بصخب طلاب الكليات لدى عودتهم الى ذويهم او الى جامعاتهم . وبعد عيد الربيع يتجه العمال من المحافظات الصغيرة فى مقاطعة تشجيانغ الى الشمال للعمل فى ندف القطن وفى اصلاح الاحذية وفى مواقع البناء ، او ليعملوا باعة متجولين . ومعظمهم يعودون الى مواطنهم قبل رأس السنة الجديدة . وتستطيع ان تحكم من ملابسهم الوسخة ومن الحذر المرتسم على وجوههم انهم جمعوا بعض النقود .

والذين جمعوا مبالغ معقولة هم رجال الاعمال الفرديون من ونتشو ، تلك المدينة الساحلية فى شرقى تشجيانغ . فهم يلبسون ثيابا غالية ومبهرجة ، ويدخنون سجائر اجنبية ، ويبذرون فى طلب الاطباق داخل عربة المطعم ، ويتذمرون دائما من عدم توفر وسائل ترفيه جيدة فى القطار . انك تقابل هنا شتى صنوف الناس — حتى المتسولين واللصوص .

بيتنا ضيق نوعا ما ، فيفضل ابنى ان يلعب فى الفناء مع ابناء الجيران . لكننى احب هذا البيت برغم ضيقه . امضى فى البيت اربعة ايام من الاسبوع ، واشعر بارتياح خاص اول ليلة اعود فيها اليه . لقد نظفت لتوى ارض الغرفة ، وانى لأستمتع بأدائى العمل المنزلى . لماذا لا اكون كثير العمل فى بيتى بما انى اخدم كثيرا من الغرباء فى القطار ؟

فى كل مرة ينطلق بها القطار ينبغى لعامل العربة ان يتزود بالماء الساخن للركاب ويصبه فى اكوابهم . وبعد ذلك يجب توفير المزيد من الماء بصفة دائمة . احيانا نحتاج الى عشرة اوعية من الماء فى الرحلة الواحدة . هذا بالاضافة الى ضرورة قيامه بتنظيف الطاولات وارض العربة دائما ، ومساعدة الركاب عند الباب لدى كل توقف ، وتوفير المقاعد للمسنين والمرضى والعاجزين والحوامل ، والتأكد من عدم تدخين الركاب ، وتحذيرهم من حمل المواد القابلة للاشتعال . على عامل العربة ان يظل منشغلا كربة المنزل . ولعل هذا احد الاسباب التى دفعت عددا من زملائى الى الانتقال الى اعمال اخرى . لكن هذه المهنة كانت تعتبر "جيدة" حين التحقت بها عام ١٩٧٨ .

ولدت فى قرية بمحافظة آنجى بمقاطعة تشجيانغ . وبعد انهائى الدراسة الاعدادية عملت اربع سنوات فى الريف ، ثم انضممت الى الجيش . وسرحت عام ١٩٧٨ حين كانت هناك طلبات للعمال فى الخطوط الحديدية . وكانت وظيفة عامل العربة مطلوبة . فهو يسافر كثيرا بالمقارنة الى الناس العاديين . وراتبه الشهرى كان سبعين يوانا ، وهذا اعلى من راتب بائع او عامل فى المصنع . وكان يعتبر مبلغا جيدا علما انه لا اضافات حينذاك . حسنا ، هذه لم تعد الآن فى نظر الناس امتيازات كبيرة برغم ان ابناء قريتى ما يزالون يحسدوننى ، ولا سيما بخصوص بذلتى الانيقة .

انما عادت هذه الوظيفة مرغوبا فيها الآن . فبرغم صعوباتها وانخفاض اجرها ، اذ انه اجر اقل مما يكسبه كثير من عمال

المصانع ، تقدم عدد كبير من الشبان بطلبات لهذه الوظيفة حين اتيحت فرصة تعيين جديد . يعتقد بأن عامل العربة يمكن ان يتعرف على كثير من الناس ، ويحظى بمزيد من فرص " الابواب الخلفية " .

هناك ستة وعشرون موقفا فى طريقنا من بكين الى هانغتشو ، وسبعة وعشرون موقفا فى طريق العودة . ومن الصعب حصر عدد المسافرين الذين يركبون قطارنا فى الرحلة الواحدة .

دخلى الشهرى يقارب ١٠٠ يوان (نحو ٢٧ دولارا امريكيا) . ومع راتب زوجتى يصل دخلنا الى ٢٥٠ يوانا (تساوى ٦٦ دولارا امريكيا) .

وامام عامل العربة فرص كثيرة لتحصيل المزيد من النقود ، اذا اراد مخالفة القوانين . فمثلا خلال الرحلة الحالية الى بكين طلب منى تاجر ان اؤمن له مضجعا فى عربة النوم . وعرض على من النقود ما يساوى ضعف ثمن التذكرة ، فرفضت طلبه . لو كان عجوزا او مريضا ، لساعدته دون مقابل . وآخر يعمل بائعا متجولا قد دس فى جيوبى عدة علب من السجاير الاجنبية طالبا منى ان اسمح له بحمل امتعة تزيد كثيرا عن الحجم المسموح به — سبعة اكياس كبيرة ملأى بالسمك . فأعدت له علب السجاير ، ودفعته الغرامة . اشياء من هذا القبيل تحدث كثيرا .

ان بعض عاملى العربة فى القطارات يعاقب او يفصل من عمله لانتهاكه القوانين ، فمثل هذه الفرص لا تستحق المغامرة .

اننا نكافأ لقاء اتقاننا عملنا . ومبلغ المكافأة يتوقف الى حد

كبير على رسائل ثناء من الركاب . انني نادرا ما اتعرض للنقد ، بل يمتدحني الركاب احيانا لأمور بسيطة . فحين توقفنا فى شانغهاى ، مثلا ، شق ثلاثة من السياح طريقهم عبر الرصيف . كانوا عائدين الى بكين . فساعدتهم على الصعود . وبعد اسبوعين ، وكنت قد نسيت تماما هذه الحادثة ، تلقيت رسالة شكر وصلتني على عنوان محطة القطار فى هانغتشو . لقد خطت الرسالة على ورقة حمراء كبيرة ، وهذه الرسائل تحفظ لدى المسؤولين .

لقد حملت الى الرصيف مرة جثتي راكبين ماتا فجأة فى القطار .

اننا نصادف فى القطار اشياء شتى ، فلا عجب ان يدعى " مجتمعا صغيرا " . وقد يكون هذا اكبر مكسب فى عملى . منذ حداثة سنى فى الريف كنت احلم بالتجول ومشاهدة العالم .

من النظرة الاولى الى المرء يمكنني الآن ان احدد بالضبط سنه ومهنته وشخصيته .

ان السلبية الكبيرة فى عملى هذا هى اننى احمل زوجتى عبئا ثقيلا للغاية . انها عاملة فى مصنع شيونغوى للحرير بهانغتشو . وتقوم بمعظم الاعمال المنزلية برغم انشغالها الشديد . لقد زارت بكين فى السنة الماضية ، وهى ابعد رحلة غادرت بها موطنها فى حياتها كلها .

ومن الاسف الشديد انها ستتحمل عبئا اثقل فى السنوات القادمة . قلت ان على المرء كى يحافظ على توازنه فى القطار ان يركز ثقله على ساقين بدلا من ساق واحدة . لكنني اخشى

ان لا استطيع شيئا سوى عملى هذا . لقد فات الاوان على تغيير عملى . لم احصل تعليما جامعيا ، وليست عندى حرفة خاصة ، غير اننى تعودت هذا العمل .

لى دوه فو : سائق سيارة خاصة

" اعتقد اننى انتمى الى الجيل الضائع فى الصين . "

لى دوه فو يعتبر " قتيهو" ، وهو تعبير صينى عن صاحب العمل الفردى . ولكن عند استخدام هذه العبارة اول مرة قبل عشر سنوات لم يكد اولئك الذين نشأوا خلال فوضى الثورة الثقافية يصدقون ان مثل هذه المهن ستعود الى الظهور فى الصين الاشتراكية .

غير انهم يعرفون الآن انها ستعود فعلا . ان الاصلاحات الاقتصادية القوية وسياسة الانفتاح التى قدمها القائد الصينى دنغ شياو بينغ فى اواخر السبعينات قد مكنت الاقتصاد الخاص من التواجد بعد ان كان محظورا ذات يوم .

ولى البالغ سن الواحدة والعشرين واحد من ٢٠٦٠ سائق تاكسى فى شانغهاى . ويصل اليوم عدد السيارات الصغيرة فى اكبر مدن الصين هذه الى ١٠٤٥٨ سيارة ، اى عشرين ضعفا لما كان عليه قبل عشر سنوات . لقد استطاع لى ان يمتلك " طاس ارز حديدى" — هذا تعبير آخر شائع فى الصين ، يعنى ضمان الوظيفة مدى الحياة — فى وحدة عمله الاصلى ، وهى محطة لتزويد السوق بالمستحضرات الصيدلانية فى شانغهاى . كان حمالا هناك ، وهذا عمل يتطلب جهدا كبيرا مقابل اجر ضئيل ، مما سبب له متاعب لا حصر لها .

نتيجة لذلك ترك هذا العمل فى صيف ١٩٨٦ ، وقرر ان يقتحم عمل التاكسى المربح .

لا يبدو على لى من خلال نحافته وحجمه المتوسط انه رجل عمل . يتكلم ببطء واحيانا بتمهل طويل . وطريقته فى التكلم تكشف عن صراحته وانطوائه .

اشعل سيجارته ، وشرع يروى قصته الشخصية التى لم يروها من قبل بهذا التفصيل .

عدد من المعارف والجيران سألونى : " لماذا تريد ان تصبح صاحب عمل فردى ؟ من اجل النقود ؟ " انهم لا يكادون يصدقون اننى سأستقيل من عملى لدى مؤسسة تديرها الدولة . فاضطررت الى الرد عليهم بابتسامة ، وقلت فى نفسى : " انهم لا يفهموننى حقا . وليسوا مخطئين خطأ فادحا حين يعتقدون بأنى افعل ذلك من اجل النقود . لكن هذا ليس دافعى الوحيد . ما اريد تحقيقه ليس مجرد كسب النقود ، بل اريد ان اجعل حياتى مستقلة وذات مغزى . "

قد يبدو ذلك مثاليا اكثر مما ينبغى . بصراحة اريد ان اشترى معدات استيريو متكاملة من النوعية الفخمة لأننى اهوى الموسيقى ، كما اريد شراء بيت جديد واثاث جديد لزواجى . والاهم من هذا اننى اريد التعويض عن الوقت الضائع الذى كان لا بد من امضائه فى التعلم . لا بد ان تكون هناك جامعات يستطيع المرء الدراسة فيها على نفقته .

صحيح ان هناك اناسا يباشرون عملا خاصا ليؤمنوا لأنفسهم حياة كريمة ، ولا شىء سوى ذلك . قليل منهم من يتضح فى اذهانهم هدف مستقبلى . ان كثيرا من اصحاب العمل الفردى

يذهبون الى قاعات الرقص والبارات الليلية بحقائب ملأى بالنقود ، لكنهم يستخفون بواقع الحياة . فالمرء بغير المعرفة لا يستطيع تحقيق شيء ، ولن يكون نافعا للمجتمع .

اعتقد ان من يفقد هدفه فى الحياة يفقد معنى وجوده . ربما تجدنى مشتطا فى قولى هذا ، لكننى على الاقل اطبقه على نفسى .

ارى ان من حق الانسان ان يكون مستقلا . فقد قررت ان استقيل من عملى السابق فى صيف ١٩٨٦ واصبح سائق تاكسى خاصة . فوافقت وحدتى على استقالتى فورا . وكانت المشكلة فى ان كتاب الاستقالة لا بد ان يوقع من ابى الذى رفض الموافقة على قرارى فى البداية . انه رجل عنيد ، ويرى ان العمل الفردى فى الصين شيء متدن فى السلم الاجتماعى . وشعر بأنه سيكون فى موقف مخز اذا ما تحول ابنه الى واحد من اصحاب العمل الفردى .

واخيرا كانت الغلبة لاصرارى . فقد خيرته بين اعطائى ٣ آلاف يوان لزواجى او التوقيع على كتاب استقالتى . ولما كان رافضا اعطائى النقود ، فقد اضطر الى التنازل والتوقيع على تقرير استقالتى مضيفا بأنه لن يقدم لى اية مساعدة مالية ، حتى ولو جد طارئ فيما بعد .

واليك صورة واضحة عن ابى . انه مهندس لاسلكى فى احد مصانع شانغهاى . تزوج اربع مرات . وقد تم الطلاق بينه وبين امى وانا فى الثالثة من عمرى . ولى اخت كذلك . بعد الطلاق عشت مع ابى ، بينما ذهبت اختى لتعيش مع امى .

ولم انل من الحب الابوى فى طفولتى كل ما كنت بحاجة اليه .
نادرا ما كان يعتنى بى . لذلك امضيت طفولتى فى بيئة اسرية فى غاية القسوة . ابى وزوجته كثيرا ما كانا يتشاجران بعنف ، وانتهى بهما الامر الى الطلاق ايضا .
فى عام ١٩٧٦ انهيت دراستى المتوسطة . وارسلت الى الريف لاعادة التثقيف حيث كانت التأثيرات اليسارية ما تزال قوية حينذاك . فحدث ان ذهبت امى الى مدير المدرسة وطلبت مساعدته .
قالت له ان جسمى اضعف من ان يتحمل العمل الجسمانى الثقيل فى الريف . فاستمع لها المدير . ونتيجة لذلك عينت فى اكتوبر ١٩٧٦ فى عمل بمحطة لتزويد السوق بالمواد الصيدلانية ، تابعة للدائرة التجارية على مستوى البلدية .
فى تلك الاثناء كان ابى يستعد لزواج آخر ، وقرر ان لا اعيش واياه سويا . فانتقلت الى غرفة قميئة كعلبة الكبريت ، لا تتسع لأكثر من سرير وطاولة . وسرنى ان لا اكون مع اب فظ واسرة دائمة الشجار . جيد ان تكون لى غرفة مستقلة . واستفدت من جوها الهادئ فى القراءة والدراسة وسماع الموسيقى . واصبحت حرا فيما افعل بمعزل عن تدخله .
اعتقد اننى انتمى الى الجيل الضائع فى الصين . خلال دراستى الابتدائية والمتوسطة تلقيت تعليما بسيطا . كانت المدارس تغلق من حين لآخر بسبب الحملات السياسية المتكررة . فمعظم وقتنا مضى فى التلويح بالرايات فى الشوارع واطلاق الهتافات فى امتداح الثورة الثقافية .

بعد عملى حمالا فى النهار كنت احضر دورات تعليم ثانوى فى مدرسة مسائية عام ١٩٧٧ ، على نفقتى الخاصة . استمر التعليم فى هذه المدرسة ما يقرب من ثلاث سنوات . وكنت فى غاية الاجتهاد ، فاجتزت جميع الامتحانات وحصلت على شهادة عام ١٩٨٠ .

مع ذلك بدا اننى ما زلت غير مؤهل تأهيلا كافيا لدخول الجامعة . فقد اخفقت ثلاث مرات فى امتحانات القبول فى الجامعة ما بين عام ١٩٨١ و١٩٨٣ . لكننى لم اتخل عن طموحى ، وبقيت واثقا بأننى سأنجح ذات يوم .

خلال تلك الفترة انفقت تقريبا كل مدخراتى على رسوم التعليم والكتب . وشعرت ان الحياة فارغة اذذاك . لم اعد راغبا فى البقاء فى وحدة عملى التى اتقاضى منها راتبا شهريا يقارب ١٠٠ يوان بما فى ذلك الاضافات والعلاوات ، فأقصى ما فيه انه كان يغنينى عن الاستدانة .

عندما قررت التحول الى عمل خاص فكرت اولا فى القيام بعمل يتطلب مهارة خاصة . لذلك اخترت قيادة تاكسى لأن السائقين مطلوبون دائما فى هذه المدينة . واذا اخفقت ، فسيظل بوسعى دائما ايجاد عمل فى مؤسسة للدولة بطريقة التعاقد . وكانت المشكلة الرئيسية هى كيفية الحصول على نقود كافية لشراء سيارة . فأرخص سيارة للعمل الفردى متوفرة فى شانغهاى هى سيارة " فيات" المصغرة ذات المقاعد الاربعة البولندية التركيب ، وتكلف ١١ الف يوان .

علمت اختى بما اعتزمت عليه ، فساعدتنى بثلاثة آلاف يوان . واسهم الاصدقاء والاقرباء ببقية المبلغ .

لحصولى على رخصة قيادة كان لا بد لى من امضاء اربعة اشهر فى مركز للتدريب باحدى ضواحي شانغهاى . ودفعت رسوما قدرها ٣ آلاف يوان . ومرة اخرى مدت لى اختى يد المساعدة .

وحين نجحت اخيرا فى حصولى على الرخصة كانت فرحتى لا توصف ، فتلك نقطة تحول فى حياتى .

ان الناس الذين يمارسون اعمالا تجارية خاصة ليست لديهم ايام عطل خلافا للعاملين فى المصانع والمؤسسات . اتنقل عادة اكثر من ١٠٠ كم او ما يقرب من عشر ساعات فى اليوم .

هناك اوقات يزدحم فيها العمل بحيث لا استطيع التعطل ولو عشر دقائق خلال يوم العمل . مرة حملت راكبين الى محطة القطار ، وكان على ان اسرع حتى لا يفوتهما القطار . وفجأة شعرت بحاجة ملحة لدخول دورة المياه . نظرت الى ساعتى فأدركت ان القطار سيغادر بعد عشر دقائق ، وما زلت على بعد خمس او ست دقائق عن المحطة . وحين وصلناها ادرك الراكبان القطار فى اللحظة الأخيرة . وما ان وصلت بدورى دورة المياه حتى كنت قد بللت لباسى الداخلى . انه ليوم عصيب حقا !

اجرجر نفسي الى البيت فى وقت متأخر من الليل ، وقد هدنى التعب . كثيرا ما احدق الى السقف ، وانا مستلق على السرير ، افكر فى اشياء واشياء . . حتى فى ترك هذا العمل . لكن سرعان ما يخيل لى اننى اسمع صوتا من الاعلى يقول : " اين العزيمة

التى كانت لديك ايها الشاب حين قررت احتراف هذه المهنة ؟ "

معظم الناس يقرنوننا غالبا ، نحن اصحاب العمل الفردى ، بالوانيوانهو (تعبير فى الصين يشير الى الناس الذين يمتلكون ثروة تقدر بعشرة آلاف يوان) . نعم ، ان بامكاننا كسب مبلغ كهذا . فمتوسط كسبى ١٢٠٠ يوان شهريا ، وقد يصل الى ١٨٠٠ يوان فى مواسم ازدحام العمل . لكن على الناس ان يعرفوا ايضا حجم وطبيعة العمل الذى نؤديه . اعتقد اننى استحق ما احصل عليه . شكواى الوحيدة هى ان كثيرا من الضرائب المجحفة مفروضة علينا ، كضرائب البناء المدنى وضرائب التعليم وضرائب الازدهار الاجتماعى ، وغير ذلك .

حصتى من الوقود فى كل موسم ٦٠٠ ليتر ، بينما تستهلك سيارتى ٩٠٠ ليتر على الاقل . فاضطر الى شراء كوبونات وقود من السوق السوداء بسعر اعلى بكثير مما ادفعه فى الحصة المقررة لى .

اعتقد بأن خدمتى جيدة . فأنا اعامل الركاب معاملة جيدة لا اجحاف فيها . وافضل ان تكون خدمتى للشماليين لأنهم اناس مستقيمون تماما ، وقلما يلجأون الى مساومة متعنتة . الناس الذين لا ارغب فى نقلهم هم الشانغهانيون الشباب .

فى السنة الماضية حملت ثلاثة ، شابين وشابة ، الى قاعة رقص تقع فى زقاق ضيق . وكان هذا الزقاق مسدودا على السيارات . لكن هؤلاء الشبان اصروا على ان اوصلهم الى مدخل القاعة ، والا فلن يدفعوا الاجرة . فقلت لهم اننى لا استطيع مخالفة قانون

السير ، بل وطلبت منهم بكل ادب ان ينزلوا دون دفع اجرة . وما ان فتحت الباب حتى تلقيت ضربة على رأسى من الخلف . ومع استدارتى تلقيت ضربة اخرى على وجهى اشد من الاولى . فأخذ انفى ينزف . فكظمت غيظى الشديد ، وتركتهم يمضون . لو تعاركت معهم لكان من المحتمل ان يلحقوا ضررا بسيارتى ، فتتعطل بذلك وسيلتى الوحيدة فى كسب عيشى .

على ان اعمل طيلة النهار برغم ما اصادفه من مثبطات ومحن .

الدولة تقدم لنا كثيرا من المساعدة . فأنا وسيارتى مثلا مؤمن علينا . كل سنة ادفع ٣٠٠ يوان للتأمين . حتى الآن وقع لى حادثان ألحقا بسيارتى ضررا خفيفا ، فدفعت فقط عشرين بالمئة من اجرة اصلاحها ، ودفعت شركة التأمين بقية الحساب .

ان القراءة وسماع الموسيقى من نشاطاتى المحببة فى اوقات الراحة . لقد بدأت اهوى الموسيقى وانا فى المدرسة الابتدائية . وبعدها تعلمت العزف على البيانو . وفى المدرسة المتوسطة تعلمت العزف على الكمان . لكننى لم اعزف قط امام الجمهور .

احد اصدقائى اطلع على موهبتى الموسيقية ، واراد مساعدتى فى التقدم الى معهد الموسيقى بشانغهاى . لكننى اضطررت الى رفض مساعدته الكريمة هذه ، اذ لم يكن بقدرتى شراء كمان فى ذلك الوقت ، وابى لا يعطينى اى مصروف .

احب موسيقى بتهوفن ومزتسارت . واحب الآن ايقاع موسيقى الروك اندرول .

المجلة التى تحظى بمعظم اهتمامى هى مجلة « مختارات للقراء » الصينية التى تؤلفها وتصدرها دار نشر صينية . ومنها اتعلم الكثير من حقائق الحياة . واحب ايضا قراءة الروايات والقصص البوليسية . واعتبر قراءتى نوعا من الاستعداد لدخول الجامعة .

نادرا ما اخرج بعد انتهاء عملى . وبرغم كسبى الكثير قياسا الى العمال العاديين لا ابذر فى المصروف . وعلى بالاضافة الى ذلك تسديد النقود التى اقترضتها لشراء السيارة . ان الحياة تبدو لى — الآن على الاقل — صعبة . اذا ما بقيت فى هذا العمل وقتا طويلا نسبيا ، قل خمس سنوات مثلا ، فوضعى سيتحسن على ما اعتقد .

فى اوائل عام ١٩٨٨ انتشر فى شانغهاى وباء التهاب الكبد . وكنت لسوء حظى بين ضحاياه . فطلبت من صديق لى يحمل رخصة قيادة ايضا ان يواصل العمل على سيارتى . واعطيته ٥٠٠ يوان فى الشهر . ولو لا عناية صديقتى الحالية ، لدخلت المستشفى . لقد شفيت فى غضون شهر .

متى حدث حبى الاول ؟ وانا فى عملى السابق كانت لى صديقة ، وهى طالبة جامعية . كنت لطيفا معها غاية اللطف . ظلت بعض الوقت لا تقبل دعوتى اياها الى الحدائق العامة والحفلات الموسيقية . فشعرت ، برغم انها لم تقل ذلك ، بأن السبب فى فتورها هو ان الوضع الاجتماعى والاقتصادى لكل منا يختلف عن الآخر . ولأول مرة تتعرض كبريائى لاهانة شديدة .

صديقتى الحالية انسانة ودودة جدا . خرجت بها مرة للتحوج .

اننى لا اعرف بالضبط ما الذى يجعلها تحبنى . آمل ان اكون قد فزت بقلبها بما عندى من نوايا طيبة . انها عاملة فى مصنع للمراوح الكهربائية . حاليا لا استطيع الجزم بأنى سأتزوجها فى المستقبل القريب ، فما زالت امامى اشياء كثيرة يجب ان افعلها .

هناك سبب آخر يجعلنى ارغب عن الزواج قريبا ، وهو اننى سأذهب للدراسة فى اليابان فى اغسطس ١٩٨٨ . زوج شقيقتى مراسل لصحيفة «الاقتصاد العالمى» الشانغهانية ، مقيم فى طوكيو ، وسيقدم لى المعونة المادية بخصوص دراستى ومعيشتى هناك . واظل كذلك مضطرا الى ايجاد عمل . لقد قلت لصهرى بأننى سأرد على ثقته بى بالدراسة والعمل بكل جد واجتهاد .

اعتقد ان سعى الانسان فى الحياة يجب ان يكون متعدد الجوانب . عليه ان يحاول بكل وسيلة ممكنة تحسين حياته وجعلها حياة هادفة . وهذا الاعتقاد هو الذى جعلنى اقرر السفر الى الخارج .

سأبيع سيارتى الى احد اصدقائى قبل سفرى الى اليابان .

بعض الاصدقاء يعتقد بأننى لن اعود من اليابان اذا اصبح وضعى فيها جيدا . لكننى اكدت لهؤلاء عودتى . صحيح ان وطنى الام ما يزال بلدا فقيرا فى طور النمو ، الا اننى اظل صينيا ، ويظل من واجبى ان اسهم بكل ما استطيع فى خدمة البلد الذى فيه ولدت وفيه نشأت .

وانغ فو قن : سائق دراجة ثلاثية العجلات

" ما زلت اسوق هذه الدراجة بعد ٣٨ سنة فى هذا العمل
لأنى لا اريد ان اتوقف ، والا فستسوء صحتى . "

قبل عشر سنوات كان الناس فى الصين يتحدثون عن ارسال الدراجة الاخيرة الثلاثية العجلات الى متحف التاريخ . لكن وسيلة النقل القديمة هذه بقيت قائمة لأن خدمة الباص والسيارة لم تف بالغرض . كما ان السياسة الجديدة الآن تشجع الناس على ممارسة الاعمال التجارية الخاصة بما فى ذلك العمل على السيارات الخاصة وهذا النوع من الدراجات الخاصة .

لكن ما تزال هذه الدراجة الثلاثية العجلات فى شانغهاى ، بلدية الصين الكبيرة ، حيث وسيلة النقل العام المدينى متطورة نوعا ما ، تعد جزءا من الماضى . فتضاءل عدد هذه الدراجات فى هذه المدينة من ٨٠ الف دراجة فى الخمسينات الى مئة دراجة حسب قيود المكتب الادارى لهذه الدراجات فى البلدية . وجميع سائقيها رجال فى الستينات والسبعينات من اعمارهم لا يريدون ان يتقاعدوا .

ووانغ فو قن رجل لم يرض بالتقاعد مع انه وزوجته يتقاضى كل منهما معاشا تقاعديا قدره مئة يوان شهريا . ابنه خريج جامعى ، يعمل فى معهد للابحاث . وزوجة ابنه تعمل فى مخبر هذا المعهد .

انني فى الواحدة والسبعين من عمرى . كثير من زملائى

يتعجبون كيف انى ما زلت اعمل . انهم لا يدركون مدى الملل الذى سأعانيه فى جلوسى دون اى عمل بعد ٣٨ سنة من سوقى دراجتى هذه . واننى لفخور كذلك بمعرفتى مختلف انحاء المدينة . اننى اعرف الثلاثة آلاف شارع وزقاق فى هذه المدينة كمعرفتى الخطوط فى راحة يدى . احيانا ألاحظ سائقى السيارات فى محطة القطار فى حيرة تامة حين يعطيهم زبون اسم زقاق صغير جدا . فأستطيع غالبا اغتنام هذه الفرصة ، واقول للزبون : " انا اعرف المكان . تعال ، وسآخذك اليه . " اننى سعيد بخبرتى التى تمكننى من ان ابز السائقين الشبان مهما كانت سياراتهم حديثة .

اول ما وصلت الى شانغهاى قادما من الريف لم اكن اعرف شيئا عن هذه المدينة . ومن حسن الحظ انه كانت لى بنية قوية وقدمان كبيرتان وساقان قويتان . فاستأجرنى تاجر لأكون سائق دراجته الخاصة الثلاثية العجلات .

فى ذلك الوقت (عام ١٩٥٣ — ١٩٥٦) لم يكن التحول الاشتراكى فى الاقتصاد قد بدأ بعد ، وكان اصحاب الاعمال الخاصة منتشرين فى مختلف انحاء المدينة . صاحبى هذا كان غنيا ، يعيش فى اسرة تضم زوجته ومحظيته وستة اولاد وطباخا وخادمة . وكانت مهمتى ان انقل صاحبى الى مكتبه فى الصباح ، ثم اقوم بعد ذلك بنقل البضائع حسب اوامره ، وهذا كان يشغلنى طيلة اليوم . وفى نهاية اليوم اعود به الى البيت . هذا كان كل عملى . وحين كانت زوجتاه تخرجان للتحوج اولزيارة الصديقات

او لحضور المسرح او السينما ، كانَ على القيام بنقلهما ايضا .

لقد بذلت اقصى جهدى لأداء عملى على خير وجه . فكنت اقود الدراجة بحرص واحافظ عليها انيقة جديدة . لم اخلف بموعد قط ، مما انتزع اعجاب صاحبى بى . فلم يكتف برفع راتبى الشهرى ، بل وافق على السماح لخادمته ان تتزوجنى . وبعد زواجنا واصلنا العمل لديه .

ثم جاء التحول الاشتراكى عام ١٩٥٦ . فى تلك الحملة تحول محل صاحبى الخاص بالحلويات الى مؤسسة مشتركة بينه وبين الدولة من حيث الملكية . وبعد ظهر احد الايام دعانى صاحبى انا وزوجتى آشيانغ الى غرفة جلوسه وقال لنا :

— ألم تسمعا يا فو قن وآشيانغ فى هذه الايام ضرب الطبول والصنوج واطلاق المفرقعات النارية فى كل مكان من شانغهاى ؟ انهم يحتفلون بدخول شانغهاى فى الاشتراكية . والاشتراكية ترفض الاستغلال . وانا رأسمالى . فينبغى لى ان اتحول الى رجل يعيش على كده . لذلك لن اتمكن من تشغيلكما عندى بعد اليوم . عليكما ان تغادرا ، وبوسعكما ان تحتفظا بالدراجة هدية منى ، فهى لم تعد ذات نفع لى على اية حال .

وهكذا انصرفت انا وآشيانغ . ونظرا الى كونى اميا ، وانه ليست بيدى اية حرفة ، فقد واصلت العمل على هذه الدراجة ، انما لحسابى الشخصى هذه المرة .

ثم جاء ما سمى بالثورة الثقافية ، وهى حملة هدفت الى مسح كافة آثار الرأسمالية . وقد اعتبرت الملكية الخاصة لهذا

النوع من الدراجة علامة للملكية الرأسمالية . لذلك اخذت حكومة البلدية على عاتقها ادارة خدمة هذه الدراجات . فاشترتها الدولة منا ، واصبحنا عمالا عليها بأجر شهرى ثابت .

فى ظل الادارة الجديدة تعين علينا نحن سائقى الدراجات ان نعطى كل زبون وصلا ، وعند نهاية كل يوم عمل نسلم كل النقود التى حصلنا عليها . وكل شخص منا يحصل على نفس الراتب بغض النظر عن كيفية عمله فى ذلك الشهر . ففترت الحماسة ، ولم يعد اى منا حريصا على تحصيل المزيد من الاجرة .

لكن الامور اختلفت فى السنوات الاخيرة بفضل سياسة الاصلاح . اعرف ان سائقى هذه الدراجات فى المدن الاخرى مسموح لهم بالعمل عليها لحسابهم الخاص .

نحن هنا فى شانغهاى التزمنا بنظام الاجر الثابت بين سائقى هذه الدراجات . والآن يمكننا ان نحتفظ لأنفسنا بستين بالمئة من دخلنا اليومى ، والاربعون بالمئة الباقية تذهب الى مكتب ادارة الدراجات . والمكتب يستخدم هذه النقود فى دفع الرواتب التقاعدية وفى صيانة دراجاتنا وفى دفع الضرائب .

فى ظل هذا النظام الجديد احتاج فقط الى اجرة نقلة واحدة او نقلتين فى اليوم ، فيبلغ مجمل الدخل الشهرى ٤٠٠ يوان . وبعد تسليم الاربعين بالمئة منه لمكتب الادارة يبقى لى ٢٤٠ يوانا . وبهذه النقود مع معاش تقاعدنا انا وآشيانغ ، لا نضطر الى الحرص الشديد فى مصروفاتنا .

يقول الناس بأن الدراجة الثلاثية العجلات نموذج متخلف لوسائل النقل لأنها تعتمد على الجهد العضلى ، ولا بد من ان يتم التخلى عنها ذات يوم . ومع موافقتى على رأيهم ارى ايضا ان لهذه الدراجة فوائدها . وهى فوق ذلك تستطيع الدخول فى الازقة الضيقة التى يتعذر على السيارة دخولها .

نظرا الى ان هذه الدراجة تستطيع دخول الازقة الضيقة ، وحمل الزبون عن باب بيته ، فالناس يفضلون استدعاءها عند الحاجة الى نقل مريض او امرأة حامل الى المستشفى . لهذا السبب لا اعتقد بأنها ستختفى من الصين فى وقت قريب .

قبل ايام كنت اسير فى الشارع فاذا بشابة ، تدفع امامها عربة طفل ، تحييني بحرارة . وقبل ان اتذكر من هى قالت لى : " ألا تتذكر ايها العم تلك الليلة التى انقذت فيها حياتى وحياة هذا الطفل ؟ "

كلامها صحيح ! ذات مساء كنت وزوجتى عائدين من السينما ، فرأيت شابة حاملا تئن الى جانب عمود المصباح الكهربائى ، فقدرت انها على وشك الوضع ، وطلبت من زوجتى ان تبقى معها ، ثم اندفعت الى البيت لأعود بالدراجة . عندما وصلنا الى اقرب مستشفى كانت هذه الشابة قد اغمى عليها مخلفة على مقعد الدراجة بقعة من الدم . وفيما بعد قال الاطباء بأننا لو لم نصل فى تلك اللحظة لتعرضت حياة الام وطفلها للخطر .

لقد اتخذت لنفسى قاعدة ، هى ألا اتقاضى اجرة باهظة من الزبون . اننى استخدم دراجتى دائما وسيلة لمساعدة الآخرين .

صحيح ان النقود هامة ، الا انني اجد في تقدير الناس لعملي اهمية اكبر .

شيويه ون شو : طيارة فى السلاح الجوى

" برغم جميع الصعوبات التى تواجهنى لست نادمة على انني اصبحت طيارة . . ان من اكثر ما ندمت عليه فى حياتى هو اننى لم استطع اطالة شعرى الجميل . "

ليس فى سلاح الطيران الصينى كثير من الطيارات ذوات المرتبة العليا . وشيويه ون شو واحدة بين اولئك القلة من النسوة .

لشيويه بنية قوية وبشرة قد لوحتها الشمس . عمرها ٥٢ سنة ، وقد سجلت اكثر من ٣٠٠٠ ساعة من الطيران دون ان تتعرض لأى حادث ، منذ تخرجت فى معهد بكين للطيران عام ١٩٥٨ . لقد اجتازت فى مجمل طيرانها مسافة تعادل عشرين دورة حول الارض .

انها واحدة من ١٤٢ طيارة فى المجموعة الثانية التى تدربت بعد عام ١٩٤٩ ولها ثلاثون سنة من الخبرة فى الطيران . قادت خلالها ستة نماذج من طائرات الشحن . وهى مشهورة فى السلاح الجوى بشجاعتها ومهاراتها الفائقة فى الطيران .

وتقول بلهجة بكين المحلية الرخيمة : " لا اظن ان عندى ما اقوله غير الاشارة الى اننى انسانة محظوظة ودائما ما اشعر بأنى سعيدة . ولعل احساسى بأنى محظوظة يرجع الى وجودى فى الجو غالبا بعيدة عن الهموم الدنيوية . "

هل الامر كذلك حقا ؟ باحرازها ثلاث ميداليات على مآثرها العسكرية لا بد ان يكون لديها الكثير مما تحدثنا به .

الحق اقول اننى لم احلم قط بأن اصبح ذات يوم طيارة واستمر على ذلك . وحتى الآن يبدو لى هذا الامر غريبا بعض الشيء حين افكر فيه . ما كنت اطمح اليه حقا هو ان اصبح عالمة او فنانة او شيئا من هذا القبيل .

ربما لم اعمل ذهنى جيدا حين اخترت الطيران مهنة لى ، لكن الطيار فى ذلك الوقت كان موضع احترام كبير ، هذا بالاضافة الى اعجابى الشديد بأسلوب الحياة العسكرية ، وكنت يومها فى التاسعة عشرة من عمرى .

كانت لدى بعد تخرجى فى المدرسة الثانوية خطط كثيرة بشأن المستقبل ، وفى النهاية قررت ان ادخل الجامعة حيث كنت من خيرة الطلبة فى مدرستى . ولكن حين علمت ان السلاح الجوى يجند طيارات عدلت عن دخول الجامعة .

كان الطيار — كما قلت — اعلى شأنا من طالب الجامعة . وكى يقبل الطالب فى معهد للطيران لا بد له من اجتياز كثير من الفحوص الطبية والجسمية ، هذا بالاضافة الى اجتيازه فحوصا سياسية معقدة الى حد لا يطاق ، تتناول حتى ذوى القرابة البعيدة — وذلك للتأكد من صلاحية منشئه الاسرى . ولم ينجح فى تلك الامتحانات الا المتمتعون بصحة جيدة واصول اسرية لا مطعن فيها .

الواقع ان فى هذا ، كما ترى ، تحديا لكل متقدم ، ولاسيما لى انا التى حرصت دائما على ان اكون الافضل . فلم استطع كبح رغبتى الجامحة فى التقدم لهذا المعهد .

كانت الفحوص المتعلقة بالوضع الصحى والجسمى منشطة تماما وقاسية ايضا . وقد اخفق كثير من المتقدمين . ما زلت اذكر الكرسى الدوار . طلب منا ان نجلس فيه ، وادير خمس عشرة دورة ، خمس دورات والعينان مغمضتان ، وخمسا والرأس مخفض . وطلب منى ان افعل ذلك مع فتاة اخرى . وفى الدورة العاشرة ، غابت الفتاة عن الوعى ورأسها مائل . فهرع جميع من كان هناك لاسعافها حتى الضباط المشرفون على الفحوص . وتركت منسية حيث انا . وبعد ذلك طلب منى لسوء الحظ ان اعيد الدوران ثانية — خمس عشرة دورة اخرى ، لكننى اجتزت الفحوص بسهولة .

لا شك اننى كنت فخورة بنفسى . فقد قيل بأن ثلاث عشرة فتاة فقط وقع عليهن الاختيار بين آلاف من المتقدمات . وكنت واحدة من هؤلاء المقبولات .

ان امضاء سنتين فى المدرسة الاعدادية ثم الانتقال بعدها الى معهد الطيران قد كلفانى جهدا شاقا . هل سبق لك ان رأيت سلما معلقا لتمرين التدحرج ؟ كلما تدربنا عليه ، تدحرجنا ١٥٠ مرة على الاقل . وقد تم استبعاد ثلثى المتدربات ، اما انا فبقيت . لم يكن التدريب بالنسبة لى صعبا كما كانت تقول بعض رفيقاتى .

ماذا عن الخوف ؟ اعتقد ان من المستحيل لأى شخص ان لا ينتابه الخوف وهو يحلق للمرة الاولى كطائر حقيقى . بالنسبة لى كاد الخوف يشلنى وانا انتظر الاقلاع . احسست بقلبى سيقفز من مكانه . ولكن حالما ارتفعت فى الجو شعرت بتحسن .

كان هناك بعض الاجحاف بحق الطيارات . فقد جاء فى النقد الذى وجه الينا اننا بطيئات فى الاستجابة ، وليس عندنا من الصلابة ما يكفى ، وسرعان ما نتأثر لأبسط الامور . ولا اعتقد بأن هذه الآراء صحيحة . ان قيادة طائرة ليست لعبة ، بل تتطلب شجاعة ومهارة حقيقيتين . والطيار ذو المهارة العالية يحظى باحترام كبير رجلا كان او امرأة .

ما زلت اذكر يوم فجرت بلادنا اول قنبلة ذرية . كان على وحدتنا ان تجمع عينات لقياس مدى الاشعاع . وتلك مهمة خطرة بالتأكيد ، لكن فيها تحديا ايضا لأنها تتطلب مهارة وشجاعة فى آن واحد . بعض الطيارات تراجعن ، اما انا فلا . لقد ذهبت الى قائدنا مباشرة ، وطلبت منه القيام بهذه المهمة . فتأملنى لحظة وقال :

— اعرف انك من خيرة الطيارات ، ولديك الخبرة التامة ، ولكن هل انت واثقة هذه المرة بقدرتك على اداء المهمة ؟

فأجبته :

— نعم .

فقال :

— حسنا !

ثم عينت ربانة لطاقم من الملاحين الرجال .

اقلعنا من الشمال الشرقى للبلاد ، واتجهنا جنوبا ، فارتفعت الحرارة من عشر درجات تحت الصفر الى اكثر من ثلاثية درجة فوق الصفر . كنا نلبس فى البداية معاطف قطنية . ولكن فيما

بعد اصبحت القمصان لا تطاق لشدة الحرارة . ووصلت الحرارة في الركن المخصص للطيار حدا كدنا لا نتحمله . ومما زاد الامور سوءا ان التيارات الهوائية كانت عنيفة جدا في ذلك اليوم مما جعل الطائرة تتأرجح ما بين ارتفاع وانخفاض . واصيب كل من فيها بدوار اعقبه تقيؤ . وعندما هبطنا اخيرا اضطر بعض الملاحين الى من يساعده على النزول من الطائرة ، لكنني نزلت معتمدة على نفسي . وحدق الى كل من كان على المدرج كأنهم لم يعرفوني من قبل .

حين تكون لدى المرء مقدرة ويستخدمها ، فانه يحظى باحترام زملائه . واصارحك بسر هو انني لم افز باحترام زملائي فحسب ، بل فزت بقلب زوجي ايضا ، ذلك الطيار البارع الذي لم يحاول ابدا اخفاء ازدرائه للطيارات .

كان وسيما جدا ، فوقعت في حبه من اول نظرة . لكنني لم اجرؤ على كشف مشاعري نحوه مخافة اعراضه . وجاءت الفرصة خلال برنامج التدريب ، حين طلب منا ان نقود الطائرات مسفين . لم يتطوع احد غيري ليقوم بالتجربة اولا . واديت المهمة على ما يرام . وحين نزلت من الطائرة رأيت علائم الدهشة والاعجاب في عينيه .

هكذا كانت بداية حبنا . ولما كان مسؤولو معهد الطيران قد اعلنوا انه لا يمكن لأحد ان يتزوج خلال سنوات التدريب الست ، فقد اضطررنا الى ابقاء علاقتنا سرية . كنا نتبادل الرسائل عبر صديق لنا عند تناول العشاء ، ونتواعد على الالتقاء في مكان

قلما بطرفه الناس . كان وضعنا من خلال هذا الحذر الشديد كمن يخوض حرب عصابات .

كان حبنا صعبا ، لكنه ممتع . والحقيقة اننى لا اقصد الجنس . الشبان والشابات اليوم يمكنهم السير فى الشارع متأبطين اذرع بعضهم بعضا ، والقليل من الناس ينتقد هذا المظهر ، بل اصبح التقبيل يمكن ان يتم علنا . اما فى ايامنا فلم نكن نجرؤ على ذلك . كان الخجل يدفعنا الى التباعد فى اللحظة التى نلمس فيها بعضنا بعضا بطريق المصادفة ، برغم شعورنا نحن الاثنين بأننا قد امتلكنا العالم كله .

هل اوشكت علاقتكما ان تكتشف ذات مرة ؟ نعم . كنا نحن الاثنين نسير فى شارع ذات مرة ، فلمحنا قائد وحدتنا يأتى باتجاهنا . فتملكنا الذعر ، وانعطفنا فى زاوية الشارع ، وبقينا لحظة لا نستطيع حراكا .

ومن حسن الحظ انه كان ضعيف النظر فلم يرنا . وتوقفنا عن اللقاء بعدها شهرا كاملا .

كنت فى السادسة والعشرين ، وكان لى الكبير فى الثلاثين ، حين تزوجنا . وانجبنا طفلنا الاول بعد اربع سنوات من زواجنا .

اولادنا لا يشكلون عبئا علينا لأن امى تقوم على رعايتهم نيابة عنى . ونحن نرسل لها النقود كل شهر . وكلانا نميل لتدليل اولادنا . فمرة واحدة فقط صفع فيها زوجى ابنه ، وكان عفريتا . ولكن فى نفس المساء راح يحدثنى عن مدى تأسفه لما فعل .

ليس بوسع اسرتنا الاجتماع سويا كل يوم . فأنا ولى نأتى

الى البيت مرة كل اسبوع ، وعادة يوم الاحد . لذلك كلما التأم شمل اسرتنا ، حاولنا الاستمتاع بكامل وقتنا . انا احب الخروج ولى يحب الاكل ، واولادنا يحبون الخروج والاكل ، لهذا غالبا ما نخرج فى نزهة .

هل من مشكلة مادية ؟ لا ، فالنقود ليست مشكلة . ان الطيارين يتقاضون راتبا اعلى من رواتب ضباط الجيش الآخرين . وفوق هذا لا ننفق الكثير على اللباس لبقائنا بالبزة العسكرية على مدار السنة ما عدا المناسبات الاجتماعية غير الرسمية كزيارة الاصدقاء . فبضع بدلات مدنية تكفى . وهذا يعنى اننا ننفق الكثير من نقودنا على الطعام . ان لى ، الاكول بين افراد اسرتنا ، ينهض باكرا كل صباح ويجرى ثلاثة كيلومترات ليحافظ على لياقته ومظهره .

كنت اعمل واياه فى مدينتين متباعدتين ، فلا نلتقى الا فى الاجازة السنوية ، ومدتها شهر . لذلك اشتاق اليه كثيرا . ولم يكن يكثر من الرسائل ، فكنت اتساءل احيانا : هل ما يزال حيا ؟

بالرغم من كل الصعوبات لست نادمة ابدا على اننى اصبحت طيارة . فخلال طيرانى انعم باتساع فى الرؤية وراحة فى الذهن لا يمكن احرازهما على الارض . لو كنت مكانى لأحسست بنفس الاحساس بالتأكيد .

تجاوزت سن التقاعد المحددة بالخمسين بالنسبة للطيارات ، لكننى ارغب فى الطيران بضع سنوات اخرى . وحين يأتى اليوم

الذى لا استطيع فيه الطيران ، سأطلب ان اصبح معلمة فى معهد للطيران . ان فكرة القعود فى البيت بقية حياتى تضايقنى مثل كابوس . سيقتلنى الملل ان بقيت فى البيت لا افعل شيئا .

بالنسبة لأعمال المنزل نشترك انا ولى فى ادائها . وحين تسيطر علينا حالة من الكسل نلعب سويا لعبة التخمين بالاصابع ، والخاسر هو الذى يقوم بكافة الاعمال المنزلية . ولكن لا ادرى لماذا اكون انا الخاسرة دائما . ان لى على اية حال مستعد دائما لهذه اللعبة .

من سوء الحظ انه لا احد من اولادنا يريد ان يكون طيارا كوالديه ، بل ان ابنتي قالت انها لن تتزوج من طيار برغم ان الطيارين يمتازون بالقوة والوسامة والجاذبية . قالت انها كانت تسأل جدتها عني وهي طفلة . فتشير لها جدتها الى السماء دائما وتقول لها بأن امها مشغولة هناك . ومن ذلك الوقت نما لدى ابنتى شعور بالكراهية تجاه السماء . قالت ان السماء عالية جدا عليها ، فلا تستطيع وصولى . انها تدرس الآن فى كلية الزراعة ببكين .

حين كنت فى المدرسة الثانوية كان الجميع معجبين بضفيرتى الطويلتين الغليظتين . ولكن بعد انضمامى الى السلاح الجوى اضطررت الى قص ضفيرتى وفقا للقواعد المرعية . وان من اكثر ما ندمت عليه فى حياتى هو اننى لم استطع اطالة شعرى الجميل .

الجزء التاسع

فى التعليم

تشانغ جينغ : معلمة فى روضة اطفال

" ارغب فى معايشة الاطفال لأنى احبهم . "

تقع روضة الاطفال فى عمق زقاق ، وهى روضة نموذجية فى مدينة تشانغتشو حيث تفوق الازقة الشوارع عددا .

هذه الروضة بيت من طابق واحد ذو فناء صغير . فيها خمسة واربعون طفلا ما بين الثانية والخامسة من العمر ، وعشر معلمات .

والساعة الآن مخصصة لرياضة الاطفال فى الهواء الطلق . بعضهم يتزلق ، وبعضهم يلعب على النواسة ، وآخرون يمتطون الاحصنة الخشبية المتأرجحة .

الى جانب الاطفال تقف فتاة ممشوقة القامة باسمة الوجه . انها معلمتهم تشانغ جينغ . لا يزيد عمرها عن اثنتين وعشرين سنة ، لكنها تعمل هنا منذ اربع سنوات .

لكل امرئ حلمه الخاص . وكان حلمى فى طفولتى ان

اصبح استاذة جامعية . ولكن بدلا من ذلك اصبحت معلمة روضة .

بدأت عملى هذا عام ١٩٨٤ . وقبل ذلك درست سنتين فى مدرسة ووشى لاعداد معلمى رياض الاطفال . وقد دخلت هذه المدرسة بعد انهائى مرحلة الدراسة الاعدادية .

كانت خطتى فى الاصل ان اتابع الدراسة فى مدرسة ثانوية ، وبعدها التحق بالجامعة . لكن امى عارضت ذلك . وارادت لى ان اتقدم الى مدرسة مهنية لأنها رأت اننى اذا فعلت ذلك فاننى لا اتابع تعليمى واحصل على شهادة فحسب ، بل استطيع ان اوفر على اسرتى بعض النقود .

اسرتنا اسرة كبيرة كانت تتكون من سبعة اشخاص حين كانت جدتى على قيد الحياة (توفيت قبل اربع سنوات) . فى ذلك الوقت كان اخواى الكبيران فى الجامعة .

كان والداى ينفقان كل شهر نقودا كثيرة على تعليمنا . ابى ضابط فى الجيش ، وامى كادرة ، وكلاهما يتقاضيان راتبا جيدا . لكن باعالتهما اسرة كبيرة كأسرتنا دائما ما كانا يعانيان من عوز . اتذكر ، حين اقتنى معظم جيراننا اجهزة تلفزيونية ملونة ، كيف بقينا نشاهد جهازنا غير الملون .

لقد فهمت كيف كان شعور امى تجاه النقود ، لذلك وافقت على رأيها فى النهاية . اننى الوحيدة التى لم تتلق تعليما جامعيا بين الاولاد الاربعة فى اسرتى . اخى الاصغر طالب جامعى الآن ايضا . فكثيرا ما تقول امى بأننى الشخص الذى

يقدم معظم العون لأسرتنا . واعرف انها آسفة لعدم اتاحة الفرصة امامى لدخول الجامعة مثل بقية اخوتى .

كانت دراستى لسنتين فى مدينة ووشى المجاورة من اسعد فترات حياتى . لقد ضم صفنا عشرين طالبة ، وكلهن بنات فى سنى . كنت آنذاك فى السادسة عشرة ، وكانت تلك اول مرة ابتعد فيها عن البيت . كنت هناك افعل كل ما اريد تقريبا . فلا اضطر الى الاصغاء لالحاح امى على بأن افعل هذا او ذاك . لم اتعلم هناك مجرد العناية بالاطفال ، بل تعلمت ايضا الموسيقى والرقص والرسم وكثيرا من الاشياء الجديدة الاخرى . واكتشفت ان مهنتى هذه ليست سيئة كما كنت اظن .

اننى محظوظة بالقياس الى زميلاتى المعلمات فى الروضة ، حيث اعمل فى قسم العناية النهارية ، واطفال صفى فى سن الخامسة اكبر سن فى الروضة . فلست مضطرة الى اعطائهم زجاجات الحليب كما تفعل بقية المعلمات فى صفوفهن ، ولا الى تبديل حفاضاتهم ، او السهر عليهم ليلا وهم نائمون . ولكن هذا لا يعنى اننى لا اعانى من صعوبات . فما زلت اذكر ، حين بدلت لأول مرة بنطالا لطفل تلوث ببرازه ، كيف ظللت محجمة عن الطعام بقية اليوم .

فى صفى خمسة عشر طفلا . ابدأ العمل فى الساعة الثامنة صباحا ، لكننى احضر الى الروضة ابكر بقليل . كل صباح يحضر الاهل اطفالهم الى الروضة عند الساعة الثامنة . ويبدأ الفطور فى الساعة الثامنة والنصف . ويبدأ الدرس الاول فى الساعة التاسعة .

لدينا عادة درسان فى الصباح ، كل منهما يستمر نصف ساعة . وبعد الغداء يأخذ الاولاد قيلولة . وتبدأ دروس بعد الظهر فى الساعة الثالثة ، ويتم تناول العشاء فى الرابعة . وعند الخامسة يتوافد الاهل للعودة بأطفالهم . ولا يمكننى المغادرة الا بعد انصراف جميع الاطفال .

مهنتنا هذه ليست سهلة . فاعطاء درس لمدة نصف ساعة لا بد من الاعداد له مدة ساعتين او ثلاث ساعات ، واحيانا اكثر من ذلك .

على معلمة الروضة ان تتقن اشياء كثيرة . عليها ان تكون قادرة على تعليم الاطفال ليس مجرد اللغة ، بل الحساب والموسيقى والرقص والرسم . ويجب ان تكون ماهرة فى قص الورق والبناء بالمكعبات الخشبية . ونستخدم نحن معلمات الروضة عادة القصص فى توضيح الفرق للاطفال بين الصواب والخطأ وبين الجمال والقبح وبين الخير والشر .

كنت اواجه صعوبة فى سرد القصص . وفى البداية كانت القصص التى احكيها لهم لا تثير استمتاعهم . فأكثرت من المطالعة ، وبذلت جهدا شاقا فى تدريب نفسى حتى اصبحت راوية جيدة . لقد قرأت اندرسون وغرين وايسوبس وكثيرا من الحكايات والاساطير الصينية والاجنبية . وحكيت كثيرا من القصص لأطفال جيراننا . اصبحت الآن اشعر براحة كبيرة فى سرد القصص ، بل استطيع ايضا تأليف بعض القصص من عقلى . بعض الاطفال يلاحقنى طيلة النهار راجيا منى ان احكى له قصة .

كل طفل اليوم هو الطفل الوحيد لأسرته ، فنشأ مدللا عنيدا . كل واحد من هؤلاء الاطفال يعتبر فى بيته " امبراطورا صغيرا " . وهذا النوع من الاطفال قلما يبدى اهتماما بالآخرين ، ويرغب عن اداء كل ما يستطيع اداءه . ونحن بادراكنا هذا الوضع نشجعهم على الانخراط فى النشاطات الجماعية . كما نطلب من جميع الاطفال هنا ان يلبسوا ثيابهم ويرتبوا اسرتهم بأنفسهم . قد نجد احيانا شيئا من التسلية فى مراقبتنا الاطفال وهم يرتدون ملابسهم . بعضهم يكون شديد التحمس ، فيلبس الجاكيت مكان البنطال والبنطال مكان الجاكيت . ومرة قال لى احدهم مفتخرا انه اول من انتهى من ارتداء ثيابه . فأدهشنى ذلك لأنه كان ابطأ الاطفال فى اللبس . ثم تأملته فاكتشفت سبب فوزه . لقد وضع رجليه الاثنتين فى ساق واحدة من ساقى البنطال .

الاطفال مولعون باللعب . ومن طبعهم التململ الدائم . وقد يشتطون احيانا فيصبحون شديدى الازعاج . فبعضهم مثلا قد يركض خارجا من الصف يطارد جدجدا فيما المعلمة تعطى درسا . وآخرون يعبثون هنا وهناك فيما المعلمة تتحدث اليهم . ماذا يمكن ان نفعل عندما تحدث اشياء كهذه ؟ هل نعمد الى صرفهم عن لهوهم هذا ؟ ستذهب محاولاتنا عبثا . لذلك كثيرا ما ادع الاطفال يلعبون على راحتهم . فبعد ان يلعبوا بما فيه الكفاية سيتحولون تلقائيا الى شيء آخر ، وفى هذا الوقت بالذات يمكنك ان تعلمهم اغنية او رقصة او تسرد قصة لهم . ان الاطفال يتذكرون الاشياء التى تقولها لهم فى هذه المناسبة . واعتقد ان

اللعب نفسه نوع من التعليم . فالتعليم ليس شيئا مقتصرا على غرفة الصف ، بل يمكن اداؤه فى كل مكان . وكثيرا ما آخذ الاطفال الى حديقة الحيوانات او الى المسرح السينمائى .

والاطفال شديدو الفضول ، فتجدهم اينما ذهبوا يسألون عن كل ما يرونه ، وبعض اسئلتهم يكون مربكا . مرة سألنى طفل لماذا عينا الدجاجة على جانبى رأسها ؟ وكيف تستطيع ان ترى الاشياء التى امامها ؟ فلم اجد لسؤاله جوابا . والمعلم ليس امرأ يعرف كل شيء . وحين لا يستطيع احدنا الاجابة عن سؤال يطرحه طفل ، عليه ان يقول بصدق انه لا يعرف . من الواجب ألا يخدعه ابدا لأن الطفل يأخذ كلام المعلم حقيقة ثابتة . ومن اكثر الاقوال شيوعا بين الاطفال عبارة : " معلمى قال لى ذلك . "

والاطفال يستوعبون الاشياء المادية اكثر من النظرية ، لذلك يجب ان تكون اللغة التى تستخدمها معهم بسيطة وواضحة . واستيعابهم عموما فى مرحلة تطور ، وهذا يستغرق منهم وقتا للاستجابة . على معلمة الروضة ألا تفتقد صبرها حين يخفق الاطفال فى الاجابة عن السؤال اجابة صحيحة او سريعة . ان الصبر هو اكثر ما تحتاج اليه معلمة الروضة . يجب ان لا تصرخ ابدا بالاطفال . كنت فى السابق سريعة الانفعال ، لكننى خلال السنوات الاربع الماضية تغيرت الى حد كبير . لقد وجدت انه كلما ازداد صياح المعلمة ازداد صياح الاطفال . لكن هذا لا يعنى عدم توجيه النقد اليهم ، بل على المعلمة ان تضبط نفسها تماما بحيث لا تخيفهم . اننى ارغب فى معايشة الاطفال لأنى

احبهم . راتبى ليس مرتفعا ، فدخلى الشهرى الاساسى اقل من خمسين يوانا . ومع ذلك كثيرا ما اشترى هدايا للاطفال فى اعياد ميلادهم . كل سنة اشترى لكل طفل فى صفى هدية . وكلما دخل احد الاطفال مستشفى ذهبت لزيارته حاملة معى بعض الفاكهة . ان علاقتى بهم جيدة ، وهم يحبوننى كثيرا . فى السنة الماضية استعد طلاب صفى لدخول المدرسة الابتدائية . لذلك اقمنا لهم حفلة حضرها بعض اولياء امورهم . كثير من الاطفال بكوا ، وبعضهم تشبث بأطراف ثيابى لا يريد ان يغادر . وفى مناسبات كهذه اشعر بحزن شديد لأننى فقدت شيئا عزيزا .

عندى هوايات كثيرة . احب الرقص والغناء والعزف على الاكورديون . واننى كذلك شديدة الولع بالرحلات . ففى كل اجازة صيفية ازور الاماكن الحافلة بالمناظر الطبيعية . وبمرور السنوات تولد عندى اهتمام شديد باللعب ، وقد جمعت منها كمية كبيرة مثل الدمى وسلال الازهار والدببة والبندات والقطط والجراء والارانب والقطارات والطائرات . وكثيرا ما ادعو الاطفال الى غرفتى لأريهم هذه اللعب .

اعتقد ان المطالعة هى سلوتى المفضلة . فبالاضافة الى جميع الكتب المتعلقة بعملى احب ايضا قراءة الروايات ، ولا سيما قصص الحب .

كان لى حبيب . وكان طيبا ، لكنه سريع الانفعال ، يغضب دائما لأبسط الامور . ولم استطع تحمل ذلك فافترقنا . وامى لا تريدنى ان اتخذ صديقا بطريقتى الخاصة . فهى تخشى من

ان يلحق بى من جراء ذلك اذى . انها ما تزال تعاملنى على اننى
طفلة ، وهذا كثيرا ما يزعجنى .

شياو ون شين : معلمة فى مدرسة ابتدائية ريفية .

" اننى فخورة بكونى معلمة . وتلك مهنة حلمت بها
وانا فتاة صغيرة . لكننى اتمنى احيانا لو لم اكن معلمة .
اظن ان لدى فى الواقع مزيجا من المشاعر ازاء ذلك . "

اصبحت شياو ون شين معلمة منذ عام ١٩٧٠ اثر تخرجها فى مدرسة ثانوية محلية وهى فى التاسعة عشرة من عمرها . انها تعلم الآن اللغة الصينية فى الصف الخامس فى مدرسة ابتدائية ريفية بمحافظة دينغشيان فى مقاطعة خبى بشمالى الصين . وهى تعمل بجد واجتهاد ، وقد كوفئت مرارا بلقب " معلمة نموذجية " او " عاملة متقدمة " . وعملها الدؤوب هذا قد آتى اكله . فتلاميذها دائما ما يفوزون بالجائزة الاولى فى المسابقات المدرسية ، ويندرجون بين خيرة الطلبة فى بلدة تشيدونغ التى تضم اثنتى عشرة مدرسة ابتدائية .

لكنها تبدو مغتمة بعض الشيء عند الحديث عن راتبها الذى لا يزيد عن سبعين يوانا فى الشهر الى جانب العلاوات والاضافات ، وذلك لسبب بسيط هو انها قادمة من الريف ولا تتمتع بمنزلة ساكن المدينة . انها معلمة تابعة لأدارة محلية ، بينما معظم زملائها تابعون للدولة ، ويكسبون اكثر منها بمقدار ثلث ما تكسب ، لأنهم من مناطق تابعة للمدينة . انها تشكو كثيرا من " التمييز بمكان الولادة " . وهى مع ذلك متفائلة بصدد مستقبلها ، وتعلق آمالا كبيرة على الاصلاح الحالى فى مجال التعليم .

انني معلمة ابتدائية عادية ، اعلم اللغة الصينية فى الصف الخامس الابتدائى . كما اعلم الموسيقى فى خمس شعب من الصف الثالث الى الصف السادس .

بدأت التعليم اثر انهائى الدراسة المتوسطة فى المدرسة المتوسطة التابعة لمحافظة دينغشيان مباشرة عام ١٩٧٠ . لقد فرحت كثيرا عندما علمت انني سأعمل معلمة فى المدرسة الابتدائية الريفية بمسقط رأسي . فى منطقتى تلك التى اجتاحها الفقر لم يكن من السهل الحصول على عمل معلمة ، هذه المهنة الجيدة التى تحظى باحترام الجميع . انني ما ازال فخورة بكونى معلمة ، هذا العمل الذى حاز اعجابى منذ اليوم الاول الذى خطوت فيه نحو مدرسة ابتدائية ، وانا فى السادسة من عمرى ، ورأيت معلمتى بمظهرها الانيق تحظى باحترام عظيم . حتى الطلبة الكبار كانوا يحترمونها ويجعلونها بمنزلة والدتهم . فاعتقدت فى ذلك الوقت ان المعلمين اناس من " مرتبة عالية " .

المدرسة التى اعمل فيها الآن تدعى مدرسة تشيلونغ الغربية الابتدائية ، وقد اخذت اسمها من القرية التى ولدت وما زلت فيها . هذه المدرسة ، ولست هازلة فيما اقول ، مجموعة من السقائف تقوم كل سقيفة فيها مقام غرفة صف ، بدلا من ان تكون مدرسة رسمية ذات غرف مبنية . غرف الصفوف بيوت قميئة من الطين ، والمقاعد والكراسى تهتز وتصر على نحو مزعج لدى استخدامها ، والالواح جدران مجصصة ومطلية باللون الاسود . فلا يجد اللص فى هذه المدرسة ما يستحق السرقة . ولعل هذا

هو السبب فى ان المدرسة بلا حارس ، وجميع موظفيها معلمون ، وكذلك المدير الذى يعلم الحساب فى الصف السادس .

اننى ، الى جانب عملى المنتظم فى التعليم ، مولعة بالغناء . لذلك دائما ما اكون المنظمة للنشاطات المدرسية بعد انتهاء الدوام وللعروض المسرحية فى مدرستنا . كما استطيع العزف على الارغن الذى ، وان كان ذا قيمة ، لا فائدة منه بالنسبة للص حيث لن يتمكن من بيعه بسهولة . واحب الرقص ايضا ، ولكننى بصراحة لا احب الديسكو . نحن الريفيين لا نحب رقصا يتم فيه " هز الاوراك " . حركات الديسكو فى رأيى ليست رشيقة ، بل هى حركات قبيحة ، ولكن اذا اداها الاطفال يبدو مظهرهم جذابا .

برغم ان مدرستى بائسة التجهيزات الا انها تظل مدرسة " رسمية " . جميع تلاميذها لا بد ان يدرسوا المواد المنصوص عليها فى منهاج التعليم الذى رسمه وزارة التعليم . اننى معلمة تابعة لادارة محلية . وهذا يعنى اننى لست تابعة وظيفيا للدولة ، واننى اتقاضى راتبا اقل من راتب المعلمين لدى الدولة . انهم يزيدوننى بمقدار الثلث لأنهم من مناطق مدينة ، علما اننا جميعا نعمل بجد . لكننى لا احتاج الى شراء المواد الغذائية ، حيث تملك اسرتى قطعة من الارض تقارب ثلث هكتار ، متعاقدة عليها مع لجنة القرية ادنى جهاز الحكم الريفى .

الروتين ينتظم حياتى اليومية ، فنادرا ما تطرأ تغيرات . اصل الى المدرسة قبل الساعة الثامنة . اعطى اربع حصص درسية فى الصباح . واعود الى البيت بعد الساعة الثانية عشرة . ثم اعطى

ثلاث حصص بعد الظهر ، واعود الى البيت فى الخامسة مساء . ثم ارجع الى المدرسة فى السادسة والنصف حيث اشرف على التلاميذ فى مراجعة دروسهم وتصحيح الاخطاء فى اوراقهم ، او اعد دروس الغد .

اننى كثيرة الانشغال . عندى طفلان ، ولد وبنت . الولد عمره تسع سنوات ، وهو فى الصف الرابع . والبنت عمرها سبع سنوات ، وهى فى الصف الاول . وكلاهما يتعلمان فى مدرستى . وهما طفلان جيدان ومتيقظا الاحساس ، فلا استغرق فى توجيههما وقتا طويلا . والولد مساعدى ، فهو يعتنى بأخته . واقوم فى البيت بتربية اكثر من عشرين دجاجة ، واحرث ارضنا الزراعية . اعمالى اليومية كثيرة جدا : انهض فى الخامسة صباحا ، فأعد الطعام لنا ، ثم اطعم الدجاج ، واجمع البيض . وفى الساعة السابعة اوقظ طفلى من النوم ، واقدم لهما وجبة الفطور . وبعد ذلك اهرع بهما الى المدرسة . احيانا اخرج الى الحقل لأداء بعض الاعمال الزراعية .

تلاميذى يساعدوننى كثيرا . يساعدوننى فى بذر البذور وجنى المحاصيل . واغرب ما فى الامر ان التلاميذ غير الجيدين فى دراستهم والذين لا احبهم اكثر مساعدة لى من اولئك المجتهدين الذين احبهم .

اننى احبهم لا لمجرد انهم يساعدوننى ، بل لأنهم يبذلون من الجهد اكثر من تلاميذ المدن . حين كنت طالبة ثانوية فى حاضرة المحافظة وجدت الكثير من زملائى وزميلاتى لا يعملون

بجد . كانوا كسالى تفتر همتهم حتى عن غسل ثيابهم . والتعلم فى المدرسة كما تعرف اكثر راحة من حراثة الحقول .

زوجى لا يستطيع مساعدتى . انه يعمل فى بكين على بعد ١٨٠ كم الى الشمال من مسقط رأسى . على الرجل ان يقوم بالاعمال الكبيرة ، لا الاعمال المنزلية وامثالها . انه حقا ذو مكانة . فهو رئيس فرقة بناء فى بكين تضم اكثر من مئة عامل . وقد تعاقدت هذه الفرقة التى يرأسها على بناء كثير من المبانى الشاهقة فى بكين وشيجياتشوانغ (عاصمة مقاطعة خبى) وباودينغ وغيرها من المدن . ويكسب نقودا كثيرة ، اكثر منى بكثير . (صمتت لحظة ، ثم ارتسم على وجهها شىء من عدم الارتياح ، واتبعت ذلك بتنهيدة عميقة .) لكونى معلمة تابعة لادارة محلية اتقاضى راتبا شهريا قدره سبعة وثلاثون يوانا . ومع الاعانات والعلاوات والاضافات يصل دخلى الشهرى الى اكثر من سبعين يوانا ، وهذا اقل بكثير مما يتقاضاه المعلمون التابعون للدولة . فعملى معلمة لا يعد نموذجا للعمل المجزى . اننا نتعب كثيرا ، لكننا نكسب قليلا . اننى معلمة تابعة لادارة محلية ، كما تعرف ، فلو ارادت المدرسة ان تفصل معلمة ، لكنت اول من يقع عليه الاختيار .

احيانا اتمنى فعلا لو لم اكن معلمة . موطنى مشهور بأنه "موطن الووشو" (فنون الملاكمة الصينية) ، ينتج السيوف التى يستخدمها لاعبو السيوف . الممثلون والممثلات فى كثير من افلام الكونغفو الصينية ، بما فى ذلك بعض افلام هونغ كونغ ، يستخدمون

ايضا سيوف " التنين الازرق " المصنوعة عندنا . ان سيوف ماركة " التنين الازرق " مشهورة جدا تصدر الى هونغ كونغ وماكاو وبعض بلدان جنوب شرقي آسيا . لو قمت بطبع ماركة تشينغلونغجيان (سيف التنين الازرق) على السيوف ، لكسبت من النقود اكثر بكثير مما اكسبه الآن . وهو عمل سهل ، عمل لا يتطلب وقتا طويلا كي تتقنه . اذا كنت قويا معافى ، فانك تطبع اكثر من مئة سيف فى اليوم . وهذا يعنى عشرة يوانات يوميا . مدرستنا ينقصها المعلمون المؤهلون . فأرسلتنى منظمة الحزب عندنا لتحصيل مزيد من التعليم فى مدرسة المعلمين التابعة لمحافظة دينغشيان مباشرة بين عامى ١٩٧١ و١٩٧٥ . فذهبت لأننى لا اريد لمسؤولى الحزب ان يشعروا بالخيبة . لقد نذرت حياتى كلها لمشاريع الحزب التعليمية ، كما انى احب هذه المهنة واحب التلاميذ .

ولتحسين عملى اقرأ وادرس كثيرا من الكتب فى مجالات مثل علم النفس لدى الاطفال وعلم النفس التربوى . وقد اثمرت جهودى هذه . فثلاثة من تلاميذى الآن طلبة جامعيون ، وأحدهم فى جامعة تشينغهوا اشهر جامعة فى الصين . وفى السنة الماضية هزم يوان شو قوانغ ، افضل تلميذ عندى فى الصف الخامس ، جميع منافسيه القادمين من اثنتى عشرة مدرسة ابتدائية محلية فى مسابقة الخط ببلدة تشيدونغ ، وفاز بالجائزة الاولى . وثلاثة من تلاميذى ايضا فازوا بالجائزة الثالثة بين اكثر من ثمانين تلميذا فى مسابقة الانشاء الاخيرة فى البلدة . اننى لفخورة بأن يكون تلاميذى من خيرة التلاميذ فى هذه المدرسة التى تضم سبع

عشرة شعبة من الصف الاول الى الصف السادس .

انا متفائلة ، لكنني اشعر احيانا بالظلم لكوني من الريف . مضى على فى مهنة التعليم ثماني عشرة سنة ، وانا الآن معلمة نموذجية . كم اتمنى لو كنت معلمة رسمية ، اكسب نفس الاجر الذى يتقاضاه معلمو المدن !

احيانا اشعر بالوحدة ، لا سيما حين آوى الى الفراش ليلا بعد يوم شاق . زوجي لا يعود الا فى عيد الربيع ليمضى شهرا او يزيد . لكنني اقدر انه يخرج ليجمع ثروة . بنينا بيتا آجريا جديدا ، وانا الآن اقيم فيه ، بينما لا يزال هناك اناس يعيشون فى بيوت بائسة مبنية من الطين ، لذلك اعتقد بأن على ألا اتذمر .

ما ازال شابة ، وبعد ثماني عشرة سنة اخرى من العمل فى التعليم سأنضم بالتأكيد الى صفوف المعلمين النظاميين .

جين كاى تشنغ : استاذ جامعى

" النظام التعليمى فى الصين قد اهمل امدا طويلا تطبيق المعرفة وتنمية العقول الابداعية . "

يقيم جين كاى تشنغ مع أسرته المكونة من اربعة افراد فى شقة من ثلاث غرف فى جامعة بكين بالضاحية الغربية من بكين . عمره ست وخمسون سنة ، وهو استاذ من الدرجة الاولى ، ومشرف على الطلبة المرشحين لنيل شهادة الدكتوراه ، وطليعى فى تطبيق نظريات علم النفس فى دراسة الفن والادب الصينيين . وله سبعة مؤلفات .

انه متوسط القامة ، ويلبس نظارة ذات اطار اسود ، ويتصف بالبلاغة والطلاقة فى التحدث . وتحظى محاضراته باقبال شديد من الطلبة فى جامعة بكين احدى ابرز الجامعات فى الصين .

فى المجلس الوطنى السابع للمؤتمر الاستشارى السياسى للشعب الصينى الذى انتهى فى منتصف ابريل ١٩٨٨ انتخب جين عضوا فى اللجنة الدائمة . وباعتباره شخصا قياديا فى جمعية جيوسان ، وهى حزب ديمقراطى فى الصين ، فانه يلعب دورا نشيطا فى الحياة السياسية والاجتماعية مسهما بآرائه واقتراحاته .

فى رأيى ان اعطاء محاضرة يعنى تقديم خدمة . واعتقد ان الهدف الاساسى من القاء المحاضرات هو انشاء صلات فكرية

مع الطلبة . اننا نتحدث آملين من الآخرين ان يصغوا ويستوعبوا تماما كحالنا عندما نكتب . وحين يهز طلابى رؤوسهم مستوعبين موافقين يتملكنى سرور عظيم .

عند محاضرتى فى القاعة دائما ما احاول توسيع آفاق طلابى . واحرص على عدم تكرار ما ليس ضروريا . كما اننى حريص على اختيار الطريقة المثلى للتعبير عما لدى .

ينبغى لأستاذ الجامعة ان يدل الطلبة الى طريقهم ، لا ان يقودهم اليه بيده . فلدى الجيل الحاضر احساس قوى بالهوية الذاتية . انهم يكرهون التعليم الاجبارى .

المثقفون فى الصين لا يحظون بالاحترام الذى يستحقونه . وكثير من الناس عبروا عن ذلك ، وقلة هم الذين يفعلون .

معظم المثقفين فى الصين لا يتقاضون الاجر الذى يتناسب مع جهودهم . ويعيشون فى بيوت مزدحمة ، ولا يتمتعون بصحة جيدة . واسعار كل شيء آخذة فى الارتفاع . فلا عجب فى ان يقول الكثير من الطلبة والمدرسين الشباب فى جامعتنا : "لا جدوى من المعرفة ." بعض طلبتى يرغب فى التحول الى العمل التجارى لكسب النقود ، بينما يريد آخرون الخروج من الصين لكسب الخبرة .

بالنسبة لى اصبحت القراءة والكتابة والقاء المحاضرات طبيعة ثانية . اننى اجد متعة فى عملى . وما افعله ليس روتينا بل غذاء روحيا .

راتبى استاذا ١٦٠ يوانا ، وهذا ما يعادل ٤٠ دولارا . وزوجتي ،

الاستاذة المساعدة فى قسم اللغة الصينية ، تتقاضى راتبا شهريا قدره ١٤٠ يوانا . فواضح اننا لسنا غنيين ، بل فوق المعدل الوسطى نسبيا .

لنا ابنة وحيدة ، متزوجة وتقيم معنا ، وهى مدرسة فى جامعة التلفزيون ببكين ، وزوجها محرر لمجلة فى جامعتنا . هذه المجلة متخصصة فى دراسة السجلات القديمة . وراتب كل منهما يصل الى ١٠٠ يوان تقريبا . فوضع اسرتى لذلك جيد بالقياس الى الاسر الاخرى .

انتقلت الى هذه الشقة قبل سنتين . اجرتها ١٥ يوانا ، وهذا مبلغ ضئيل بالنسبة لمجمل دخل اسرتي البالغ ٥٠٠ يوان . ولكننا ننفق الكثير على الطعام واللباس لأن اسعار ذلك ترتفع باستمرار . وشراء الكتب يأخذ حيزا كبيرا من نفقاتنا ايضا .

وصراحة اقول : يبدو اننا لا نعرف كيف نسلى او نمتع انفسنا . الحياة فى جامعة قد تكون جافة نوعا ما . علينا ان نجد المتعة لأنفسنا ضمن هذه البيئة . حياتى قد تبدو لبعض الناس مملة . اجلس على الطاولة اقرأ واكتب طيلة اليوم ، او اذهب الى الصف وألقى محاضرة . ولكن بمجرد ان يألف المرء هذا العمل ، لا بد ان يجد فيه متعة .

عندى بضع هوايات . اتدرب فى اوقات فراغى على الخط والرسم الملون او حفر الاختام على الحجارة . وسلوتى المفضلة مشاهدة الافلام . ولكن من المؤسف اننى لا استطيع الذهاب الى السينما الا مرة او مرتين فى السنة . هناك سينما فى مجمعنا

السكنى . وفى الجامعة اكثر من ١٠ آلاف طالب و٤ آلاف موظف ، فيصعب عادة الحصول على تذاكر للسينما . ولست قويا الى الحد الذى يمكننى من المزاحمة لشراء تذكرة . والمؤتمر الاستشارى السياسى يرعى احيانا عرض افلام وسط المدينة ، لكننى لا استطيع رؤيتها لصعوبة النقل .

على اية حال استطيع ضمن وقت فراغى ان استمع الى الراديو واشاهد التلفزيون . وكنت فى شبابى احب الاستماع الى اوبرا بكين . واحب الآن " البينغتان " ، وهو نوع من السرد القصصى والغناء الشعبى بلهجة سوتشو . ان " البينغتان " نمط من انماط الاداء الفنى فى موطنى شائع جدا . وقد نشأ حبى له منذ طفولتى المبكرة .

انا عضو فى جمعية جيوسان ، لا فى الحزب الشيوعى . لقد حاولت الانضمام الى الحزب الشيوعى ، لكن طلبى لم يحظ بالقبول . وحين طلبت جمعية جيوسان ، وهى حزب مستقل يتكون بصفة رئيسية من المثقفين ، الاطلاع على آرائى عام ١٩٨١ بدأت اهتم بها . ومنذ انضمامى اليها رقيت فيها بسرعة . فأنا الآن مسؤول عن اعمال الدعاية فى اللجنة المركزية للجمعية .

يجتمع قادة هذه الجمعية مرتين فى الاسبوع . والانخراط فى النشاطات الاجتماعية يشغل جزءا من وقتى ، ولكننى مهتم كذلك بالمشاركة فى الحياة السياسية . واذا كنت مثقفا كبيرا فقط ، كفاك ان تهتم بالبحث وحده ، ولكن ما دمت مسؤولا عن جماعة ، عليك ان تعنى بالآخرين ، وتفكر فى المشكلات

التى تواجه المثقفين . اشعر ان هذا العمل قد وسع ذهنى ومد فى آفاقى ، فلدى الآن من الاستيعاب اكثر مما كان لدى فى السابق .

الناس فى الوقت الحاضر يتحدثون عن الاخذ بالديمقراطية فى الصين ، فأظن ان من المهم وجوب امتلاكنا صحافة اكثر انفتاحا . ولقد ابرزت اهمية الصحافة فى جلسة المؤتمر الاستشارى السياسى التى اختتمت مؤخرا . اننا نحتاج الى المزيد من الانفتاح فى سياساتنا ، والصحافة تستطيع ان تقدم لنا تحليلا افضل لما يجرى .

دعنى استطرد قليلا ، فأقول ان الاستفتاء قد بين ان متوسط عمر المثقفين فى الصين ٥٨ سنة ، وهذا اقل بعشر سنوات من متوسط العمر بين السكان عامة . قليل من الاساتذة فى قسمى يتمتعون بصحة جيدة . فالمدرسون عندنا لا تجرى لهم فحوص طبية عامة منتظمة ، ومن الصعب جدا عليهم زيارة الطبيب .

اصدرت حتى الآن سبعة كتب فى مواضيع متنوعة ، ومن بينها كتاب حول دراسة الادب الصينى التقليدى ، وثلاثة حول علم النفس فى الفنون والادب . كما نشرت سبعين مقالة . ان كتابة المقالة بالنسبة لى عمل ابداعى اكثر من مجرد تكديس للمعارف .

بعض المثقفين يقول : " على المرء ان يركز على قراءة الكتب وهو صغير ، وعلى كتابة المقالات وهو فى الخمسين . " ولا اظن ان هذا الرأى صحيح ، اذ ليس بوسع المرء ان يفصل

بين الابداع والتعلم .

المرء يحتاج الى المعرفة كاحتياجه الى شراء اللحم والخضار . وهو حين يكتب مقالة كشأنه حين يعد طبق طعام . وتنوع الطباخين يؤدى الى تنوع الاطباق . ولن يستطيع المرء الاستمتاع باللحم والخضار قبل طبخهما .

المعرفة قوة ، لكن قوتها لن تظهر الا بعد تطبيقها . ان النظام التعليمى فى الصين قد اهمل تطبيق المعرفة وتنمية العقول الابداعية امدا طويلا .

فى السنوات العشرين الماضية شغلت نفسى بمجالات كثيرة ، منها النظرية الادبية ، وعلم الجمال ، والادب الحديث ، والكلاسيكيات ، وكتابة الاخبار ، ودراسة الكتب القديمة ، ودراسات فى الخط ، وعلم النفس فى الفن والادب . وبعض الناس يلقبنى "متعدد البراعات" ، ويسألنى عن سبب اضطلاعى بهذه الاعمال البحثية الثقيلة . فأجيب اننى مجبر على فعل هذا وذاك .

خبرتى فى الحياة ليست بسيطة . فى عام ١٩٥٧ صنفت "يمينيا" لأننى عبرت بصراحة عن وجهات نظرى فى الظروف الاجتماعية فى الصين ، وطردت من وظيفتى فى التعليم . فى ذلك الوقت كنت مساعدا للأستاذ وانغ ياو الذى كان يدرس الادب الحديث . وبعد ان حدث ذلك اضطررت الى العمل فى جمع المعلومات للآخرين فى غرفة المراجع .

وعشت فى عزلة شديدة آنذاك . فلا احد يكلمنى ، مما

جعلني اعاني من اضطراب ذهني كبير .

في عام ١٩٥٩ عدت الى وظيفتي التعليمية . ومن ذلك الوقت حتى عام ١٩٦٥ عملت مساعدا للاستاذ يو قوه أن فى تدريس الكلاسيكيات . وفى عام ١٩٧١ عهد الى بتعليم كتابة الاخبار . وفى عام ١٩٨٠ بدأت احاضر حول علم النفس فى الفن والادب الصينيين . وفى اعتقادى ان المرء اذا ادى عملا اداء جيدا ، فسينتهى الى حب هذا العمل الذى اداه .

شخصيتي تأثرت بأبوى وبثقافتي . ولدت فى مدينة ووشى بمقاطعة جيانغسو فى شرقي الصين . وكان والدى بائعا فى متجر . وكانت امى ممتهنة الطب الصيني ، وكان خطها جيدا ؛ وقد استوعبت الثقافة الصينية القديمة استيعابا جيدا ، وعلمتنى اشياء كثيرة فى صغرى .

حصلت تعليمى الابتدائي والثانوى فى مسقط رأسي . وكنت الاول فى صفي فى مدرسة فورن المتوسطة ، فلم ادفع رسوم التعليم هناك . وكانت اللغة الانجليزية جزءا هاما من منهاج الدراسة فى تلك المدرسة . وقد اصبحنا قادرين على كتابة مقالات بسيطة بالانجليزية بعد ان تخرجنا فى تلك المدرسة . لكنني نسيت الكثير من اللغة .

دخلت جامعة بكين بعد تخرجي مباشرة فى المدرسة الثانوية عام ١٩٥١ . و بعد اربع سنوات تخرجت ، ثم عينت فى الجامعة نفسها .

ان السنوات الطويلة من التعليم والمنافسة هى التي رسمت طريق حياتي ، وانني راغب فى مواصلة بذلى اقصى الجهود .

الجزء العاشر

فى التعلم

يوان جيون : طالبة فى مدرسة مهنية

" حيث تتوفر الارادة ، يتوفر الطريق . وانا متأكدة من ان عندى ارادة ، لكن اخشى ان لا اكون قد وجدت الطريق بعد . فلعلى اجده فى سنة التنين . "

ان خريجى المرحلة الاعدادية فى الصين يعتبرون المرحلة الثانوية عادة مخرجهم الوحيد ، ذلك لأنها المجاز الوحيد ايضا لنيل شهادة جامعية تضمن لهم الوظيفة . وفى عام ١٩٨٠ كانت نسبة طلاب المدارس الثانوية الى طلاب المدارس المهنية هى ٦٨ر٣ الى ١ .

ومع ان معظم الطلاب ما زالوا يركزون على دخول معاهد تنافسية واختيارية ذات تعليم عال ، الا ان اهتماماتهم اصبحت اكثر تنوعا حيث بات لديهم المزيد من الخيارات .

المزيد المزيد من المدارس الثانوية العامة تحولت الى معاهد للتدريب المهنى . ومع نهاية عام ١٩٨٦ تغيرت نسبة طلاب المدارس الثانوية الى نظرائهم فى المدارس المهنية ، فأصبحت ٢٥ر١ الى ١ ، حيث

ارتفع عدد المدارس المهنية الأجمالى الى ١١ر٩٦٩ مدرسة .

يوان جيون ، وعمرها ١٩ سنة ، واحدة من ٣ر٥ ملايين من الطلبة المهنيين فى الصين عامة . انها طالبة فى السنة الثالثة بقسم الطبخ فى المدرسة الثانوية المهنية رقم ١٠٣ ببكين ، الواقعة فى شيانتونغتان جنوب شارع تشيانمن المزدحم .

نشأت حسب تعبيرها ، فى اسرة متفتحة الذهن . ولدى حديثها عن نفسها وعن الامور الاخرى تتضح ثقتها بنفسها . تشبه هذه الفتاة الممتلئة الوجه امها البالغة من العمر ٥٠ سنة والمتقاعدة من مصنع الانابيب الالكترونية ببكين . وابوها ، وعمره خمسون سنة ، كان جنديا فى القوات الجوية الصينية ، ويعمل الآن مديرا لفندق صغير فى منطقة شيوانو و ببكين .

انها الثانية بين ثلاثة ابناء فى اسرتها . اختها التى تكبرها معلمة فى روضة اطفال وخريجة مدرسة مهنية . واخوها الذى يصغرها يدرس معالجة الاطعمة فى مدرسة مهنية . فثلاثتهم دخلوا مجال التعليم المهنى كما قال ابوهم .

صحيح اننى تواقة الى تدبير معيشتى بنفسى ، واننى لا استطيع الانتظار الى ان ابدأ حياة حقيقية ، لكن قلبى يخفق بشدة حين افكر فى الحياة القاسية التى تنتظرنى . واتساءل هل لدى الآخرين من ابناء جيلى نفس الشعور .

عند جلوسى فى غرفة الصف دائما ما انظر الى خارج النافذة ، ولا اركز تركيزا كافيا على الكتب امامى . ولكن حين اخرج من المدرسة الى الحياة " الواقعية " يخيل الى انى افضل البقاء طالبة الى الابد . وهذا غالبا ما يزعجنى . ان ذهنى كرقاص الساعة تماما ، لا يعرف الاستقرار .

بعد ان انهيت دراستى الاعدادية ، قبل ثلاث سنوات ،

دخلت المدرسة الثانوية المهنية رقم ١٠٣ ببكين لأتعلم فن الطبخ . وكلمة " مهنية " لا تبدو جذابة لكثير من طلبة المدارس المتوسطة . وقد حلمت انا ايضا بأن اصبح طالبة جامعية . لكنني وجدت علاماتي في المرحلة الاعدادية لا تزيد عن المعدل المتوسط . فقلت لأبوى : ربما يكون من اضاعة الوقت ان اتابع الدراسة في مدرسة ثانوية استعدادا لدخول الجامعة . وادركت ان من الحكمة ان ادخل مدرسة مهنية .

لم يعارض ابواى قرارى هذا ، بل قال ابى : " انا وامك لن نجبرك على قبول آرائنا ، لكن يجب ان تكوني مقتنعة بقرارك ما دمت انت التى اتخذته . " ففهمت ما يرمى اليه والداى ، وقلت لنفسى : يجب ان اجتهد واصبح موضع فخرهما .

كان هذا هو القرار الهام الاول الذى اتخذته بنفسى ، وكنت يومها فى السادسة عشرة من عمرى . لقد شعرت بالامتنان لأبوى اللذين وقفا منى موقف التأييد والدعم بدلا من محاولة التدخل فى شؤونى . وسأكون اكثر امتنانا لهما اذا ما نجحت . واعتقد بأنى سأنجح .

كثير من زميلاتى دهشن لقرارى ان اصبح طاهية . وقلن بأن هذا العمل ليس لائقا ، ولا سيما لفتاة . ونصحتنى بعضهن بالدخول معهن مدرسة تدريب لتخريج خادمات فى فنادق بكين ومطاعمها . واعرف ان من الاسهل على الفتاة ان تكون خادمة من هذا النوع ، لكننى ما زلت مصرة على ان اصبح طاهية ، لأننى عندما اكبر يظل بامكانى ممارسة مهنتى ، بينما المرأة الكبيرة

لا تستطيع ان تعمل خادمة . على اية حال لكل فكرته الخاصة في الحياة .

لا شك في ان قوة الارادة مطلوبة للفتيات اللاتي ينزعن الى الانهماك في مهنة الطبخ . فالطباخون في بلادنا دائما ما ينادون بطريقة فيها ازدراء . لكنني لن اهتم بالطريقة التي انادى بها . لا بد لامرئ ما من ان يؤدي هذا العمل ، ولسوف اقوم به حتى ولو عزف الآخرون جميعا عن ادائه .

بعض زميلاتي في الصف تحرج من اخبار الاصدقاء بأنها ستصبح طاهية ، وليس هذا خوفا من ان لا تجد خطيبا . فليست هناك صعوبة اذا كان هذا سبب التخوف ، بل ما يحرج الفتاة في هذه الحالة هو ان تعتبر دون الآخرين منزلة .

ليس هناك كثير من الفتيات يتدربن طاهيات . فليس في صفنا الذي يضم سبعين طالبا سوى ١٣ فتاة . وفي بكين قلة من النسوة طاهيات مؤهلات ، فهذه المهنة يستأثر بها الرجال منذ امد طويل . ولكن لا اعرف بالضبط لماذا اشعر باعتداد بنفسي واري في عملي هذا تحديا .

كثيرا ما يقال بأن الناس يصبحون غير راضين عن اعمالهم بمرور الوقت . فغريب انه لم ينتبني شعور كهذا . بعد ثلاث سنوات من التعلم اجد من المرضي ان اصبح قادرة على انتاج مادة مشهية رائعة . ويسرني ان اري نفسي قادرة على تقطيع الخضار واللحم بأشكال مختلفة وترتيبها في تصاميم انيقة جذابة . كما انني فخورة جدا حين يكون المتناولون مسرورين بما طبخته

لهم من الاطباق :

فى يونيو ١٩٨٦ ، وكنت طالبة فى السنة الاولى ، وقع على الاختيار لدخول مسابقة فى فن الطبخ تشترك فيها اثنتا عشرة مدرسة مهنية من بكين . وقد تم اختيارى قبل اسبوع من بدء المسابقة ، مما اثار اعصابى اثارة شديدة . فشجعنى اساتذتى وزملائى ، وقدموا لى الدعم والتأييد . فما كان منى الا ان قلت لنفسى : " امضى قدما ايتها الساذجة ! "

وكان مطلوبا منى فى المسابقة ان اعد الخيار والبيض واللحم فى صدر بط بكين واللوازم الاخرى فى شكل ببغاوين . فنسيت عمليا كل شيء لحظة اطلاق اشارة البدء . وفى الدقائق الاولى اخذ قلبى يخفق بشدة كأنما سيثب من مكانه ، وراحت يداى ترتجفان . وحاولت عبثا تهدئة نفسى . واغضبنى حقا وضعى هذا ، فسألت نفسى : " ما الذى يثير اعصابك ؟ " ومن الغريب ان هدأنى هذا السؤال على ما يبدو . ونظرت حولى الى بقية المتنافسين ، فبدا عليهم نفس الوضع ايضا . فقلت فى نفسى : " ليسوا بأفضل منى . " وبدأت يداى تعملان على نحو بارع .

استغرقت ساعة واربع عشرة دقيقة فى اعداد الطبق المطلوب ، قبل ست عشرة دقيقة من الموعد المحدد ، ولكن لم اكن الاسرع . ووثب قلبى من مكانه ثانية حين جاء الحكام ليتفحصوا الببغاوين اللذين صنعتهما . فذهبت الى ركن وجلست مضطربة . كنا سبعة متنافسين على الجائزة الاولى . فقلت لمن يجلس بجانبى من الزملاء : " لا بأس حتى لو لم افز بأى ترتيب بين المتنافسين . "

وفجأة سمعت شخصا يهنئني ، وكان مدير مدرستنا . فقفزت من مكانى وجريت نحوه . فقال بفرح غامر كأنما هو الذى اشترك فى المسابقة : " لقد فزت بالجائزة الاولى ! " وقال لى احدهم فيما بعد انه كان يذرع القاعة ذهابا وايابا ، وينظر الى ساعته بين لحظة واخرى . انه رجل لطيف .

لقد حظى هذا الفوز بتقدير عظيم ، لكن هناك شيئا آخر جعلنى اكثر سعادة . كنت غير مدركة ان وو جين هوا ، وهى طاهية من الدرجة الاولى من جمعية الطهاة فى بكين ، قد جاءت تراقب هذه المسابقة . وحين انتهت المسابقة قدمونى اليها . فنظرت الى السيدة وو مليا وقالت : " ارجوك ان تكونى تلميذتى ! "

كدت لا اصدق اذنى . فلم يحدث ان عرض طاه من الدرجة الاولى على طالب طبخ ان يتخذه متدربا لديه . ان هذا ما يحلم به كثير من الطلبة . وانه لشرف عظيم بالنسبة لى ان اصبح متدربة عندها .

لكننى لست فى وضع يمكننى من ذلك . فقد تعاقدت مع مصنع الفولاذ والحديد ببكين الذى دفع للمدرسة ٤٥٠٠ يوان . فاذا فسخت هذا العقد واصبحت متدربة عند السيدة وو ، فلا بد لى من دفع التعويض للمدرسة . ومن اين يمكننى تحصيل النقود ؟ غير اننى صممت على ان اصبح ذات يوم طاهية مثلها من الدرجة الاولى .

ان اسلوب الطبخ الصينى يتطلب قدرا كبيرا من التدريب ، وليس من السهل ان يصبح المرء معلما فى هذا الفن . اتعلم الآن

اعداد الاطباق الباردة المشكلة التى تتطلب مهارة فى التقطيع والطبخ ، وترتيب المقبلات سويا . وكلما ازددت دراسة ازددت ادراكا للقول المأثور : " المعرفة لا حدود لها . "

قبل بضعة اشهر سألتنى قيادة المدرسة عما اذا كنت ارغب فى البقاء فيها بعد التخرج . والمدرسة تدفع ٤٥٠٠ يوان للمصنع ان انا وافقت . وحدثت ابوى بذلك ، فقالا ان الرأى فى ذلك عائد لى . حسنا ، لقد اضطررت الى اتخاذ قرار آخر .

اختى الكبيرة تخرجت فى مدرسة مهنية ، وتعمل الآن معلمة فى روضة اطفال . ومما رأيته وسمعته عرفت ان معلم المدرسة لا يحصل على راتب شهرى كبير كطاه . ومن لا يحرص على كسب المزيد من النقود ؟ ابواى ليسا غنيين فراتبهما الشهرى معا يصل الى ما يقرب من ٢٥٠ يوانا . وفى السنوات الاخيرة انفقا كثيرا من النقود على دراستى . واضافة الى ذلك يحتاج اخى الصغير ايضا الى دعم مالى من اجل دراسته فى مدرسة مهنية . فأدركت ان ابوى يفضلان ان اعمل فى مركز الخدمة الدولى الذى يديره المصنع . وادركت ايضا انهما ضحيا كثيرا من اجلنا طوال هذه السنين . جميع الآباء فى الدنيا يحبون ان يصبح اولادهم احسن حالا منهم .

ترددت فى اتخاذ قرارى اياما . وتحدثت مع اصدقائى المقربين بهذا الشأن ، لكن لم يستطع اى منهم ان يسدى لى النصيحة . واخيرا قررت البقاء فى المدرسة . اعرف اننى لن اكسب كثيرا ، لكن سيكون امامى متسع من الوقت لاجراء بحث فى

اساوب الطبخ الصينى خلال عملى فى التدريس . وبصراحة اقول ان ما شجعنى على البقاء ايضا هو وعد المدرسة لى بارسالى الى كلية للطبخ هذه السنة لتحصيل المزيد من الدراسة .

اتدرب الآن على يد لى قانغ ، وهو رئيس طهاة من الدرجة الاولى ، ومعلم فى مدرستنا ايضا . انه مشهور فى اوساط الطهاة ببكين بمهارته الفائقة فى التقطيع واعداد الاطباق الفنية . وانا سعيدة باتخاذه اياى مريدة عنده ، وممتنة له على تعليمى سائر مهاراته فى الطبخ دون تحفظ .

الطلبة فى المدارس المهنية يدرسون مواد كثيرة بالاضافة الى مهنتهم . فمنهاجنا يتضمن اللغة الصينية واللغة الانجليزية والرياضيات والفيزياء والموسيقى . لدينا مواد كثيرة كأى مدرسة ثانوية عادية ، علما ان مدرستنا تركز على فن الطبخ.

المعلمون لطيفون جدا معى . انهم لا يقتصرون على تعليمى المعرفة العامة ، بل يعلموننى ايضا طرق التعامل مع الحياة . فآمل ان يظلوا عونا لى حتى بعد انهاء دراستى . فى المدرسة كثيرا ما يقال لى بأن الحياة معقدة ، وان التعامل مع الناس اكثر صعوبة من تعلم اية مهارة . اننى لا افهم حقا لماذا لا يعامل الناس بعضهم بعضا باحترام متبادل .

احب فى وقت فراغى سماع الموسيقى والدندنة بالاغانى الشعبية كما يفعل الكثير من ابناء جيلى . واحيانا ارسم . كنت فى السنة الماضية اذهب الى مدرسة فنون مرتين فى الاسبوع لتعلم الرسم . وكانت حصة الرسم تبدأ فى الساعة السابعة مساء ، وتنتهى

فى التاسعة . وقد تعين على الاسراع فى تحركاتى لأن مدرستنا فتحت مطعما ، وألزمت بالعمل فيه حتى الساعة السادسة مساء . فكثيرا ما كنت اصل مدرسة الفنون وانا ألهث . وقد دفعت طبعا رسوم التعليم غير مكترثة بالمبالغ الكثيرة التى انفقتها على دراستى .

اذكر ان امى اعطتنى مرة بعض النقود لأشترى ساعة . لكننى اردت انفاق النقود على شراء كاميرا . ولما عارضت قلت لها بأننى سأتدبر امرى من دون ساعة ، لكننى لا استغنى عن الكاميرا . سأستخدمها فى التقاط صور للأطباق الفنية الباردة التى يعدها مهرة الطباخين . فلم يعارض ابى فكرتى ، وسلمت امى اخيرا برغبتى .

احب دخول المكاتب وتصفح ما فيها من كتب متعلقة بفن الطبخ وبالعناية الصحية فى الطعام الصينى . ادرك ان معرفتى محدودة جدا ، واعتقد بأن الوقت خير ما انفقه على كل ما يضيف جديدا الى موهبتى . واكره اهدار وقتى امام واجهات العرض او فى الثرثرة .

احيانا اقرأ المجلات ، لا سيما مجلة « مختارات للقراء » الصينية . اجدها ممتعة وذات طابع فلسفى . ونادرا ما اقرأ الروايات الشائعة . بينما زملائى فى الدراسة يفعلون ذلك . وحين يتحدثون عما قرأوه اجد نفسى جاهلة الموضوع ، فأقف جانبا اصغى فى صمت .

يجب ان تتوفر لى ، بوصفى طالبة مدرسة مهنية ، خبرة عملية فى الطبخ قبل ان اتأهل لاستلام العمل . ففى الفترة الاخيرة لا اجد الوقت لأداء ما ارغب فى ادائه . ومنذ وافقت على البقاء فى المدرسة لأصبح معلمة لم اعد اعامل معاملة طالبة . فقد وضعت المدرسة

عددا من الطلبة تحت اشرافى ، وارسلتنى لأعمل طاهية فى مطعم جديد تديره المدرسة . ان العمل التطبيقى مفيد لتدريبى ، لكنه ليس فى صالح هواياتى التى امارسها فى وقت الفراغ . وحيث اننى لا انتهى من عملى فى هذا المطعم قبل السابعة والنصف مساء ، فقد اضطررت الى التوقف عن دروس الرسم . اننى اصل الى البيت متعبة وعلى غير استعداد للقراءة .

اننى عريفة الصف ومشهورة بين الطلبة . فهم ، ولا سيما البنات ، كثيرا ما يشكون لى همومهم . وانا ايضا احب ان افضى اليهم بمكنوناتى .

نتحدث عادة فى كل ما يهمنا . واحيانا نتحدث عن الحبيب ، ولا ارى فى هذا ما يعيب ، أليس كذلك ؟ لكننا نتحدث فى هذا الامر خفية عن معلمينا لأن المدرسة تحظر على الطلبة اى امر يتعلق بالجنس الآخر . واظن ان قاعدة كهذه ضرورية . فهى تحمى الطلبة من مخاطر حب المراهقة . لكننى سمعت بعض الطلبة يقول ان كثيرا من المشاهير قد مروا فى تجربة حب رومانسية مبكرة كان لها تأثير نافع فى عملهم .

وبعضهم يرى ان الحب المبكر ليس الا صداقة عابرة : ولا اعتقد ان هذا الرأى منصف . فليس جميع الطلبة عابثين فى حبهم ، وان كان بعضهم لا يتخذ موقفا جديا فى هذا المجال . ثم ان الحب المبكر لا يعنى الزواج المبكر ، أليس كذلك ؟

اجد بعض الكبار لا يفهمنا نحن الناشئة . انهم ينظرون الينا على اننا اطفال صغار ، ويتوقعون منا ان نلتزم طرقهم كما التزموا

هم طرق سابقيهم . فأقول ان هناك حقا نقصا فى الفهم بين الجيلين . اننا بحاجة الى تبادل الآراء والافكار ، أليس كذلك ؟

قد تظن مما اقول ان لى حبيبا ، لكننى فى الواقع حتى الآن لم اجد الشخص المثالى الذى اتخذه حبيبا . كما انى ارى ان الوقت ما زال مبكرا بعض الشيء لتوجيه اهتمامى الى هذا الامر . مرة تحدثت مع امى بهذا الشأن ، فنصحتنى قائلة : " اذا قمت باختيارك على عجلة من امرك ، فماذا ستفعلين حين تجدين من هو افضل منه ؟ " فرأيت ان من الحكمة ان انتظر حتى اجد الشخص المناسب .

وذات مرة تحدثت مع زميل من صفى . فسألنى عن نوعية الرجل الذى اطمح الى ان يكون شريك حياتى ، فلم اجبه مباشرة ، بل سألته عن نوعية الفتاة التى يطمح اليها . فقال انه يفضل فتاة شرقية لا تعمل . واجبت بأنى اطمح الى شاب شرقى ناجح فى عمله .

وقلت فى نفسى : " ايتها الفتاة ، ما زال الطريق امامك طويلا . " عندما حدثت ابوى بذلك شجعانى قائلين : " حيث تتوفر الارادة يتوفر الطريق . " وانا متأكدة من ان عندى ارادة ، لكننى اخشى ان لا اكون قد وجدت الطريق بعد . فلعلى اجده فى سنة التنين التى يعتقد بأنها سنة الفأل والحظ السعيد .

تشنغ مينغ : طالب جامعى

" اننى قلق بشأن مستقبلى . "

ان تشنغ مينغ البالغ من العمر اثنتين وعشرين سنة واحد بين مليونى طالب جامعى فى الصين . وما يجعله مختلفا عن كثير من الطلبة الصينيين هو انه بين القلائل فى الصين الذين درسوا فرعين او اكثر من فروع المعرفة فى مدى اربع سنوات ، وانه يدرس فى جامعة من افضل جامعات البلاد .

كانت جامعة بكين ، او " بى دا " كما يشار اليها بالصينية ، قائدة عدد كبير من الحركات الطلابية الواسعة النطاق التى هزت الصين القديمة . وحركة ٤ مايو ١٩١٩ هى الباعث للحركات السياسية الصينية الحديثة . وكان شعارها " ليسقط النظام الاقطاعى ، ليسقط العدوان الامبريالى ! " وحركة " التاسع من ديسمبر" ١٩٣٥ قد عكست غضب الشعب الصينى ازاء الغزو اليابانى . وطلاب " بى دا " قد لعبوا الدور القيادى فى هذه الحركة .

تشنغ مينغ ، وهو الآن طالب فى سنة التخرج ، بدأ دراسته طالبا فى قسم الرياضيات . ولما وجد المنهاج فى هذا القسم بالغ التعقيد والصرامة ، تحول الى قسم اللغة الصينية وآدابها .

انه يشترك مع ستة طلاب آخرين فى المهجع . وحيث ان الغرفة تضم اربعة أسرة ، كل منها بطابقين ، لم يبق فيها الا متسع لسرير واحد يضع عليه الطلبة صناديق ثيابهم وحوائجهم الاخرى . وفى الغرفة اربع مناضد صغيرة تجعلها ملائمة لدراسة بعضهم مساء .

والدراسة فى الجامعة مجانية ، وكذلك السكن . لكن تشنغ ينفق كل شهر مئة يوان تقريبا على طعامه وكتبه وبعض الامور الاخرى . خمسون يوانا ترده من ابيه المزارع ، وعشرون من الجامعة ، واربعون يكسبها من عمله فى كافتيريا الطلبة مساء كل سبت .

ولدت لأب مزارع فى محافظة جيانغنينغ بمقاطعة جيانغسو . اننى اول طالب جامعى فى اسرتى منذ اجيال . حين نجحت فى امتحان القبول بالجامعة ، وقبلت فى جامعة بكين بكت امى من شدة الفرح .

عندما انهيت دراستى الثانوية تناقش ابى وامى فى مسألة استكمال تعليمى . ارادنى ابى ان ابقى فى البيت لأننى الولد الاكبر فى الاسرة ، ولأن اختى واخى ما زالا صغيرين جدا لا يستطيعان تقديم مساعدة كبيرة له . واكثر من هذا ان تعليمى فى الجامعة ، كما قال ، سيكون عبئا ماديا ثقيلا على الاسرة ، لا تستطيع تحمله .

لكن امى اصرت على متابعتى للدراسة ما دمت قد افلحت فى دراستى الثانوية . وقالت بأن مستقبلى سيكون افضل ان اصبحت رجلا مثقفا . واكدت ايضا ان اية اسرة فلاحية ترسل ابنها الى الجامعة بكل سرور اذا هى رأت انه سيبلغ " المرتبة " التى تطمح اليها .

برغم ان ابوى لم يحصلا على قسط وافر من التعليم ، الا انهما يكنان احتراما عظيما لرجال العلم . وتشكلت لديهما وجهات نظر مختلفة بصدد مسألة تعليمي .

لذلك عندما غادرت البيت الى بكين عاهدت نفسى على ان ابذل كل ما فى وسعى لتحقيق آمال امى بى .

وذهلت حين وجدت فى الجامعة نشاطات كثيرة جدا الى جانب المنهاج الدراسى . فهناك محاضرات ، ومسابقات فى الشعر والخطابة ، ونواد وكافتيريات وحفلات رقص ، ولقاءات رياضية . لكننى لم استطع الاشتراك فى كثير من هذه النشاطات لأن المنهاج الدراسى فى قسم الرياضيات يتطلب منى ان اعمل كالآلة ، ولا يبقى لشؤونى الخاصة الا وقت يسير . فى كل طابق لمهاجعنا جهاز تلفزيون ملون . وانا استمتع عادة بمتابعة ألعاب الكرة ، لكننى لم استطيع مشاهدتها لثقل الواجب الدراسى المنزلى الذى يجب ان انجزه مساء .

بعد انتهاء السنة الاولى قررت التحول الى قسم اللغة الصينية وآدابها . فتقدمت بطلب ، وخضت امتحانا آخر . وبفضل اهتمامى البالغ بالادب الصينى اجتزت هذا الامتحان .

ان قسم اللغة الصينية وآدابها اسهل بكثير وامتع من قسم الرياضيات . فليس الواجب المنزلى ثقيلا كما هو فى سابقه ، وعدد المحاضرات اقل بكثير . لدينا اربع مواد تقريبا فى كل فصل دراسى ، ولدينا فى هذا الفصل مادة واحدة فقط . فكل ما احتاج اليه هو ان اقرأ واقرأ واقرأ .

احب ايضا الكتاب الغربيين المحدثين . وجيمس جويس احد الكتاب المفضلين لدى ، وبامكانى ان اتلو مقاطع بكاملها من « الارض اليباب» لايليوت . واشد ما آسف له اننى اقرأ جميع

هذه الاعمال بالترجمة الصينية . احب ان اقرأها بلغتها الاصلية . وهذا ما يدفعنى الى الاجتهاد فى اللغة الانجليزية . الجامعة تدرس الانجليزية فى السنتين الاوليين فقط ، غير اننى ادرسها الآن بنفسى .

فى جامعة بكين كثير من المواد الاختيارية . فمنذ تحولت الى القسم الحالى اخترت عشر مواد تقريبا ، من بينها الفلسفة الغربية . والاستاذ المساعد فى قسم الفلسفة واسع الاطلاع ، وبليغ جدا فى اسلوبه . ومحاضرته فى غاية الجودة . حين يعطى محاضرة تغص القاعة بالطلبة ، ويقف الكثير خارج النوافذ يصغون باهتمام . الفلسفة الغربية رائجة جدا بين طلبة جامعة بكين فى هذه الايام . قبل فترة مضت كان هناك عبادة لفرويد . ثم تلت ذلك فترة درس فيها الكثير سارتر . واصبح نيشته الآن موضوعا ساخنا للمناقشة فى مساكن الطلاب بالجامعة .

اننى اقرأ على نحو مكثف ودون تمييز . وارى ان المناقشة والترحال شكلان من اشكال التعلم بالنسبة لطالب الادب . ان من افضل فترات اليوم عندى حين نستلقى نحن السبعة فى اسرتنا داخل جناحنا السكنى ونتحدث بحرية ليلا بعد ان تطفأ الاضواء ، منتقلين فى حديثنا من موضوع لآخر .

قبل فترة قام اوغاد من قرية مجاورة بقتل احد زملائنا . فقام طلاب جامعة بكين باحتجاجات ومظاهرات . واعتقد ان احتجاجاتنا قد استجيب لها . فبعد وقت غير طويل سيق المتهمون الى المحكمة ، ثم حكم على المجرم بالاعدام واعدم .

انا لم اشترك فى المظاهرات اذ كان على ان اهتم بشأن تخرجى . فبعض الاقسام الآن شديد التدقيق فى تعيينه الخريجين . والاقسام مضطرة الى فعل ذلك لأن الكثير منها فيه من العاملين ما يزيد عن الحاجة . ونحن الخريجين شديدو الحرص فى اختيارنا ايضا . فأنا كنت طالبا مثاليا حين دخلت هذه الجامعة . وبعد اربع سنوات من الدراسة اصبحت عمليا الى ابعد حد . لم اصبح بعد كاتبا ناضجا . ولا اريد ان اصبح مدرسا فى المدرسة المتوسطة ، هذه الوظيفة التى يمكن ايجادها بمنتهى السهولة ، لأن راتبها منخفض واعباءها ثقيلة . آمل ان اتمكن من ايجاد وظيفة فى مشروع تجارى صينى - اجنبى مشترك . لكنى اعرف ان هذا ليس سهلا . لهذا اجدنى قلقا بشأن مستقبلى .

فى الوقت الحاضر يتحدث كل من رجال الحكومة وخبراء التعليم عن الاصلاحات فى مجال التعليم ، تلك الاصلاحات التى ارى اننا بأمس واسرع الحاجة اليها . المنهاج يجب ان يكون اكثر مرونة . ومحتوى المواد التعليمية يجب ان يظل مواكبا العصر . واذا توقفت الدولة عن ايجاد وظائف للخريجين ، فلا بد من تهيئة ظروف لجميع الخريجين يكون التنافس بينهم فيها على قدم المساواة حتى لا يضيع امثالى ممن لا " واسطة " لديهم فرصتهم .

لقد وضعت الدولة ثلاثة نماذج من الاعانات الشهرية - ٢٠ و١٥ و١٠ يوانات - للطلبة القادمين من اسر منخفضة الدخل . ويحل الآن تدريجيا نظام المنحة الدراسية محل نظام

الاعانة ليشكل حافزا اكبر على الانجاز الاكاديمى . فالذين يحصلون الآن على اعانات الدولة يشعرون بضائقة مع ارتفاع الاسعار السريع جدا . لذلك تشجع السلطات الطلبة على العمل بطريقتهم الخاصة خلال دراستهم الجامعية . فاضافة الى الكافتيريا التى اعمل فيها مساء كل سبت هناك ايضا طلبة يديرون متاجر تبيع المأكولات والملابس والقرطاسية . وبعض الطلبة يكسب نقودا من خلال تعليمه طلبة من المدرسة المتوسطة .

لى حبيبة تعمل جابية ضرائب فى مقاطعة جيانغسو . كانت زميلتى فى المدرسة الثانوية . انها جميلة . فى البداية عارض والداها علاقتنا لأنهما اعتبرانى قصيرا جدا وقاتم البشرة . لكنها تحبنى . وافكر الآن فى وسيلة لاحضارها الى هنا كى تعيش معى فى بكين اذا ما حصلت على عمل فى العاصمة . او هل يكون من الافضل لى ان اذهب لأعمل حيث هى تعمل ؟ لم اقرر بعد .

الجزء الحادى عشر

فى البحث والتنقيب

تشانغ تشنغ فا : جيولوجى

" اذا منحت عمرا آخر ، فأظن انى سأختار دراسة الجيولوجيا ثانية . "

يبدو تشانغ تشنغ فا كمثقف صينى نموذجى ، فهو نحيف ، وله شعر اشيب لا يسرحه وعينان ضيقتان تغطيهما نظارة ذهبية الاطار . انه الآن فى التاسعة والخمسين من عمره ، وهو واحد من اوائل الطلبة الجامعيين الذين احرزوا ثقافتهم فى الصين الجديدة . لقد انضم الى اكاديمية العلوم الصينية ، واصبح واحدا بين ١٥٧٠ متخصصا انهمكوا فى ثمانية مشاريع مسح كبيرة شاملة لهضبة تشينغهاى – التبت تحت اشراف الاكاديمية منذ عام ١٩٥١ .

انه لا يتذكر تماما كم من الاستكشافات قام بها التبت ، لكنه يقول بأنه قد ذهب اليها عشرات المرات . الا ان توضيحه العلمى لتكوين وتطور هذه الهضبة التى تعد اعلى واضخم واحدث هضبة فى العالم مشهور جدا وقد حظى بقبول واسع داخل الاوساط الجيولوجية . البروفسور السويسرى

اوغستو غانسر الخبير بجبال هيمالايا دعاه : " الرجل الذى يعرف التبت اكثر من اى عالم آخر على قيد الحياة . "
التقيته فى مكتبه داخل مبنى من خمسة طوابق فى الضاحية الشمالية من بكين . وكان هذا المبنى المتخذ شكل علبة كبريت يشتمل على خمسة معاهد من بينها المعهد الجيولوجى الذى يعمل فيه . وكان يشغل مع اربعة زملاء آخرين غرفة مساحتها ٣٠ مترا مربعا . ويبدو ان الحبر والاقلام هى كل ما يمتلكه هؤلاء العلماء من لوازم مكتبية .

لقد اصبح الذهاب الى التبت اليوم اسهل مما مضى — مجرد يوم بالطائرة . عندما ذهبت اليها اول مرة عام ١٩٦٠ كانت الامور مختلفة كل الاختلاف . فالقطار كان ينتهى عند لانتشو حاضرة مقاطعة قانسو . ومن هناك بدأنا ركوب الشاحنة الذى استمر اسبوعين . ولم اكن جالسا فى مقدم الشاحنة ، بل ركبنا فى عربتها المغطاة بخيمة .

اصابنى غثيان بسبب الارتفاع ، فالتبت ترتفع عن سطح البحر بمعدل ٤٠٠٠ م . تملكنى الدوار ، وتقيأت مرات كثيرة ، وفقدت الشهية للطعام . وحيث لا دواء للمرض الناجم من الارتفاع ، فما كان على الا ان اعانى فى صمت . ويبدأ المرء فى التحسن بعد ان تجتاز معاناته مرحلة معينة . تلك كانت حالتى . والغريب فى الامر ان المرات التى زرت فيها التبت وانا شاب عانيت خلالها اشد المعاناة ، ولكن مع تقدمى فى السن اصبح تحملى افضل بكثير . ربما يحدث التقدم فى السن ردات فعل فسيولوجية معينة .

كان عندى انطباع دائم عن لاسا بأنها مدينة جميلة . انها محاطة بالجبال التى تؤخذ منها حجارة الغرانيت لبناء الصروح

فى هذه المدينة التى كانت متفردة باستخدامها هذا النوع من الحجارة . فى عام ١٩٦٠ كانت التبت منطقة جرداء معزولة تقريبا . اما اليوم فقد ركبنا سيارات الجيب للقيام بأعمالنا الميدانية بدلا من استئجار الخيول فى الماضى لأداء هذه المهمة .

لم تكن سروج الخيول مريحة ، فكان من السهل ان نسقط عنها . وكثيرا ما سقطت على الارض . وكانت فى الارض جحور كثيرة تزل بسببها قوائم الخيل محدثة لراكبها رجة عنيفة . واحيانا كان يتعذر علينا ايجاد طريق يسلكه الحصان ، فنضطر الى السير على الاقدام . وكنا نقضى الليل فى بيت احد الاهالى هناك او فى خيمتنا .

ما اكثر الاشياء ترويعا فى الهضبة ؟ انه عبور النهر . لم تكن هناك جسور . ومعديتنا لم تكن سوى رمث من جلد الثور لا يتسع لأكثر من ثلاثة اشخاص . وكان النهر مملوءا بالمنحدرات ، وكانت مياهه باردة لا تطاق لأن مصدرها الثلوج التى تذوب من الجبال . فالسقوط فى النهر قد يعنى النهاية . وكان الرعد المتكرر صيفا شيئا مرعبا كذلك .

ماذا عن الحيوانات المفترسة ؟ لم ار قط اى اثر للانسان الثلجى الخرافى او لوحوش البحيرة الغريبة الشكل المخيفة . اننى لا اعتقد بوجودها ، ولم ار شيئا من هذا على الاطلاق .

خلال رحلاتنا القليلة الاولى حملنا معنا طعامنا المشتمل على تسانبا (نوع من دقيق الشعير المحمص ، الغذاء الثابت للتبتيين) والزبدة . وكنت اتحمل مذاقها برغم سوء رائحتها . وفيما بعد

اصبحت لدينا سيارة جيب ، فوضعنا فيها ادوات مطبخية . واصبحنا بعد ذلك قادرين على طبخ الارز . لكننا لم نستطع ذلك طبعا دون القدر الضغطية . وكانت الخضار الطازجة نادرة . وليس بوسعك ان تأكل المعلبات على نحو دائم ، أليس كذلك ؟

الادوات التى نستخدمها نحن الجيولوجيين بسيطة الى حد ما . واهتمامى الخاص هو بالتكتونية * او بالملامح البنيوية الجيولوجية . اننى اراقب النماذج الصخرية التى اراها خلال جولاتى ، واقتطع منها عينات ، ثم اعود بها واحللها فى المختبر .

ليس من السهل ان استثار بوصفى عالما . ولكن بمجرد ان يقع نظرى على شيء غير مألوف او شيء اتوقعه من وقت طويل ولكن لم يسبق لى ان رأيته ، فعندها استثار — كالعثور مثلا على نوع معين من البازلت . فذلك الصخر القاتم ذو المنشأ البركانى ، بشكله الشبيه بالصفصاف ، يتواجد عادة فى قاع المحيط . فقد سرنى ان اجد نماذج كهذه على امتداد نهر يالوتسانغبو . هذا الجزء من التبت كان حوضا بحريا قبل ان يرتفع نتيجة تصادم الكتل الارضية قبل ثلاثة ملايين سنة .

كانت المعلومات حول هضبة التبت ضئيلة جدا عندما زرناها لأول مرة . قبل بعثتنا للاستكشاف لم يكن قد زار المنطقة الا شخص واحد من معهدنا هو البروفسور لى بو الذى ذهب الى التبت مع جيش التحرير الشعبى عام ١٩٥١ . وقد قام يومها

---

* تشير الى عملية التشويه التى تغير شكل قشرة الارض محدثة القارات والجبال .. الخ .

ببحث اساسی حول عمر الطبقة وتوزع الصخور والمناطق المشتملة على رواسب معدنية . وما تزال تسجيلاته ذات قيمة كبيرة . لكن بحثه انحصر فى القسم الشرقى والاوسط من التبت ، فلم يصل الى الاماكن التى زارها فيما بعد . اما بالنسبة للباحثين الاجانب فقد قاموا ببعض الابحاث فى الزاوية الغربية بجانب شينجيانغ .

لقد قام الجيولوجيون الصينيون بمعظم الابحاث حول هضبة تشينغهاى — التبت ، وكانت من اكثر الابحاث اتساعا وشمولا . ولم يقتصر نفعها على الصين وحدها ، بل شمل سائر جمهور الباحثين الدوليين المعنيين بدراسة الارض .

اننى لم اختر التبت مكانا للدراسة ، بل كلفت بذلك تكليفا . لكن اهتمامى بها اخذ يتنامى مع تعمق بحثى . واصبحت بعدها اكثر تعلقا بهذا الامر .

دخلت القسم الجيولوجى فى جامعة بكين عام ١٩٥٠ . ولدى تخرجى عام ١٩٥٣ طلب منى البقاء لدخول دورة للخريجين مدتها ثلاث سنوات يقوم بالتدريس فيها اساتذة روس . واذكر ان امتحانى الاخير كان حول البنية النفطية لحوض سيتشوان .

وفى عام ١٩٥٦ انضممت الى المعهد الجيولوجى . وكانت اول مهمة كلفت بها هى الذهاب الى حوض تشايدام فى مقاطعة تشينغهاى لأقوم بدراسة البنية النفطية هناك . وفى السنة التى تلتها ذهبت الى جبال آلتون الممتدة من تشينغهاى الى شينجيانغ . وحررت ايضا اول خريطة تكتونية صينية .

ومع وجودى على حدود التبت تقريبا تضاعف فضولى بخصوص

هذا المكان . ان هضبة تشينغهاى — التبت واسعة جدا تغطى مساحة قدرها ٢ر٢ مليونى كيلومتر مربع او خمس مساحة اراضينا . وفيها اجابة عن كثير من الاسئلة الملحة . اردت ان اعرف مثلا كيف ومتى تشكلت ارض ضخمة بهذا الارتفاع ؟ وماذا كانت ملامحها ؟ وما تأثير ذلك التشكيل فى البيئة المحيطة ؟

وفى عام ١٩٦٠ وجدت ما يشبع فضولى حين طلب منى المعهد ان اشترك فى بعثة اكاديمية الى الهضبة . ومنذ ذلك الحين اصبحت اقوم برحلة الى التبت كل سنة تقريبا .

نذهب الى التبت عادة فى اوائل مايو ، ونعود منها فى سبتمبر . ولا نعطل فى الآحاد خلال عملنا فى حقول المسح . ولا نجد عند انهماكنا فى العمل وقتا نخلو به لنوازع الحنين والشوق الى مسقط رأسنا . كنت اراسل اسرتى مرة كل شهر ، وكانت الرسالة تستغرق شهرا واحيانا شهرين حتى تصلهم .

تزوجت عام ١٩٦٣ ، وكنت يومها فى الخامسة والثلاثين . وكثير من ابناء جيلى آثروا الزواج متأخرين . زوجتى قوه بوه تشى قد درست علوم التربة . ونعرف بعضنا بعضا منذ الطفولة . لقد اضطرت الى تحمل معظم اعباء الاسرة بسبب غيابى الكثير عن البيت . اننى لا اعرف متى ولد ابنى . لقد بقينا منفصلين منذ زواجنا مدة قاربت عشرين عاما ، حيث انها لم تعمل فى بكين . لقد ربت ابننا وابنتنا بمفردها ، وقد اعتاد ولدانا مجيئى وذهابى المتكررين .

ماذا عن تأثير الثورة الثقافية فى عملنا ؟ طبعا لقد اثرت فى

ابحاثنا الى حد ما . لقد خططنا للبقاء فى التبت عام ١٩٦٦ ، لكن الظروف السياسية اعترضتنا فى منتصف الطريق . وبعودتنا الى المعهد لم نجد ما نفعله سوى الاجتماعات والدورات الدراسية . وتجمعنا داخل " جماعات" و" فصائل " ، واصبح عدد من سائقى الشاحنات " قادة " لنا . وكانت الفكرة السائدة فى تلك الايام هى ان " العمال يجب ان يشرفوا على كل شىء " .

ولكن ظل الاستكشاف العلمى لهضبة التبت برنامجا رئيسيا للأكاديمية . وكان فى الاكاديمية دائما شخص مسؤول عن هذا العمل حتى فى تلك السنوات . فقمنا برحلات سنوية الى التبت فى عام ١٩٦٧ و١٩٦٨ و١٩٦٩ . وحتى عصابة الاربعة (كانوا يسيطرون على الوضع السياسى خلال الثورة الثقافية) كانوا بحاجة الى منجزاتنا من اجل اهداف دعائية . وقد احتل عملنا مرة صفحة كاملة من صحيفة الشعب اليومية .

ذهبت الى مدرسة الكوادر عام ١٩٧٧ فور انتهاء الثورة الثقافية . وكنا بين المجموعة الاخيرة . لقد اصر " اليساريون المتطرفون" على ان يشترك كل واحد فى تلك " التجربة " . وحيث ان هذا " الدرس" فاتنى فقد اضطررت الى تحضيره . لم اكن اخشى العمل الجسمانى ، فقد عملت فى الحقول وانا طفل . فى مدرسة الكوادر زرعت الارز . وكنت متفوقا فى ذلك . لكننى لم امكث طويلا . وبعد بضعة اشهر دعيت للقاء بعض الزملاء الاجانب الزائرين .

ولدت فى قرية فقيرة بمقاطعة شانشى فى شمالى الصين .

ومات والدى وانا طفل رضيع . وكانت اسرتى ريفية فقيرة ، لكننى احببت القراءة . كنت فى المرحلة الابتدائية حين غزا اليابانيون الصين : فهربت من الغزاة مع اعمامى الذين كانوا تجارا صغارا . واجتزنا طريقنا كلها سيرا على الاقدام ، من شانشى الى خنان ، وبعدها الى شنشى فى الشمال الغربى . وواصلت القراءة فى الطريق . واخيرا استقر بنا المقام فى هانتشونغ .

فى تلك الرحلة الشاقة فتنتنى اشكال الجبال التى رأيتها فى الطريق . وتشوقت الى معرفة كم من الزمن مضى على تشكلها . ولعلى من ذلك الحين اصبحت اسير هذا الاهتمام الجيولوجى دون ان ادرى حقيقة ذلك .

بعد سنوات طويلة من اعمال البحث اعتقد اننا توصلنا الى فهم جيد لهضبة تشينغهاى ـ التبت . وقد فاز مشروعنا بجائزة وطنية خاصة عن البحث فى العلوم الطبيعية . اشترك فى هذا المشروع علماء من فروع للمعرفة كثيرة ، كمتخصصين فى الجغرافيا وعلم النبات والبيولوجيا وعلم الحيوان والفيسيولوجيا وغير ذلك .

هل كانت المكافأة نقودا ؟ قالوا اننا سنحصل على بعض النقود ، لكن ذلك لم يحدث قط . ربما كان من المستحيل تقسيم النقود على هذا الحشد الكبير من المشتركين . ان اهتمامى الرئيسى منصب على ما اذا كانت النظريات التى بسطتها على الورق قد لقيت اعتراضا او قبولا واسعا . اعتقد ان منجزاتى قد انعكست فى اوراقى .

لقد خالط الشيب شعرى فى سن مبكرة . واسنانى ليست جيدة . فمعظمها تساقط . وبعض زملائى فقد كل اسنانه . ويقول الناس ان هذا بسبب عملنا الطويل فى التبت .

ابحاثنا ابحاث اساسية ، ومنجزاتنا ليست مفهومة كليا لدى الكثيرين . لقد اصبحت العضو الصينى الاول فى الجمعية الجيولوجية الفرنسية وفى الاتحاد الاوربى للباحثين المعنيين بدراسة الارض . لكن يبدو ان قلة من الناس فى الصين تعرفنى ، ولا اعرف لماذا . ان البحث الاساسى لا يجلب النتائج الاقتصادية المباشرة ، والمطلوب تحقيقها ، ولن تصبح غنيا بمجرد طبعك الاوراق . لكن بالنسبة لى لا ارى بأسا ما دام العمل ينجز . ومن وجهة النظر الطويلة الامد اجد البحث الاساسى هو قاعدة عملنا . وبغير اساس ثابت يصبح البحث عديم الجدوى .

والمشكلة الآن هى اننا نحتاج الى نقود لأداء ما نقوم به من اعمال . فحتى فى معهدنا لا بد ان ندفع للتصوير والتحليلات المخبرية وما الى ذلك .

ماذا افعل لو منحت عمرا آخر ؟ اظن اننى سأختار دراسة الجيولوجيا ثانية . الآن ، وقد اصبح البحث حول هضبة تشينغهاى — التبت مكتملا تقريبا ، اقوم بدراسة جبال هنغدوان التى تعتبر امتدادا للهضبة . وآمل بعد ذلك ان اجد وقتا لدراسة مناطق جنوبى الصين لأكون رأيا شاملا حول البنية الجيولوجية فى الصين . واتوقع ايضا ان انشر كتابا حول الهضبة بالانجليزية .

ليس عندى متسع من الوقت لممارسة هواياتى . استمتع

بمشاهدة ألعاب الكرة والاوبرات الصينية التقليدية عندما لا اقوم بالاعمال الميدانية . لكننى احرص على ان اظل فى صحة جيدة . اسكن فى الطابق الثانى عشر من مبنى متعدد الشقق ، غير اننى لا استخدم المصعد ما لم اكن مستعجلا كمراعاة موعد عاجل . انى افضل استخدام السلم فى الصعود والنزول درجة درجة ، ولا اشعر بأى تعب .

قاى له : اول دكتور فلسفة تبتى فى الصين

" اهتم بمحاولة شرح سلوك واوضاع ومعتقدات الجماعات التبتية فى الصين اليوم . "

انه التبتى الوحيد الذى يحمل شهادة الدكتوراه بين ٣٠٨٧٠٠٠٠ مواطن تبتى فى الصين . ولد فى اسرة قن عام ١٩٤٨ ، ونشأ ليصبح لاما وفقا لتطلعات امه . وقد فعل ذلك لسببين : حبه الشديد للدراسات التبتية ولأصله التبتى . ويعمل الآن فى مركز الابحاث ببكين الخاص بالدراسات التبتية ، بعد مضى سنتين على تخرجه فى جامعة تشونغشان بدرجة الدكتوراه فى علم الاجناس الثقافى .

لقد قام قاى له باجراء تحليل من اكثر التحاليل شمولا وتصنيفا حول اصول الشعب التبتى ، وحول علاقاتهم التاريخية والثقافية بالقوميات الاخرى داخل وخارج الصين . ويقود الآن فى المركز مجموعة من اربعة افراد ، تتفرغ لبرنامج بحث يستغرق خمس سنوات بدءا من عام ١٩٨٧ ، وكان قاى له يتردد خلال ذلك كالمكوك ما بين بكين والتبت آملا ان يجمع المعلومات الكافية لدراسة نظام القنانة الاقطاعى الذى كان قائما فى التبت ما قبل عام ١٩٥٦ .

تزوج قاى له من زميلة صفه عام ١٩٧١ ، وعندهما الآن ولد وبنت . ويقيم مع اسرته فى شقة من غرفتين فى الطابق الاول من مبنى ذى ثلاثة طوابق تابع لمركز الابحاث .

لا اعرف يوم ميلادى ، شأنى شأن معظم التبتيين ، واظن ذلك نتيجة سذاجة القومية التبتية . لم ار والدى منذ تركنا ليعمل عند مالك اقنان آخر (بعد ولادتى) . وكانت امى مخلصة لعقيدتها اللامية . كانت امية لا تقرأ ولا تكتب ، لكنها ارتأت ان من العظيم ان اتعلم القراءة والكتابة واصبح لاما . وقد علقت كل آمالها على باعتبارى الابن الوحيد فى الاسرة . واظن بأنها اعتبرت ذلك مسألة فخر للاسرة .

حين بلغت السابعة ذهبت لأدرس اللغة التبتية الاولية مع راهب فى معبد خاص بأحد ملاك الاقنان . فبدأت بدمدمة التراتيل البوذية يوما بعد يوم برغم اننى لم افهم اى كلمة مما اردده . تدربت على الابجدية التبتية على سبورة بيتية الصنع تعلوها طبقة من زبدة الياك والرماد . لم تكن هناك اقلام رصاص ولا اوراق ، فكان على ان اتدرب على الكتابة مستخدما قطعة من الخشب . فكنت كمن يكتب على الرمال . وكنت مرعوبا من دخول غرفة معلمى المظلمة . كانت مملوءة بصور الآلهة والاشباح التى خيل لى انها تتحرك فى العتمة مرجرجة الضوء المنبعث من مصباح زيتى . ودائما ما كنت اهرب من هذه " المدرسة " بسبب الضرب المبرح من المعلم ، ولكن فى كل مرة كانت امى تعيدنى . كانت مصممة على ان اصبح لاما .

تغيرت الامور تغيرا كبيرا فى عام ١٩٥٦ خلال فترة الاصلاحات الديمقراطية . فقد انشئت مدارس عامة على يد الحكومة الجديدة فى المدينة . وكنت اول طالب من قريتى يدرس فى المدرسة

الجديدة . وتردد بقية الناس فى ارسال اولادهم الى المدرسة ، متخذين موقف التريث ازاء الحكومة الجديدة . لكن امى كانت ملحة على شيء واحد : لا شيء اهم لديها من ان اذهب لأدرس فى مدرسة لا اجرة فيها للغرفة ولا للسبورة . لم ادرك يومها ان الفضل فى تعليمى المبكر يرجع الى امى الغالية .

ما زلت اشعر بالحزن على موتها لأنى لم اكن بجانبها عند احتضارها . تلقيت رسالتها التى تطلب منى فيها العودة . وعرفت انها تريد ان ترانى قبل موتها . كان ذلك عام ١٩٦٧ ، وانا فى طريقى عائدا الى التبت . لكننى تأخرت مدة شهرين لتوقف القطارات بسبب القتال الدائم بين مختلف الفئات "الثورية" خلال الثورة الثقافية . فلك ان تتخيل حالة اليأس التى كنت فيها .

كان عملى سيختلف اختلافا كليا لو لم انضم الى دورة خاصة مدتها ثلاث سنوات للترجمة التبتية – الصينية فى تشنغدو عام ١٩٦٤ حين كنت فى السادسة عشرة من عمرى . وهذا تم ايضا بدعم من امى . واقترح آخرون ان اعمل سكرتيرا فى مسقط رأسى .

اهتم كثيرا بالقراءة ، ولا سيما كتب التاريخ والادب . ولقد قرأت كتابا تاريخيا لباحث شهير حول مسقط رأسى ، فشعرت بأنه عادى تماما ، وقلت لنفسى : اذا امكن لكتاب عادى كهذا ان ينشر ، فمن المؤكد اننى استطيع ذلك انا ايضا . اننى دائما محب للبحث ، واستمتع بالقراءة . ودائما ما تراودنى الرغبة فى ان اكتب شيئا .

بعد ان انهيت دورة الترجمة عينت فى محطة اذاعية بمحافظة سيدا المجاورة لمحافظتى قارتسى . فبقيت هناك عشر سنوات ، وعرفت الكثير عن شؤون تلك المنطقة من اهاليها . واتيحت لى فرصة التحدث مع ملاك اراض اقطاعيين ورؤساء قبائل سابقين ، فحكوا لى قصصا عن الماضى . وهذه ثروة كبيرة على ما اعتقد لأبحاثى المستقبلية حول المجتمع التبتى .

ان دخول الجامعة امر غير مألوف تماما فى محافظة سيدا . والشخص الحاصل على دبلوم الدراسة الثانوية يعتبر عادة حسن التثقيف . وكثير من زملائى فى الدراسة الثانوية حصلوا على عمل بعد تخرجهم ، واصبحوا مسؤولين بعد عدة سنوات من عملهم . وبوسع المرء ايضا ان يصبح رب عمل مع مضى الوقت . كنت حينذاك سكرتيرا للجنة عصبة الشبيبة الشيوعية فى المحافظة . وعندما اخبرت زملائى بأننى سأدرس فى الجامعة سروا كثيرا ، وشجعونى قائلين : " دعنا نتول وظائف ذات نفوذ ، وانطلق انت فى دراساتك لتصبح باحثا . "

تقدمت لامتحان القبول فى الجامعة عام ١٩٧٧ الذى استعيد نظامه بعد عشر سنوات من التوقف ، وقبلت فى معهد القوميات بجنوب غربى الصين . فأقمت هناك لدراسة الادب الصينى نصف سنة فقط حيث رأى الاساتذة ان المزيد من الدراسة فى المعهد ليس بذى شأن بالنسبة لى ، واقترحوا على ان اوسع دراساتى على مستوى اعلى . فتقدمت ثانية لامتحان القبول فى الاكاديمية الصينية للعلوم الاجتماعية لدراسة علم الاعراق البشرية .

وخلال التحضير للامتحان حاولت ايجاد كتاب حول تاريخ التبت ، فذهبت الى مكتبة بلدية تشنغدو لهذا الغرض . وهناك وجدت على غير توقع مخزونا هائلا من الكتب القيمة حول التبت ، وجميعها صادرة قبل تأسيس الجمهورية الشعبية . سرنى ذلك ابلغ سرور ، ورأيت ان من الافضل لى بكثير ان اجلس هناك واقرأ بدلا من ان احشو دماغى بمعلومات للامتحان المقبل . وقرأت تلك الكتب كلها خلال شهرين . وتلك هى المرة الاولى التى اتمكن فيها من قراءة هذا الحجم الكبير من الكتب حول التبت . ومع ذلك تقدمت الى الامتحان . كانت الفائدة الكبرى من برنامج القراءة الذى استمر شهرين هى اننى بدأت انظر الى القضايا التاريخية بعين ناقدة وبكثير من الاستفهامات .

كانت رسالتى للحصول على لقب الماجيستر فى الحقيقة سجلا تاريخيا لمحافظة سيدا . ونصف المادة تقريبا قد اخذته من الملاحظات التى حصلت عليها خلال تلك الفترة . وخلال عملى فى الاطروحة انهيت تأليف كتاب حول تاريخ مسقط رأسى ، منطقة قارتسى الذاتية الحكم الواقعة فى غربى مقاطعة سيتشوان . ومعظم سكانها من التبتيين .

اشعر ان بوسعك ان تنجز عملا ذا شأن بغض النظر عن القومية التى تنتمى اليها . كما ان الاصول العرقية لا تؤثر كثيرا ما دام المرء يبذل من الجهد والاجتهاد ما فيه الكفاية . عندما كنت اقوم بواجبى فى مرحلة الدراسة العليا ظهر جميع زملائى افضل مما انا عليه . فاضطررت الى تعلم الصينية التقليدية والانجليزية

من البداية . وكانت تجربة حقيقية كلها جد ، لا مجال فيها للهو . امضيت وقتا طويلا فى تعلم الانجليزية مع ان ذلك لم يكن الزاميا . كل ما هنالك اننى شعرت بضرورة ان اكون مؤهلا كالآخرين ، بالرغم من حقيقة كونى تبتيا وعندى تمكن من اللغة التبتية التى يمكن اعتبارها بحق لغة اجنبية ايضا .

اليكم هذه الحكاية التى حدثت معى وانا فى الجامعة . هناك استاذ فى جامعة تشونغشان قد ظن فى اننى قبلت لمجرد كونى تبتيا ، لذلك راح يخصنى بمزيد من الرعاية : وجاء ليصغى الى حديثى حول زيارتى لليابان لأنه اراد ان يستمع الى تبتى يتكلم الصينية ، وربما ليسخر منى . ولم يخطر له ان يخرج من حديثى بانطباع جيد . وهذه التجربة اقنعتنى من جديد بأننى يجب ألا اخفض مستواى الاكاديمى بحجة اننى تبتى .

اننى استمتع بحياتى الدراسية . فامضاء يوم كامل فى القراءة والتفكير والكتابة يسرنى ابلغ سرور . ودائما ما اشعر بأننى اؤدى عملا ثقافيا قيما . كان لى مكتب لائق فى قاعة الشعب الكبرى عندما كنت اعمل فى لجنة القوميات المتفرعة عن مجلس الشعب . ثم حصلت على شهادة الماجيستر . لكننى اكتشفت فورا ان اللجنة ليست المكان الملائم لى ، فقررت مغادرتها . وكان السبيل الوحيد امامى حينذاك هو الاستزادة من الدراسة . فساومت مسؤولى هناك على ان استمر فى عملى ذاك طيلة حياتى اذا اخفقت فى امتحان التأهل للجامعة . وحالفنى حظ كبير ، فنجحت .

افضل الكتابة عن التكلم . ولقد تقدمت بطلب للبقاء فى

جامعة تشونغشان للتدريس فيها . ونادرا ما اقوم باعطاء محاضرة لأننى عصبى المزاج الى حد كبير عند التكلم امام الملأ . وقفت مرة على المنصة ما يقرب من ساعتين ناسيا ان اجلس على الكرسى بجوارى . وانسى ان ادخن ايضا ، واقول ذلك لكونى غزير التدخين . ويقول المستمعون بأن محاضراتى ممتعة وغنية بالمعلومات . هذا ما اشبع غرورى .

عند انهماكى فى الكتابة ارغب فى التخلص التام من كل ما يقاطعنى ، وقد عزلت نفسى فى غرفة مغلقة بمقاطعة سيتشوان مدة نصف سنة لأعمل فى رسالة الدكتوراه . وصديقى فقط كان معه مفتاح الغرفة ، وكان يحضر لى الطعام كل يوم .

ان الدراسات التبتية هى محور ابحاثى دائما . واهتمامى الشخصى منصب على شرح سلوك واوضاع ومعتقدات الجماعات التبتية فى الصين اليوم .

اننى لا اوافق على الاعتقاد القائل بأن التبت تزداد تأثرا بالثقافة الصينية الهانية ، حيث لا ثقافة يمكنها ان تتطور ، اقتصاديا او ثقافيا ، فى معزل عن الثقافات الاخرى . تلك هى الحالة بالنسبة للتبت . فعملية التمثل (الامتصاص) متعذر اجتنابها . فالتبتيون مثلا يميلون الى لبس السترة بدلا من الثياب الطويلة التقليدية لأن ذلك ابسط واكثر ابتعادا عن الرسمية ، ثم يظلون بذلك تبتيين مئة بالمئة . بالنسبة لى ارى ان التبتى الذى يعيش بين الهانيين لا يشعر باغتراب ثقافى ، لكننى لا انكر اننى اشعر حقا بمزيد من الاستقرار والانتماء حين اعود الى محافظتى

الاصلية واختلاط بأولئك الذين اعرفهم من قبل . ان لديهم صدقا وفهما وعقلية ، لا اجدها فى مكان آخر . اعتقد ان التبتيين فخورون بأصلهم ، لكن هذا لا يعنى انهم يعزلون انفسهم عن العالم الخارجى . ومفتاح تحديث التبت هو ادخال التعليم اليها ، الذى سيجلب معه افكارا جديدة وطرقا جديدة فى التفكير وطرقا افضل للمعيشة .

لقد ظل الدين وحرية الاعتقاد مسألة خلافية امدا طويلا . والدين فى التبت يركز على اللامية تركيزا رئيسيا ، وهذا على ما اعتقد يعوق تطور التبت اكثر مما يساعدها على ذلك .

لقد كشف تقرير قدمته امانة الحزب ان الاعتقاد الدينى هناك فى تزايد . والاولاد عادة يحذون حذو والديهم . ومع ذلك فانه كلما ازداد تلقى هؤلاء الاولاد للتعليم ، قل احتمال اعتقادهم باللامية . فأنا نفسى نشأت فى بيئة دينية . استمعت لأمى وهى تروى لى قصصا عن الآلهة والاشباح تناقلتها الاجيال على التتالى . لكن حين اتيح لى فيما بعد الاطلاع على الكتب واشياء اخرى بدأ اهتمامى بالدين يتضاءل . لا بد لكل امرئ من نوع من الركيزة الروحية ، والدين شىء من هذا القبيل . وقيام التبتيين بالذهاب الى المعابد اللامية وانهماكهم فى النشاطات الدينية يوازى ذهاب سكان المدن الى دور السينما والمنتزهات والحفلات العامة .

لا اعتقد ان التبتيين اقل شأنا من اية قومية اخرى . ان التبت نفسها قصة بطولية حية زاخرة بالاسرار والالغاز . والاهالى هناك

متفردون فى اشياء كثيرة . لقد حضرت حلقة بحث حول الدراسات التبتية فى هنغاريا ، وزرت بطريقى الاتحاد السوفياتى . فأدهشنى حقا ان اجد الكثير الكثير من الاجانب يتعلمون اللغة التبتية ويدرسون التاريخ التبتى والثقافة التبتية . وانه لشىء مؤسف ان معظمهم لم يستطع زيارة التبت ولو مرة واحدة . كثير من الباحثين الاجانب فى الدراسات التبتية قد التقوا عددا قليلا من التبتيين الحقيقيين ، فيقدمون لهم استنتاجات من المادة المكتوبة المتوفرة لديهم . وفى الوقت نفسه وجدت الباحثين الاوربيين فى الدراسات التبتية اكثر شرقية فى ابحاثهم ، بينما باحثو الولايات المتحدة اكثر تشبثا بآرائهم ، واظن هؤلاء الاخيرين متأثرين بجهود الدالاى لاما الدعائية فى الصحف وغيرها من وسائل الاعلام الامريكية . وارى ان الباحثين الصينيين فى الدراسات التبتية يجب ان يكونوا اكثر فاعلية فى دراسة التبت ، وان يستمعوا الى مزيد من الآراء ووجهات النظر المخالفة .

للتبتيين تراث ثقافى وتاريخى كبير . وهذا التراث يلى مباشرة تراث قومية الهان فى الصين . وفى دراسة هذا التراث الحافل لا اريد ان احذو حذو احد . فتلك التسجيلات التاريخية ستشغلنى طوال الفترة المتبقية لى من حياتى للقيام بدراسة مبدعة .

تشو قن فنغ : منقبة

" من المؤسف اننا اهدرنا وقتا كبيرا جدا فى العمل الجسمانى والحركات السياسية ، ولو لا ذلك لكنت اليوم باحثة جيولوجية رائدة . "

قبل خمسة وعشرين عاما تركت تشو قن فنغ مقاطعتها فى جنوب شرقى الصين ، وهى معروفة بـ " بلد السمك والرز " ، الى حقول النفط فى المناطق المعزولة فى الشمال الشرقى والجنوب الاوسط والشمال الغربى .

واليوم ، لا الوجه الذى لوحته الشمس ، ولا الذراعان القويتان لهذه المرأة التى تجاوزت الخمسين من عمرها ، ولا اى شىء آخر لها ، ما عدا رشاقتها هى التى ما تزال تشبه تصرفات تلك الفتاة النحيلة الرقيقة فى الصورة المحفوظة لدى زوجها .

انجبت طفلتين خلال عملها فى حقل النفط ، وتعرضت لاجهاض نتيجة الجهد المفرط .

انها تعمل فى الفيلق البتروجيولوجى لمقاطعة تشجيانغ ، احدى المؤسسات التى تشترك فى ملكيتها تسع وعشرون مقاطعة وبلدية ومنطقة ذاتية الحكم داخل الاراضى الصينية .

اولادى متعلقون تعلقا جنونيا بكعكة رأس السنة المصنوعة من الارز والنقوع . وانا اعدها بنفسى : ولما كان شمل اسرتنا لا

يلتئم الا فى عيد الربيع (رأس السنة القمرية الصينية) فاننى اقوم فى تلك الفترة بمهمة الطبخ الى اقصى حد ممكن . ووالدهما طباخ ردىء ، وهو جيولوجى ايضا .

عملت فى خمسة حقول للنفط .

من اغسطس ١٩٦٣ الى سبتمبر ١٩٦٩ فى حقل داتشينغ بالشمال الشرقى .

من سبتمبر ١٩٦٩ الى نوفمبر ١٩٨٥ فى حقل جيانغهان بمقاطعة هوبى فى الجنوب الوسطى من الصين .

من نهاية عام ١٩٧٦ الى منتصف عام ١٩٧٧ فى حقل نانيانغ بمقاطعة خنان فى وسط الصين .

من مايو ١٩٨٦ الى مايو ١٩٨٧ فى حقل شنغلى بمقاطعة شاندونغ فى شرقى الصين .

ومن مايو ١٩٨٧ حتى الآن فى حقل شينجيانغ فى الشمال الغربى .

ان تطور اى حقل نفطى فى الصين يضم عاملين من مختلف انحاء البلاد . لقد جئت الى هذا الفيلق الحالى عام ١٩٨٦ . وكان اعضاء الفيلق يتنقلون دون انقطاع لعدم وجود نفط فى هذه المقاطعة .

ان معظم المؤسسات الجيولوجية تمثل الى حد كبير او صغير "بواتق الصهر" ، حيث اعضاؤها يأتون اليها من اماكن مختلفة . فبحكم طبيعة عملنا نذهب الى كافة انحاء البلاد ، ونقيم ونعمل فى وحدات معزولة الى حد ما . وقد ألفنا المناطق النائية وتعودناها . وبمجرد ان يتم تطوير حقل نتركه ونتنقل الى

حقل آخر .

حتى مكاتبنا وشققنا تقع فى الضواحى البعيدة عن هانغتشو (عاصمة تشجيانغ) . قبيل عيد الربيع نزلت الى المدينة للتحوج ، فأحسست كأنى غريبة وسط الزحام والهياج ، مع ان الشوارع لم تتغير ذلك التغير الكبير منذ كنت طالبة فى الجامعة واتردد الى هناك كثيرا .

الازواج والزوجات فى كثير من الاسر المقيمة فى هذه الشقق يعملون فى نفس الفيلق . واحيانا قد تكون الزوجة ساكنة فى الريف .

قلة من الناس يرضون الزواج ممن يعمل جيولوجيا ، ولهذا الامر ما يسوغه . فلا احد يرغب فى الزواج ليبقى وحيدا معظم السنة . ليس لدى الجيولوجى الا فرصة ضئيلة للاختلاط بالناس ، فهو اما ان يتزوج عادة من فتاة تعمل فى وحدته او من فتاة ريفية من مسقط رأسه اذا كان هو من الريف اصلا . وبالنسبة لهذه الحالة الأخيرة فالامر كله يعتمد على حظ الرجل فى تمكنه من نقل سجل زوجته السكنى من المنطقة الريفية الى المدينة حيث ان الصين تحدد تحديدا صارما عدد سكان المدن لديها .

كنت وزوجى زميلين فى قسم الرياضيات بجامعة تشجيانغ . وقد تزوجنا عام ١٩٦٣ بعد التخرج مباشرة . فى ذلك الوقت دعت الدولة الشباب للاشتراك فى البناء الاقتصادى فى المناطق النائية . فتحمس كثير من الشباب للذهاب . وانا كذلك كنت شديدة التحمس ، معتقدة بأننى كلما ابتعدت ازددت سعادة . وتخيلت

ان الحياة فى صحراء جوبى ، ما وراء الافق ، ستكون رومانسية برغم ما فيها من صعوبات . ووافق زوجى على الذهاب معى مدفوعا بطموحه لا بالرومانسية المنشودة .

لكن زوجى لا يعترف بذلك الطموح . فقال بأنه ذهب بدافع شعوره بالمسؤولية تجاهى باعتباره زوجا .

انه يكبرنى بثلاث سنوات ، ويعمل الآن مديرا للمؤسسة الجيولوجية الخاضعة للفيلق .

بعد اسبوعين من احتفالات زفافنا فى مسقط رأسى لانشى ومسقط رأسه شاوشينغ ، وكلاهما بمقاطعة تشجيانغ ، انطلقنا الى حقل داتشينغ بمقاطعة هيلونغجيانغ الموغلة الى الشمال . فاستغرقت رحلتنا ستة ايام .

ويقول زوجى بأننا لم نعرف ان المنطقة حقل نفط الا حين وصلناها لأنه قد اشير اليها على انها المزرعة رقم ١٤ ، وذلك لأسباب امنية . اما الاسم الحقيقى ، فقد كشف لنا رسميا بعد سنتين حين زاد الانتاج الواسع النطاق من المردود النفطى للصين زيادة عظيمة الشأن .

كنت مستعدة لما يواجهنا من صعوبات . لكن لم تكن عندى اية توقعات محددة . الصورة الوحيدة التى شكلتها لها فى ذهنى هى انها مرج واسع . وهناك فقط تعلمت كم من الصعب يكون البدء من الصفر .

درست فى الجامعة الرياضيات . وبتعيينى فى قسم جيولوجى تحولت الى ميكانيك الموائع الاكثر نفعا بالنسبة لحقول النفط .

اما هذا الانتقال الذى استغرق سنة فقط فلم يكن صعبا جدا .
انما الذى وجدته اكثر صعوبة هو التأقلم مع الحياة فى تلك المنطقة .

الجنوبيون يكثرون من اكل الارز . وفى داتشينغ لم يكن فى متناولنا الا السرغوم الصينى والبطاطا . بدأ نزول الثلج هناك باكرا فى اكتوبر ، لذلك كانت الخضار نادرة ، ناهيك عن اللحم والسمك . واقمنا فى مهاجع ترابية . كل مهجع يسكنه عشرة اشخاص . ولما كان المتزوجون بيننا قلة ضئيلة ، فان المسؤولين كانوا يصرفون الاعزاب الى المكاتب ليوفروا لنا شيئا من الخلوة . وابنتنا الكبرى جاءت نتيجة ذلك .

قبل الوضع بشهر عدت الى مسقط رأسى برفقة زوجى الذى عاد الى حقل النفط بعد وصولنا بليلتين . وبعد شهر من الولادة تركت طفلتى برعاية امى ، وانطلقت الى الشمال .

كان العمل فى حقول النفط كثيفا جدا . وكانت مهمتى هى مسح وتحديد المواقع لحفر آبار غزيرة المياه . وهذا كان يتطلب كثيرا من العمل الميدانى بالاضافة الى التحليل فى المكتب . ولم نكن نجد لكثرة انشغالنا بهذا العمل وقتا للتفكير بالاهل الا بعد ان تمنعنا شدة التعب عن المواصلة .

وفى عام ١٩٦٥ حصلنا على بيت حقيقى ، بيت ترابى مساحته سبعة امتار مربعة ، وذلك حين جلبت لى امى الى داتشينغ طفلتى التى اكملت سنة من عمرها . وحقل النفط هو الذى اخلى لنا هذا البيت . ولم يزد اثاثه عن سرير من التراب المدكوك وعلبة تحفظ فيها الاطباق وعيدان الاكل . اما ثيابنا فوضعناها

تحت الوسائد . وقد صدمت امى فى الليلة الاولى من وصولها بهذه الظروف البائسة ، وبكت لدى اكتشافها اننا الاربعة سنتحشر على سرير فردى واحد . واصلت عنايتها بالطفلة ثمانية اشهر تقريبا ، ثم لم تعد قادرة على تحمل هذه الحياة ، فأخذت حفيدتها وعادت الى تشجيانغ .

انا وزوجى لم نبال بصعوبات العيش . خلال الحركات السياسية فى تلك الايام كان المثقفون يطالبون دائما بـ " اصلاح تفكيرهم " من خلال العمل الجسمانى والتعلم من العمال والفلاحين . فخارج حقول النفط كثيرا ما كنت اساعد العمال فى تحميل وتنزيل براميل للعينات الجوفية من الشاحنات واقوم بأعمال اضافية . والى هذا اليوم ما زلت افضل ان انادى بلقب " المعلمة تشو" ، علما اننى الآن بمرتبة مهندس جيولوجى . وقبل ذلك ايضا كنا نطالب كثيرا بأداء اعمال يدوية كحفر خنادق لانابيب النفط ، وزراعة الخضار ، وتربية الحيوانات . ولم نفكر قط ، او لم نجرؤ حتى على التفكير بأن هذه اعمال شاقة .

وضعت ابنتى الثانية عام ١٩٦٨ فى منطقة حقل نفطى . وكانت الظروف آخذة فى التحسن التدريجى .

وفى عام ١٩٦٩ انتقلنا الى مقاطعة هوبى فى جنوب وسط الصين لتطوير حقل نفطى آخر .

كانت الثورة الثقافية (١٩٦٦ — ١٩٧٦) قد شغلتنا اذذاك بمسألة " الاصلاح الفكرى" والاشتراك فى الحركات السياسية . وفى عام ١٩٧٢ تعرضت لاجهاض .

كنت فى شهرى السابع من الحمل حينذاك . وذات يوم كنت مع عدد من الزملاء ننحنى على جمع حبوب فول الصويا ، وقد مضى علينا فى هذا العمل يومان . وفجأة قرفصت ووضعت يدى على بطنى . كنا نأمل ان نرزق بولد حيث لدينا بنتان . وكان السقط ولدا .

وكدنا نفقد طفلنا الرابع ، ولدا ، بعد سنة من الاجهاض الاول تقريبا . كنا نحدد يومها مواقع بضع آبار للمياه ، واصررت على مسح الحقول بنفسى برغم ان الآخرين تطوعوا للذهاب بدلا منى . ولعدم تمكنى من ركوب الدراجة اضطررت الى السير فى تلك الحقول . وكانت الشمس حادة فى ذلك اليوم ، فحين وصلت البيت مساء اغمى على من فرط التعب .

اننى اشعر بأسف شديد لأولادى لأنهم عانوا من صعوبات بالغة لا قبل للمرء بتحملها . جلبنا ابنتنا الكبيرة لتعيش معنا فى اواخر السبعينات بعد وفاة امى . وبيتنا الآن كبير ، شقة من غرفتين ، ومع ذلك لم تستطع هى واختها ان تدخلا نفس المدارس التى يدرس فيها الاولاد فى المدن الكبيرة . وغالبا ما تضطران الى اعداد الطعام بنفسيهما لانشغالى الدائم خارج البيت .

طبعا هذا جعل لهما مزاجا خاصا ، فهما اكثر استقلالية من الاولاد العاديين . وكلتاهما تدرسان الآن فى جامعة هوبى . وتستطيعان رعاية شؤونهما بنفسيهما على اكمل وجه . وابنى طالب متفوق فى مدرسة اعدادية على بعد ساعة بالباص العام من البيت الى الضاحية الغربية فى هانغتشو .

عدنا الى مقاطعتنا الاصلية عام ١٩٨٦ نظرا لسنى . ورأيت فى البداية ان استريح بعض الوقت لاستمتع بحياة مستقرة بعد سنوات طويلة من التنقل والارتحال . فوافق مسؤولو الفيلق على طلبى ومنحونى اذنا بمزاولة عمل مكتبى على الكومبيوتر . لكن سرعان ما ادركت اننى تابعة لحقول النفط وفكرت : بعد هذه الخبرة الطويلة الكبيرة من العمل فى بعض اكبر حقول النفط فى الصين آن الاوان كى اصل بعملى هذا الى ذروة سامقة .

وعليه تقدمت بطلب للخروج . كان هناك كثير من الفرص . واعضاء هذا الفيلق – كما ذكرت – يتنقلون كثيرا . فعلت هذا ليس فقط انطلاقا من احساسى بالمسؤولية باعتبارى عضوا فى الحزب الشيوعى – انضممت الى الحزب عام ١٩٨٥ – بل الاهم من ذلك انطلاقا من ولائى المهنى . لقد اضفت الآن الى خبرتى ما كسبته فى حقلى نفط آخرين ، حقل شنغلى وحقل شينجيانغ . وما زال هناك كثير من الاعمال الخاصة بحقول النفط . وما زال هناك كثير من الصعوبات تعترضنى لا سيما وقد اصبحت عجوزا . على ان اذهب وحيدة لأن زوجى غارق بالعمل فى معهده . ولكننى اشعر حقا بسرور حين انجز المزيد من التصميمات الناجحة واكتب تقارير افضل .

لست نادمة على انى اصبحت جيولوجية علما اننى لم اختر هذه المهنة . لقد رفعت من قدراتى واختبرتها . ربما لم انجز الكثير ، لكننى بذلت اقصى ما عندى . واولادنا – كما يقول زوجى – يحبون هذه المهنة ايضا . فكلتا ابنتينا متخصصتان

فى الهندسة البترولية ، اما ابننا فيريد ان يصبح صحفيا عندما يكبر ، فبوسعه اذذاك ان يكتب عن اولئك الذين يعملون فى المناطق النائية .

من المؤسف اننا اهدرنا وقتا كبيرا جدا فى العمل الجسمانى والحركات السياسية قبل وخلال الثورة الثقافية ، ولولا ذلك لكنت اليوم باحثة جيولوجية رائدة .

ويقول زوجى ان من المؤسف ان افراد اسرتنا الخمسة يأكلون معظم الوقت فى اماكن مختلفة : فأنا فى حقول النفط ، وابنتانا فى الجامعة ، وابننا فى مدرسته ، وهو فى البيت .

دينغ جيان : مهندس زراعي

" المشكلة التي نواجهها ليست فريدة . فهناك مشكلات في انتاج الحبوب في هذه المنطقة كلها . "

ان احدى المسائل العالمية هي الى اى مدى تمتلىء سلال الخبز لاكثر من مليار انسان فى الصين . كثير من الناس يذهلهم تمكن الصين من اطعام ربع سكان العالم من مساحة لا تزيد عن ٧ بالمئة من اراضى العالم الصالحة للزراعة .

برغم هذا الانجاز المدهش ما يزال محصول البلاد غير كاف . فالاستهلاك الصناعى يجب ان يحكم . مقادير هائلة من الحبوب لا بد من استيرادها سنويا لتزويد الانتاج المحلى . والواقع ان بعض الخبراء يقول بأن العجز قد يزداد حدة . ان القوة الدافعة التى احدثها نظام التعاقد على الارض قد بلغت اقصى مداها ، ولم تعد من المحتمل ان تؤدى الى زيادة اكثر فى الانتاج .

فالحل يكمن فى استخدام التقنيات الحديثة على نطاق واسع . وفى السنوات القادمة يقدر ان يصبح المهندسون الزراعيون من امثال دينغ جيان اكثر اهمية .

دينغ جيان فى الثانية والخمسين من عمره ، قصير ونحيف . وجهه داكن قد لوحته الشمس ، وعلى جبهته وحول عينيه تجاعيد وكذلك حول زاويتى فمه .

مضى عليه فى هذه المهنة اكثر من ثلاثة عقود ، وهو الآن مدير

شركة داليان للحبوب (داليان مدينة ساحلية بشمال شرقى الصين) .
تقع شركته فى مبنى رمادى من ثلاثة طوابق . الممر مظلم ، والغرف تصطف على امتداده من الجانبين . ومكتبه ليس مفروشا بأكثر من اريكة قديمة ، وطاولتى مكتب تساقط عنهما الدهان ، وكرسيين .
وقد قال بابتسامة رقيقة : " انظر الى مكتبى فتعرف لم لا يرغب الشباب بأن يصبحوا مهندسين زراعيين . "

مضى على فى هذه المهنة اكثر من ثلاثة عقود . وبرغم كونى الآن مديرا لهذه الشركة ما زلت اتابع الاشراف على البحث . جئت الى هذه المهنة لأنه لم يكن امامى اختيار آخر . لقد ولدت فى اسرة فلاحية فى قرية صغيرة بمحافظة شينمين على بعد ما يقرب من ساعتين بالقطار عن داليان .

كان ابواى يعملان فى الحقول طيلة السنة ولا يكادان يشبعان الاسرة . وحين اوشكت على انهاء دراستى الابتدائية تأسفا كثيرا لعدم قدرتهما على تحمل مواصلة تعليمى . وكان اخى الكبير حينذاك فى المدرسة الاعدادية . فلا يمكنهما تحمل التحاقى انا بها ايضا .

لكننى كنت قد صممت على ان لا اصبح مزارعا . ولكونى طفلا ريفيا فقد رأيت الكثير وعانيت الكثير . عرفت كيف كانت حياة الفلاح . انه يظل مقيدا الى قريته معظم حياته ، فلا يحيط بشيء يذكر مما يجرى خارج عالمه الصغير هذا . تلسعه سياط الشمس الحارقة صيفا ، وترتجف اوصاله من الزمهرير شتاء ، ويبتل تماما عندما يسقط المطر . ومن اجل ماذا ؟ من اجل عيشة كفاف .

ان مجرد هذه الفكرة كافية لاحداث قشعريرة فى سائر جسدى . لذلك تقدمت بطلب الى مدرسة مهنية زراعية محلية علما اننى لست مهتما بالزراعة . وكان هذا النوع من المدارس فى ذلك الوقت يتساهل برسوم الدراسة ، بل يعطى الطلاب بعض المعونات ، وذلك من اجل جذب المزيد من الطلاب للتخصص فى الزراعة . وميزات كهذه ملائمة لطلاب من امثالى كل الملاءمة .

درست فيها خمس سنوات . وتخرجت عام ١٩٥٧ ، ثم عينت فى مكتب زراعى بمحافظة مجاورة . حين تركت هذه المدرسة اعتقدت ان ذلك نهاية تعليمى .

لكن حالفنى الحظ بعد سنة ، حيث تم ايفادى الى كلية الزراعة فى شنيانغ لأواصل دراستى . ما زلت ارى ذلك حظا مفاجئا . كانت السنوات الاربع فى الحرم الجامعى افضل فترة فى حياتى واكثرها هدوءا وسرورا . ومضى الوقت بسرعة ، وحان ثانية موعد التخرج .

بحصولى على بكالوريوس فى الزراعة عينت هذه المرة فى شركة تابعة للدولة بمحافظة جينشيان على مسافة قصيرة من المحافظة التى تضم قريتى . فى ذلك الوقت اصبح لدى اهتمام حقيقى بالزراعة ، ومرد ذلك نسبيا الى اننى اصبحت خبيرا فيها . مكثت فى الشركة ما يقرب من ثمانى سنوات ، ثم رقيت الى مكتب تحت اشراف اللجنة الزراعية لحكومة بلدية داليان .

وما زلت على رأس عملى هذا فى الشركة منذ عام ١٩٧٩ .

ليس من السهل ان تكون مهندسا زراعيا . كل ما تكتشفه

فى المخبر قد يكون صالحا لانتاجية اعلى ، ولكن لا فائدة منه اذا لم يستطع الفلاحون استخدامه . وهناك دائما مشكلات فى العمل يجب ان تحل فى حينها ومحلها . لهذا غالبا ما اذهب الى الريف .

كثير من البلدات الريفية حاليا فيها بيوت ضيافة للزوار . كان عددها قليلا اول ذهابى الى الريف ، وكنت اقيم عادة فى اسرة ريفية هناك ، وآكل من الطعام ما يقدم لى . اما فرصة الحصول على استراحة جيدة بعد عمل يوم مجهد فنادرة .

وكان العمل مرهقا . مرة كنت وزميلين لى نشرف على دراسة لمرض يصيب الارز . وذات اصيل مشينا اكثر من ثلاثين كيلومترا خلال حقول الارز . لم تكن هناك سيارات ، وحتى لو توفرت سيارة فاستخدامها ضئيل . وكان الممر من الاتساع بحيث يكفى لسير ثلاثة اشخاص جنبا الى جنب .

لكن اشياء كهذه سهلة نسبيا . اما اقناع الفلاحين بادخال تقنيات جديدة فهو امر عسير ، ذلك لأنهم متشككون فى الاشياء الجديدة . ويصل تشككهم ذروته حين يكون الاسلوب الجديد مختلفا عما كان مألوفا لديهم .

لذلك لا بد من اقناعهم اولا بتجريب الاسلوب الجديد ، وعادة على نطاق ضيق . لم تكن نتائج البحث ولا المعلومات الثابتة شيئا يدرك او يمكن الاعتماد عليه بالنسبة لهم . اذا حصلوا حقا على مردود اعلى فى الوحدة عند الحصاد ، فالأسلوب الجديد سيقبل ويطبق على نطاق اوسع فى السنة التالية . لذا كانت النتائج

الاولى فى غاية الاهمية . لا بد من التعامل معهم بمنتهى الصبر والتأكد من اتباع الاجراء الصحيح وعدم تجاوز اية خطوة .

ذهبت مرة الى قرية لأساعد فى تقديم تقنية جديدة تزيد من انتاج الارز . وبموجب هذا الاسلوب الجديد لا بد للارض من ان تحرث فى الخريف ثم تسلف قبل موعد المطر . والشتل يجب ان يزدرع فى وقت مبكر ويربى تحت اغشية بلاستيكية . فأقمت فى القرية ، وعملت مع الفلاحين جنبا الى جنب مستخدما التقنية الجديدة . واخيرا جاء وقت ازدراع الشتل .

فعلت ذلك بيدى ، وكان لا بد من وقوفى عارى القدمين فى الماء . وكان الوقت ابريل ، والماء ما يزال شديد البرودة . ومع انتهاء العمل اصبت بالتهاب فى المفاصل . فركبتاى ما تزالان تؤلماننى كلما جاء البرد .

المهندس الزراعى لا يمكنه ان يجد وقتا يخلو فيه لأسرته . مرة انتشر وباء مفاجئ من الاوبئة التى تصيب النبات ، فطلب منا وقف هذا الوباء والتغلب عليه . فاضطررت الى مغادرة البيت فورا ، والا انتشر الى مساحات اكثر . ولم اجد حتى وقتا لاخبر الاسرة بمغادرتى .

عندنا ثلاثة اولاد ، ولم اكن فى البيت حين ولد اثنان منهم . كنت غريبا عليهم تقريبا وهم صغار . اما بعد ان كبروا الآن فقد ادركوا لماذا كنت كثير التغيب عن البيت . انهم يحبوننى ويحترمون مهنتى . ولكن كمعظم الشباب اليوم لا احد منهم سيختار مهنتى هذه . وقد قال اكبرهم مرة : " يكفى اسرتنا ان

يكون فيها واحد لهذا المجال . "

انه لأمر عجيب ، فحتى بعض خريجى الجامعة من الشباب المهتمين بالزراعة قد تخلى عن هذه المهنة . والذى يفزعهم ليس العمل الشاق . ان الكثير منهم يعتقدون بأنهم يستطيعون قبول هذا العمل ، وعلى استعداد لمعالجة مظهره . انه الافتقار الى الاعتراف بعد اداء كل ذلك الجهد بأن هذا العمل فيه ظلم لاسيما عندما يقارن المرء نفسه بغيره من زملائه فى المدرسة المتوسطة او فى الكلية ، الذين يعملون فى مهن اخرى .

فمثلا عدد من المهندسين الزراعيين المتوسطى العمر فى شركتى ما زالوا يقيمون فى شقق صغيرة ، ولدى كل منهم ولدان او ثلاثة . فهم يلحون دائما فى طلب شقق جديدة . وقد وضعت اسماءهم فى قائمة الانتظار . ولكن من الصعب ان اقدم لهم اى عون او حتى اعدهم بعون .

الحقيقة ان شركتنا تحصل على بضع شقق جديدة لموظفيها . كثير من الشركات تستطيع بناء وحدات سكنية على نفقتها ، فتمولها من ميزانيتها الخاصة . بينما نحن لا نستطيع لأن نقودنا قليلة . وقد حصلنا مؤخرا على قرض وفتحنا فندقا آملين ان يصبح مصدرا لمزيد من الدخل .

الحكومة تعرف جميع مشكلاتنا ، وتحاول ان تساعدنا . وسياساتها حسنة النوايا ، لكن ليس لديها نقود تمكنها من تحقيق هذه النوايا الحسنة .

نتيجة لذلك قلة من الشباب اليوم يقبلون على هذه المهنة .

ويقال بأن الناس الذين لا يجدون خيارا آخر هم الذين يصبحون مهندسين زراعيين . ففي منطقة داليان اليوم ما يقرب من ٢٥٠٠ مهندس زراعى فقط . وهذا عدد ضئيل لا يفى بالحاجة . ولهذا العجز مخاطره . ان الفاعلية لنظام التعاقد على الارض قد بلغت ذروتها من بضع سنوات . فالزيادات الجديدة فى انتاج الحبوب لن تتحقق الا باستخدام تكنولوجيات جديدة . ماذا يحدث اذا لم يتوفر لنا ما يكفى من المهندسين الزراعيين ؟

شركتنا ، بخلاف الشركات الاخرى ، يفترض ان تخدم الفلاحين ولا تتقاضى منهم الا اقل اجر ممكن . لذلك نعمل على معدل الحد الادنى من الربح . وعملنا هو تزويد الفلاحين بالنوعية الجيدة من البذور .

هذه العملية تشمل عادة اربع خطوات . فى الاولى نبحث عن نوعية جديدة عالية المردود من البذور . فاما ان نطورها بما عندنا منها ، او نجلبها من مناطق اخرى . وفى الخطوة الثانية نختبر هذه النوعية الجديدة لنتأكد من انها تحقق ما ينتظر منها .

وهذه العملية تدعى الاستنبات التجريبى ، فتختار قطعتان من الارض بنفس الحجم ونفس الخصوبة تقريبا . والقطعة التجريبية تبذر ببذور من النوعية الجديدة . والقطعة الاخرى تبذر ببذور من النوعية المستخدمة سابقا . وتزود القطعتان بنفس المقدار من الماء والسماد وما الى ذلك . وفى الخريف يجرى جمع المحاصيل منهما كل على حدة ، ويقارن المردود لكل منهما .

وهذه الخطوة حاسمة . فالاختبارات عادة تجرى فى مواقع

مختلفة فى وقت واحد . ويمكن ان تكرر عدة سنوات من اجل ضبط النتائج .

فاذا اظهرت هذه الاختبارات نتائج ايجابية ، انتقلنا الى الخطوة الثالثة . فننتج بذورا من النوعية الجديدة بكمية كبيرة . وفى الخطوة الرابعة نلخص للفلاحين سبب افضلية الاسلوب الجديد ، ثم نبيعهم البذور الجديدة .

والفلاحون عادة راغبون فى استخدامها ، فقد تحقق زيادة بنسبة ٣٠ فى المئة . وقد احتفظنا ببعض الاحصائيات . فنوعية بذور القمح الجديدة يمكن ان تعطى ٧٥٠ كيلوغراما فى كل هكتار . وبالمقارنة مع اساليب زيادة المردود الاخرى نجد الكلفة اقل وساعات الجهد البشرى متساوية تقريبا .

لكن النتائج ليست كلها مشرقة . ففى السنوات الاخيرة تباطأت سرعتنا فى انتاج بذور من النوعية الجديدة . المنطقة كلها هنا يمكن ان تقسم الى تسع عشرة منطقة مناخية . وفى الماضى كان لنا موقع فى كل منطقة لاجراء تجارب مقارنة . فالآن لم تبق الا عشرة مواقع تتعاون معنا . وهذا يقلل من الضبط الاختبارى . لذلك تستغرق منا الخطوة الثانية وقتا اطول . لا احد يريد القول بأن النوعية الجديدة تعطى مردودا اعلى ما لم يتأكد من ذلك ، فالرهانات مرتفعة .

وفوق ذلك تميل نوعية البذور الجيدة الى الانخفاض . ان الخطوة الثالثة تأتى عند توقيعنا عقودا مع "الفلاحين على انتاج بذور لنا . فى الماضى تعاملنا مع ٣٧٠ فرقة انتاجية . اما اليوم

فعلينا ان نتعامل مع اكثر من ١٥ الف اسرة فردية . فلك ان تتخيل كم ازداد عبء العمل .

ان انتاج البذور عملية فى غاية الدقة ، فيجب الاستناد الى قواعد محددة . واذا ما انتهكها منتج واحد ، اثر ذلك فى الاقليم كله . فى السنة الماضية حين اقترب موعد التلقيح ترك احد الفلاحين حقوله وذهب لصيد السمك . ولما لم يتمكن مهندسونا الزراعيون من العثور عليه اضطروا الى شق اسدية قمحه نيابة عنه .

ان انتاج البذور يستغرق سنة على الاقل . لذلك حين يكون هناك نقص فى بذور النوعية الجيدة لا نجد امدادا نعتمد عليه . وعليه فان التنبؤ ضرورى جدا فى عملنا . ثم ان القيام بتنبؤ يزداد صعوبة .

الآن بوسع المزارعين ان يقرروا ما يزرعونه فى ارضهم المتعاقد عليها . وهم عادة يريدون زراعة كل ما يمكن ان يكسبهم اكبر دخل . فهم كالمد تنحسر حاجتهم الى نوعية جيدة محددة احيانا ثم لا تلبث ان تزداد الى حد كبير . ولكنك لا تستطيع ان تتنبأ بما سيحدث منهم ومتى . ذات مرة اعددنا كمية كبيرة من بذور القمح . لكن الفلاحين ارادوا شراء بذور الفول السودانى . وسرعان ما نفدت لدينا بذور الفول السودانى ، فتعرضنا للوم الشديد .

هذه المشكلات التى نواجهها ليست غريبة لأنها تعكس مشكلات انتاج الحبوب فى سائر هذه المنطقة .

المنطقة هنا ساحلية . والاقتصاد متطور نوعا ما . والاحصاء

ما زال يورد الكثير من الناس فلاحين ، لكنهم فى الواقع عمال . ومعظمهم يعملون اما فى مؤسسات محلية واما فى فرق بناء .

وحتى اولئك الباقون فى مجال الزراعة كثير منهم ينظر الى زراعة الحبوب على انه عمل جانبى . انهم يمضون معظم وقتهم فى رعاية اعمال اكثر ربحا مثل الصيد وتربية الدجاج ورعاية الفاكهة والبستنة التسويقية وما الى ذلك .

ومعنوية اولئك الذين يعتمدون اعتمادا رئيسيا على زراعة الحبوب من اجل المعيشة فى هبوط . لقد قال لى فلاح ذات مرة : " اريد ان انتج ما يطعمنى ، لا اكثر من ذلك . ما الفائدة حين تكون عربة سرغوم صينى ارخص من دراجة ؟ "

ان ظهور هذا التغير كما اشرت يمكن ان يعزو جزئيا الى وضع الاقتصاد الزراعى . فى السنوات الاخيرة تزداد على نحو دائم اسعار الكيماويات الزراعية وزيت الديزل والادوات الزراعية وغير ذلك من لوازم الانتاج ، بينما بقيت اسعار المنتجات الزراعية فى تلك الاثناء ثابتة . وانخفض معدل الدخل الصافى لزارعى الحبوب على مدى عدة سنوات .

ومؤخرا ارتفع سعر اللحم والبيض وحليب البقر والفاكهة والسمك والخضار . وهذا ما جعل زراعة الحبوب اقل رواجا . فكثير من الفلاحين تكيفوا مع هذه التغيرات فى الاسعار بعدم زراعة الحبوب . وهذا مفهوم . اى فائدة فى ان يكون العمل اصعب من غيره لكن عائده المادى اقل ؟

الاسرة النموذجية المكونة من خمسة افراد الآن متعاقدة على

عشرة موات من ا ارض (٦٧ر٠ من الهكتار) . فاذا كانت تزرع فيها القمح ، فان صافى دخلها السنوى سيتراوح من ٥٠٠ الى ٦٠٠ يوان (١٣٥ الى ١٦٢ دولارا امريكيا) . وان هى زرعت الارز ، فالرقم قد يتضاعف . وفى كل من الحالتين تكون المكافأة فى حدها الادنى بالنظر الى الجهد الكبير الذى بذل . واذا كان لدى هذه الاسرة عشرة اضعاف الارض المذكورة ، فان دخلها سيزداد بهذا القدر تقريبا من غير ان تزداد طاقة العمل الساعى . ونتيجة لذلك يكون من الافضل ان تشتغل الاسرة بانتاج الحبوب .

اعتقد ان هذه المشكلات منتشرة على نطاق البلاد عامة . والفرق فى حجم هذه المشكلات فقط . فمن اجل ان نضمن ازديادا طويل الامد فى انتاج الحبوب تلزمنا سياستان . الاولى ان ترفع اسعار الحبوب . والثانية ان نسمح لزارعى الحبوب بالعمل على نطاق واسع .

مطبعة اللغات الاجنبية بكين
توزيع
الشركة الصينية العالمية لتجارة الكتب
٣٥ شارع تشه قونغ تشوانغ الغربى ، بكين ، الصين
ص . ب ٣٩٩ بكين — الصين
الرمز البريدى ١٠٠٠٤٤

形形色色的中国人
刘炳文 熊蕾 编
阿卜杜·卡里姆译
(上)
*
外文出版社出版
(中国北京百万庄路24号)
邮政编码100037
北京外文印刷厂印刷
中国国际图书贸易总公司发行
(中国北京车公庄西路35号)
北京邮政信箱第399号 邮政编码100044
1993年(36开)第一版
(阿)
ISBN 7-119-01474-9/Z·521(外)
01250
17——A——2479PA

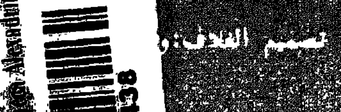


هذه نظرة اصيلة نادرة الى الصين المعاصرة.

فى هذه المقابلات الشخصية يتحدث ابناء الشعب الصينى عما ينتظم حياتهم من احداث عادية وغير عادية. ففلاح فقير فى هضبة اللوس يقول ان كل ما يحتاج اليه هو الماء، فبامتلاكه يمتلك كل شىء فى الحياة. وسجين مدان بعدد من الجرائم يتحدث عن طفولته البائسة. وعامل متعاقد فى الكويت يصرح بأنه ذهب للعمل فى الخارج من اجل كسب المال ومشاهدة العالم، وهناك يستبد به الحنين الى بلده. وموظفة علاقات عامة تعبر عن رغبتها الكبرى فى دراسة العلاقات العامة فى الولايات المتحدة، بينما طيارة فى السلاح الجوى تقول انها ليست نادمة على ان اصبحت طيارة برغم جميع الصعوبات التى تواجهها، وان من اكثر ما ندمت عليه فى حياتها هو انها لم تستطع اطالة شعرها الجميل. . .

وصياد السمك وقاطعة التذاكر والاستاذ الجامعى ورئيسة لجنة الحى السكنى والربان على نهر اليانغتسى.. جميع هؤلاء من الناس الذين يلتقيهم المرء فى كل ناحية من انحاء الصين.

من خلال هذه المجموعة الشيقة من الحكايات الشخصية سيخرج القارىء بلمحة لا تظهر فى التلفزيون، ولا فى الصحف اليومية او المجلات الاسبوعية، ولا يجدها لدى المرشدين السياحيين، ولا فى المحاضرات التى تتحدث عن الرحلات.



تصميم الغلاف: و